

# الأمثال في القرآن مواكب الإيمان

تأليف

أبو سامر / جابر كامل خليل بشير

مراجعة لغوية

طارق فتحى عبد الهادى أبو بكر

الطبعة الأولى ٢٠١٨

نسخة هدية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الحقّ تعالى:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على

جبلٍ لرأيتَه خاشعاً

متصدّعاً من خشية الله

وتلك الأمثال نضربها

للناس لعلّهم يتفكّرون﴾

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الحقّ تعالى:

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى  
وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى  
ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى  
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

[النجم ٣٩ - ٤٢]

## تعريف المثل لغةً واصطلاحاً

تعريف المثل لغةً هو الشّبه والنظير وجمعه أمثال.

أمّا اصطلاحاً فالمثل القرآني هو تشبيه شيء بشيءٍ آخر بينهما أوجهٌ شبه أو أوجه تضادّ لبيّن أحدهما الآخر ويصوّره ويقرّبه للعقل والحواس.

يقول ابن القيم رحمه الله: هو تشبيه شيءٍ بشيءٍ آخر بقصد تقريب المعقول من المحسوس [انتهى].

والمثل هو تحويل صورة عقلية إلى صورة حسية ثلاثية الأبعاد تعطي الموضوع جسداً ووجهاً وملامحاً وروحاً وحياءً وحركةً فيصبح الموضوع ظاهراً لا لبس فيه ولا خفاءً وكأنّ القارئ ينظر إليه عياناً ببصيرته فتزداد الصورة وضوحاً كلّما تباعدت التقاطعات وتكتسي العظام لحمًا وتزدان الصورة بالألوان فتترسخ في القلب والعقل والحواس.

وغالباً ما يتكوّن المثل القرآني من أربعة أجزاء:

طرف أول (مشبهه).

طرف ثاني (مشبه به).

أدوات تشبيه.

أوجه شبه.

وأحياناً يتم حذف أحد هذه الأجزاء إذا كان النصّ يساعد على تقديره ومعرفته.

وسوف نذكر هذه الأجزاء في كلّ مثل وننوّه عن الحذف إذا كان هناك حذفاً ونبين أسبابه.

## لماذا ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز؟؟

ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال للناس في القرآن وأكثر من ضربها ونسب ضربها لنفسه وامتنّ على الناس بضربها وتعريفها لهم وأشاد بما جاءت عليه من إتقان ودقة وإحكام وإصابة للغرض فقال سبحانه ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [الرعد ١٧]. وقال سبحانه: ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ [محمد ٣]. ومنع غيره أن يضربها وربط بين الأمثال والعلم فقال سبحانه: ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النحل ٧٤]. وقال سبحانه: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلهم يتذكرون ﴾ [الزمر ٢٧].

جعل الله الأمثال في القرآن سبب هداية لقوم فهموا المثل وعرفوا الحكمة منه ﴿ فأما الذين آمنوا فاعلمون أنّه الحقّ من ربّهم ﴾ [البقرة ٢٦]، كما جعله سبب ضلالة لقوم لم يتدبروه ولم يفهموه ولم يحاولوا فهمه ولا معرفة الحكمة منه ولم تصل إليهم رسالته ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضللّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضللّ به إلا الفاسقين ﴾ [البقرة ٢٦].

ويقول الشيخ الشعراوي: والله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان وربطها بالهدى والضلال. فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمنين ليزدادوا إيماناً ومن ناحية أخرى يردّ الله بها على الكافرين. [انتهى].

والله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال لتقرّب إلى أذهاننا ما هو غيب عنّا ومحجوب عنّا لا يصل إليه العقل البشريّ مهما اجتهد. وما هو محجوب عنّا فهو عدم بالنسبة للعقل. وهنا يأتي دور المثل ليجسّد الصورة ويعطيها أبعاداً فيعقلها العقل.

يقول الدكتور الفيّاض نقلاً عن الحكيم الترمذيّ: إنّ الأمثال هي نماذج الحكمة لما غاب عن أسماعنا وأبصارنا لتتهدي النفوس بما أدركت عياناً. [انتهى].

والأمثال القرآنية هي بمثابة وسائل إيضاح تساعد النفس على التخلص من شكّها وحيّرتها بالنسبة لأمرٍ خفيّة. وهي وسائل إدراك ما لا يمكن إدراكه من الأمور المكنونة إلا عن طريق المثل.

إن المقصود من ضرب الأمثال التأثير في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه. ذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه

الخفي<sup>(١)</sup> بالجلي<sup>(٢)</sup> والغائب بالشاهد فيصير الحسن مطابقاً للعقل وتلك هي القمّة في الإيضاح.

يقول الأستاذ طاحون: لقد ضُربت الأمثال للإيمان والكفر وفضحت النفاق وحضت على الإنفاق ورغبت في الخير ونددت بالشّر وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح وكشفت المستور وأقامت الأدلة والبراهين وتضمّنت خيري الدنيا والآخرة. [انتهى].

والأمثال من أمضى الأسلحة التي كان لها أثرها الفعّال في الخصومة الكلاميّة والصراع العقائدي بين القرآن وخصومه الذين قال الله عنهم ﴿ يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة ٣٠٢].

والأمثال كانت ناراً أحرقت أباطيل المبطلين وسيوفاً مُشرعة شهرها في وجه المعاندين والمكابرين. وهي إحقاق للحق وإزهاق للباطل وحكم للشيء أو عليه. والأمثال فيها العبرة لمن اعتبر والتذكرة لمن شاء أن يتذكّر.

(١) الخفي: ما لا نراه.

(٢) بالجلي: الواضح المرئي.



ومن أجل ذلك فالأمثال القرآنية تتطلب علماً يُعين على إدراك ما فيها من عظات وحِكَمٍ وعِبَرٍ وأسرار. كيف لا وضاربها سبحانه يقول ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [ العنكبوت ٤٣ ].

والأمثال القرآنية أحكامٌ وتشريعات. والقرآن لا يرى الأمثال وسيلة هداية فحسب وإنما يراها من أجدى<sup>(١)</sup> وسائلها وأقوى ما تُعالجُ به النفوس. قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ [ الإسراء ٨٩ ].

---

(١) أجدى: أنفع وأنسب.

## أنواع الأمثال : وما يهمنّا منها

قسّم الباحثون والدارسون أمثال القرآن إلى عدّة تقسيمات نسرد بعضها باختصار ودون استدعاء التفاصيل.

فبعضهم قسّم الأمثال إلى طويل وقصير. ونتساءل ما الذي يترتب علي تقسيم كهذا؟ فلا يوجد من الخصائص الفنيّة ما يميّزون به بين المثل الطويل والمثل القصير غير الطول والقصر. والمعروف أنّ الطول والقصر مسألة نسبيّة لا تخضع لقانون محدد وتختلف من تقدير شخص إلى آخر.

وبعضهم قسّم الأمثال إلى ظاهر وكامن<sup>(١)</sup>. فالظاهر ما احتوى على كلمة "مثل" وإلاّ فهو كامن.

ومنهم من قسّمها إلى مركّب وبسيط. فالمركّب عندهم ما كان له طرفان مشبّه ومشبّه به. وأما البسيط فما كان له طرف واحد أمّا الطّرف الآخر فمحذوف.

وبعضهم وضع تقسيماً حسب نصّ المثل. فإنّ كانت أجزاء المثل حاضرة واضحة فهو بالنسبة لهم مثل. وإنّ كان هناك نقص في الأطراف فهو إمّا عبرة أو صفة لشيء وليس بمثل.

وآخرون قسّموها إلى مكّية ومدنيّة.

(١) كامن: خفيّ ويحتاج إلى توضيح.

ماذا يهَمُّنا من هذه التقسيمات؟

هذه التقسيمات لا تهَمُّنا في شيء لأنَّ التمييز بينها ليس واضحاً وليس يسيراً وليس ذي أهمّية لغير الباحثين. ويوجد في القرآن عشرات الآيات تحوي كلمة "مثل" وهي في الحقيقة ليست أمثالاً بل إشارات لأمثال.

هدفنا في هذا الكتاب ليس البحث التحليلي وحصص الأنواع أو استقصاء أعداد الأمثال. بل كلّ هدفنا هو التمييز بين ما هو مثل وما هو ليس بمثل بغضّ النظر عن الطول أو القصّر أو احتواء الآية على كلمة "مثل" أو كانت الآية خُلُوّ منها<sup>(١)</sup>.

وهدفنا الآخر هو تفسير المثل ومتابعة مدلولاته ودراسة أبعاده وتقاطعاته والتأكيد على الرسالة التي يحملها هذا المثل وما للمثل من إحياءات أخرى خفيّة تتناسب مع عصرنا الحاضر. ثم أخذ العبرة رجاء استيعاب المعنى وتجسيد الصورة وتدبر كتاب الله وتوصيل علوم الدّين إلى عموم المسلمين ليفوزوا بخيريّ الدنيا والآخرة ليفوزوا بلقب "عالم" الذي رصده الله لمن يعقل أمثاله في كتابه العزيز. ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها

إلّا العالمون ﴾ [ العنكبوت ٤٣ ].

(١) الآية خُلُوّ منها: الآية لا تحوي كلمة "مثل".

## أمثال القرآن .... مواكب الإيمان

الأمثال في القرآن تصوّر لنا الخير والأخيار والإيمان والمؤمنين وتشبّههم بالشجرة الطيبة وتصفهم بأنهم خير البرية. وهذا موكب إيماني مهيب أن نرى رايات الإيمان مرفوعة خفاقة تحملها قلوب مؤمنة بقاء الله ووعدته ووعيده.

والأمثال تسقّه أحلام المشركين وتمرّغ كبرياء الكافرين في الوحل وتفضح معتقداتهم وممارساتهم. وهذا موكب إيماني مهيب يهدم الشرك ويُعلي كلمة الحق ويُزهق الباطل.

وتستمرّ مواكب الإيمان في مسيراتها منذ عهد آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة. كلّ رسول يسلمّ الرّاية لمن بعده حتى وصلت الرّاية إلى صاحب راية الحمد صلّى الله عليه وسلّم فكان موكبه أعظم هذه المواكب وأكثرها دواماً واستمراراً. أمّا الرّاية الآن فيحملها علماء هذه الأمة ومُخلصوها فهم من اقتسم ميراث النبي صلّى الله عليه وسلّم والأنبياء لا يورثوا إلا العلم والإيمان والإخلاص.

والواقع أنّ من يتأمّل الأمثال القرآنيّة يجد نفسه في معرّضٍ ضمّ أروع اللّوحات الفنيّة الإيمانيّة. فبدلاً من أن تسمع ألفاظاً فأنت في الحقيقة ترى صوراً تتتابع أمام ناظريك.

قال الإمام الماوردي: من أعظم علوم القرآن علم أمثاله  
والناس في غفلة عنه. [انتهى].

وقال الشيخ كشك: وللأمثال وظيفة بعيدة الأثر في البيان  
والوضوح. حتى يُخيّل لك أنّ الأمر المعقول بعد ضرب المثل  
أصبح ملموساً تتحسّسه الأنامل وملحوظاً تبصره العيون شحماً  
ولحماً. [انتهى].

وأنا أتعامل مع كلّ مثل كموكب إيمانيّ مستقلّ سبقه مواكب  
وتتّبعه مواكب. هدف هذه المواكب تجديد إيمان المؤمنين وتنبية  
عقول وقلوب الغافلين ولئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد  
الرسل وبعد القرآن وما يحوى من آيات وأمثال.

وأمثال القرآن محور أساسيّ من المحاور الخمسة التي أشار  
إليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الذي رواه أبو  
هريرة قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ القرآن نزل على خمسة  
أوجّه: حلال ... وحرام ... ومحكم ... ومتشابه ... وأمثال.  
فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتّبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه  
واعتبروا بالأمثال" [نقله ابن حجر العسقلاني في تخرّيج مشكاة  
المصابيح].

## آيات تحوي كلمة "مثل" وليست بأمثال بل هي

### إشارات لأمثال

(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ [البقرة ٢٦].

(٢) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾ [البقرة ٢١٤].

(٣) ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد ١٧].

(٤) ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم ٤٥].

(٥) ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل ٦٠].

(٦) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٧٤].

(٧) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء ٨٩].

﴿ ١٨ ﴾ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلّ مثل وكان الإنسان  
أكثر شيءٍ جدلاً ﴿ [الكهف ٥٤].

﴿ ٩ ﴾ يا أيّها النّاس ضُربَ مثلاً فاستمعوا له ﴿ [الحجّ ٧٣].

﴿ ١٠ ﴾ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من  
قبلكم وموعظة للمتّقين ﴿ [النور ٣٤].

﴿ ١١ ﴾ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون  
سبيلاً ﴿ [الفرقان ٩].

﴿ ١٢ ﴾ وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبزنا تنبيراً<sup>(١)</sup> ﴿ [الفرقان ٣٩].

﴿ ١٣ ﴾ وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالمون ﴿  
[العنكبوت ٤٣].

﴿ ١٤ ﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي  
رميم ﴿ [يس ٧٨].

﴿ ١٥ ﴾ ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل ولئن جئتهم  
بآية ليقولنّ الذين كفروا إنّ أنتم إنّ مبطّلون ﴿ [الروم ٥٨].

(١) تبزنا تنبيراً: أهلكتناهم إهلاكاً تاماً بسبب كفرهم.

(١٦) ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل لعَلّهم يتذكّرون ﴾ [ الزمر ٢٧ ].

(١٧) ﴿ فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ومضى مثل الأوّلين ﴾ [ الزخرف ٨ ].

(١٨) ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مُسوداً وهو كظيم ﴾ [ الزخرف ١٧ ].

(١٩) ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخريّن ﴾ [ الزخرف ٥٦ ].

(٢٠) ﴿ ذلك بأنّ الذين كفروا اتّبعوا الباطل وأنّ الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ [ محمّد ٣ ].

(٢١) ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها<sup>(١)</sup> ﴾ [ محمّد ١٠ ].

(١) أمثالها: لهم مثل التدمير الذي عاقب الله به الأمم المكذّبة السابقة.



## مقدمة المؤلف

والآن جاء دور الأمثال. وقد رصدنا في كتاب الله الحكيم ثلاثة وخمسين مثلاً. عدد منها لا بأس به يُكتب عنه لأول مرّة. وهاهي خارطة طريق لأسلوبنا في تناول الأمثال.

(١) نكتب النصّ القرآني للمثل مع تحديد اسم السورة ورقم الآية وهي مرتّبة حسب ورودها في القرآن.

(٢) نذكر إن كان المثل مكيّاً أو مدنيّاً لأنّ هذا التقسيم له دور في فهم المثل وفي تفسيره ومعرفة أبعاده. فأمثال مَكّة تدعو الى الإيمان وتُقبّح الكفر وتُسفّه أحلام الكافرين والمشركين وتستهزئ بألّهم الشّركيّة. وأمّا أمثال المدينة فغالباً ما تحدّد أجر العمل أو تتطرّق إلى قضايا أخرى غير قضايا الإيمان والكفر كالمنّ والأذى التابع للصّدقة ومبطلات الأعمال.

(٣) بعد مقدّمة تمهيديّة لمضمون المثل نبدأ بذكر أطراف المثل وهل هو مثل ظاهر مكتمل الأطراف والأدوات أو أنّ به حذفاً فننوّه عنه<sup>(١)</sup> ونقدّره. وهل هو مثل مركّب ممتدّ أي

(١) ننوّه عنه: نذكره ونشير إليه.

يلزمه مشبه به ثاني لأنّ المشبه به الأوّل يتحوّل تلقائياً إلى مشبه في حالة المركّب الممتدّ.

(٤) التوسّع في الشرح يكون عند مناقشة أوجه الشبه أو أوجه التصاد بين المشبه والمشبه به مع ذكر تقاطعات المثل وما يُفهم من بين السطور.

(٥) نستدعي أيّ آيات قرآنيّة أخرى تخدم الشرح أو أحاديث نبويّة شريفة أو أحاديث قدسيّة جليّة تزيد المثل إيضاً وتجسيداً وتصويراً وألواناً.

(٦) نضيف إلى الشرح مقتبسات من أقوال العلماء والباحثين مع ذكر اسم صاحب الإقتباس. في حالة إن كان المثل يُكتب عنه لأوّل مرّة نكتفي بإضاءاتنا الخاصّة حتى نتأكّد أنّ المثل أصبح واضحاً تمام الوضوح ورسالته ستصل إلى كلّ قارئ ثم نربطه بعصرنا الحاضر.

(٧) نكتب معاني الكلمات وإذا كان هناك مزيد من الشرح والتوضيح أو تخريج الأحاديث أسفل الصفحات.

(٨) أمّا هذا البند فأخصّصه لمخاطبة قُرّائي الأعزّاء الذين أتمنّى عليهم أن يدرسوا الكتاب دراسةً وافيةً متأنيةً مستفيضةً مرّات ومرّات. وألّا يقرأوا الكتاب كقراءة الجرائد اليوميّة. فهذا دين. والدين هو رأس مال كلّ منّا في الدنيا والآخرة.

وبوصول هذا الكتاب إلى القارئ فقد قامت عليه الحجة وسوف يُسأل عن هذا العلم. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [ الزُّمَرُ ٩ ]، ويقول سبحانه ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [ المجادلة ١١ ].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ. وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيْتَانِ فِي الْمَاءِ. وَفَضَّلَ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلَ الْقَمَرَ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ. وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ". [رواه أبو داود والترمذي وغيرهما].

(٩) رَبَّنَا إِنَّا نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. رَبَّنَا أَعْنَا عَلَى اقْتِحَامِ الْعُقْبَةِ. فَالْعُقْبَةُ كَثُودٌ وَالْحَمْلُ ثَقِيلٌ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً. وَاللَّهُ إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ يَحْتَاجُ إِلَى إِعَانَةٍ مِنَ اللَّهِ وَتَثْبِيتٍ مِنَ اللَّهِ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ لِيَكُونَ الْعَمَلُ ثَابِتاً صَالِحاً مَبَارَكاً

مقبولاً. أرجو الله وأدعوه وأتوسل إليه أن يجعل في هذا العلم البركة والخير والقبول والصلاح وعميم الفائدة للمسلمين في الدنيا والآخرة وأن يجزي كل من ساهم في إخراجه للنور ولكل من قرأه وتدبره خير الجزاء.

١٠) أسأل الله العليّ القدير أن يتقبل منا جهدنا هذا المتواضع وأن يتجاوز عن زلاتنا وأن يجعل هذا العمل وهذا السعي خالصاً لوجهه الكريم إيماناً واحتساباً. وأسأله سبحانه أن يُلبسنا نوراً نزيّناً به وجوهنا وقلوبنا وأن يغفر لنا ما يعلم وأن يبدل سيئاتنا حسنات وأن يمنحنا وكل من قرأ الكتاب وتدبره لقب "عالم" الذي لم أسع إليه إلا لأنّ المانع له هو الله العليّ الكبير. وصلى الله وسلّم على الحبيب المصطفى محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف/

جابر كامل بشير

مدينة نصر- القاهرة

أكتوبر ٢٠١٨

## من سورة البقرة (١)

### مثلا المنافقين في سورة البقرة

قسّم الله الناس في بداية سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام :  
مؤمنون وكافرون ومنافقون.

أمّا المؤمنون فيعرّفهم بأنّهم يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون ممّا رزقهم الله نفقات مفروضة وصدقات نافلة. وهم يؤمنون بما أنزل على محمّد صلّى الله عليه وسلّم كما يؤمنون بما أنزل على من سبقه من الرسل صلوات الله وسلامه على جميع رسل الله. كما وصفهم بأنّهم يوقنون<sup>(١)</sup> بالبعث بعد الموت وما يتلوه من ثواب وعقاب وبشّرههم بأنّهم هم الفئة الفائزة النّاجية.

وأما الكافرون فهم واضحون من اسمهم ولا يحتاجون إلى أوصاف كثيرة فيكفيهم من الخزي أنّهم كافرون ولهم عذاب عظيم.

أمّا الفئة الثالثة فهي التي تحتاج إلى تبصير المؤمنين بهم فهم الأخطر ولذلك توسّعت الآيات في سرد أوصافهم لأنّ أمراضهم قلبية خفية ولا يعلمها إلّا خالقهم. ﴿ ألا يعلم من خلق وهو

اللّطيف الخبير ﴾ [ الملك ١٤ ].

(١) يوقنون: يؤمنون إيماناً قلبياً راسخاً لا يخالطه شكّ.

وليزداد المؤمنون معرفة بهم وليأخذوا حذرهم منهم ضرب الله للمنافقين مثلين : مثل نارٍ ومثل مائي وهذا يدل على أنّ النفاق أصناف كثيرة. "فكانت الأمثال كعمليات قلب مفتوح نطلع من خلالها على ما يجول في دواخلهم ونشخص أمراضهم ونعرف نفاقهم". (١)

ولمّا كان أمر هذه الطائفة يدعو إلى الغرابة والعجب لشذوذه وغموضه وخطورته ضرب الله لهم بحسب حالهم مثلين نارياً ومائياً لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة. فالنار مادة النور والماء مادة الحياة.

(١) المثل الناري:- قال الحق سبحانه:-

﴿ مثلهم (الحديث هنا عن قلوب المنافقين) كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴿١٧﴾ صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ [البقرة ١٧-١٨].

وتقدير المثل أنّ الله سبحانه أخبر عن حال قلوب المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي والتنزيل أنّهم

(١) الأمثال القرآنية للدكتور محمد بكر إسماعيل.

بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء لهم وتتشع<sup>(١)</sup> ما هم فيه من الظلمات. فاستيقاد<sup>(٢)</sup> النار وطلب الإضاءة هو ما يشير إلى دخولهم في الإسلام فاستضاءوا به من ظلمات الجهل والكفر السابق على دخولهم الإسلام. فخالطوا المسلمين وانتفعوا بنور الإسلام فأبصروا وعرفوا الحق من الباطل والحلال من الحرام ونجوا من القتل والسبب وسلب المال في الدنيا. ولكن لأنّ الإيمان لم يتجدر<sup>(٣)</sup> في قلوبهم ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. ومن المعلوم أنّ النار فيها الإضاءة وفيها الإحراق. فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق في الآخرة. وهذا حال من ابصر ثم عمي. وحال من دخل الإسلام ثم ارتدّ عنه بقلبه.

ولفظ "الذي" في الآية ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد... ﴾ يستخدم للواحد والجمع. ولذلك صحّ حمل الكلام في أوّله على الواحد وفي آخره على الجمع.

---

(١) تشع: تنير.

(٢) استيقاد: إشعال.

(٣) لم يتجدر: لم يستقر الإيمان ويترسخ في قلوبهم حتى تكون له جذور.

وبهذا يكون الطّرف الأوّل (المشبهه): هم المنافقون الذين يأتون المؤمنين بوجه ويأتون أعداءهم من المشركين واليهود بوجه آخر.

والطّرف الثاني (المشبهه به): جماعة من الناس استوقدت ناراً.

وجه الشبه: المنافقون كانوا في ظلمة الشرك والجهل فأسلموا فأضاء لهم الإسلام. ولكن قلوبهم مليئة بالشكوك والبدع والجهالات التي أعادت الظلمة إلى قلوبهم فأطفأ الله نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وبذهاب نورهم عادوا صُمّاً لا يسمعون عُمياً لا يبصرون بُكماً لا ينطقون. وهم لا يرجعون إلى الإسلام الذي كدّروا صَفْوَهُ بجهلهم وشكهم ونفاقهم وهلعهم من افتضاح أمرهم<sup>(١)</sup> وسوء مصيرهم. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أداة التشبيه: تكرار كلمة "مثل" وزيادة حرف "الكاف" في الثانية. وحين يتمّ الجمع بين كلمة "مثل" و "الكاف" فالقصد هو تأكيد التشابه والتماثل والتقابل بين طرفي التشبيه.

(١) هلعهم من افتضاح أمرهم: خوفهم أن يكتشف المؤمنون نفاقهم.



(٢) المثل المائي:- قال الحق سبحانه:-

﴿ أو كصيبٍ من السماء <sup>(١)</sup> فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ [ البقرة ١٩ - ٢٠ ].

بدأ المثل بكلمة "أو" وهي تعني أنّ كلا المثلين ينطبقا على حال المنافقين.

**الطرف الأول (المشبه):** المنافقون الذين دخلوا الإسلام واستناروا بنوره ثم عادوا إلى هواجسهم <sup>(٢)</sup> وبدعهم الكفرية. فهم تارة في نور الإسلام وتارة في ظلمات الهواجس والردة والكفر.

**والطرف الثاني (المشبه به):** ظهر لهم الحق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فكان الوحي والتنزيل كصيب من السماء اختلط بظلمات وشكوك ونفاق وبدع احتفظوا بها في قلوبهم وكتموها وكرهوا إخراجها.

(١) الصيب: مطر غزير فيه نفع كبير للبلاد والعباد.

(٢) هواجسهم: شكوكهم.

وجه الشبه: المطر من السماء هو الوحي وتنزل القرآن. أما الرعد هو الخوف والفرع الذي يملأ قلوبهم من عقاب الله في الدنيا والآخرة وخشيتهم من افتضاح أمرهم في الدنيا. وأما البرق فهو ما يلمع في قلوبهم من بقايا نور الإسلام في بعض الأحيان.

قال ابن عباس: ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ لشدة ضوء الحق. ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾: كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ثم إذا طغت ظلمات قلوبهم ارتكسوا<sup>(١)</sup> منه إلى الكفر والشك والتردد فوقفوا متحيرين.

وهكذا يكون حالهم في الآخرة. يُعطى المؤمنون النور بحسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ومعهم المنافقون. فمنهم من يُعطى من النور أطول من النخلة وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يُطفأ نوره تارة ويضيء تارة ويبدأ الفريقان في قطع الصراط. وبعد مسافة يُطفىء الله نور المنافقين بالكلية وهذه هي خدعة الله الكبرى لهم.

قال الحق سبحانه: ﴿ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا

(١) ارتكسوا: ارتدوا على أدماعهم من النور إلى الظلمات.

قليلًا ۞ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿ [النساء ١٤٢ - ١٤٣].

وقد صور الله لنا حال المؤمنين على الصراط بقوله سبحانه ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد ١٢].

كما صور لنا الحق سبحانه تفاصيل خدعته للمنافقين في نفس السورة ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً<sup>(١)</sup> فَضْرِبَ بينهم بسور<sup>(٢)</sup> له باب باطنه فيه الرحمة<sup>(٣)</sup> وظاهره من قبَله العذاب<sup>(٤)</sup> ﴾ [الحديد ١٣].

(١) التمسوا نورا: احرصوا على النور.

(٢) فضرب بينهم بسور: السور هنا يفصل بين المؤمنين والمنافقين.

(٣) باطنه فيه الرحمة: أى من جهة المؤمنين.

(٤) وظاهره من قبله العذاب: الجانب الآخر من ناحية المنافقين.

## من سورة البقرة (٢)

### من علم اليقين ... إلى عين اليقين

قال الحق سبحانه:

(١) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكَمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ <sup>(١)</sup> مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة ٥٥ - ٥٦].

(٢) ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذِرَ الْمَوْتِ <sup>(٢)</sup> فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة ٢٤٣].

سبحان الله الذي أوجدنا من العدم. سبحان من يُحيي ويُميت. سبحان من يُحيي العظام وهي رميم. <sup>(٣)</sup> سبحان ذي العظمة والجلال يقول للشيء كن فيكون. ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل ٤٠].

إنّ قضية البعث وإحياء الناس بعد الموت شغلت الناس قديماً وحديثاً. فمنهم من آمن ومنهم من كفر وقد أرسل الله عزّ وجلّ الرسل وأنزل الكتب وضرب الأمثال لهداية البشر وإقامة الدليل

(١) بعثناكم: أحييناكم.

(٢) حذر الموت: خوفاً وهرباً من الموت.

(٣) رميم: العظام بليت وتفتتت.

على أنّ هناك حياة أخرى أبدية بعد هذه الحياة الدنيا الفانية. وأنّه سبحانه كما أوجدنا من العدم فسيُحيينا بعد موتنا ويحاسبنا على ما عملنا في الحياة الدنيا: المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. هذا العلم يُسمّى "علم اليقين".

خصوم<sup>(١)</sup> قضية البعث هم أولئك الذين أضلّتهم الشبهات وغرّتهم الحياة الدنيا ولم يؤمنوا بعالم الغيب وأنكروا وجود الله الخالق الحكيم المدبّر العظيم. أولئك عُرفوا بالمُلحدين والطبيعيّين والدهريّين والشيوعيّين والوجوديّين. وهم الذين قالوا: لا إله لهذا الكون. إنّ هي إلاّ أرحام تدفع وأرض تبلع وما يُهلك النّاس إلاّ الدّهر. ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقّاً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين ﴿ [ النحل ٣٨-٣٩ ].

والآيات التي تنصّ على أنّ الله هو المُحيي والمُميت وأنّه سبحانه قادر على ذلك أكثر من أن تُعدّ. والآيات التي تنصّ على أنّه سبحانه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أكثر من أن تُخصى.

(١) خصوم: أعداء.

ولذلك انتقل الحقّ سبحانه من تقرير البعث والإحياء إلى تمثيل  
البعث والإحياء. فنحن نرى عملية الإحياء تجري أمامنا في مثلين  
عظيمين بطليهما عزيز ونبيّ الله إبراهيم عليه السلام. وذلك ليترقى  
المؤمنون من علم اليقين إلى عين اليقين. وليكونا رداً مُفحماً على  
الشيوعيين والوجوديين والماديين وكلّ خصوم قضية البعث.  
**المثل الأوّل:** قال الحقّ سبحانه:

﴿ أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها <sup>(١)</sup> قال أنى  
يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه قال كم  
لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر  
إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه <sup>(٢)</sup> وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية  
للناس وانظر إلى العظام كيف ننشّزها <sup>(٣)</sup> ثمّ نكسوها لحماً فلما  
تبين له قال أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ [البقرة ٢٥٩].

### الطرف الأوّل:

عزيز الذي مرّ على بيت المقدس وقد استباحها الملك نبوخذ  
نصر ملك بابل فخرّبها وهدّمها وقتل علماء بني إسرائيل وأشرفهم  
وأخذ نساءهم ليعملن في البيوت في خدمة نساء بابل وأخذ

(١) خاوية على عروشها: مهذّمة لا يسكنها أحد.

(٢) لم يتسنّه: لم يتعفن أو لم يفسد.

(٣) ننشّزها: يخلق العظام من المضغّة ثمّ يكسوها لحماً.

رجالهم أسرى ليعملوا له حدائق بابل المعلقة. وكان عزيز في هذه الأثناء في سفر خارج المدينة. قال عزيز أتى يحيى الله هذه القرية التي أصبحت خرابات وأطلالاً ولا يسكنها إلا البوم والغربان والخفافيش؟

### الطرف الثاني:

أجابه الله على سؤاله بست آيات عملية: أولها: أماته مائة عام ثم أحياه. ثانيها: حفظ له طعامه وشرابه طازجاً مائة سنة في الخلاء. ثالثها: أحياه له حماره بعد أن تفرقت عظام الحمار. رابعها: كسا عظام الحمار لحماً وعصباً وشرابين وأوردة وجلداً وشعراً وأرسل ملكاً ينفخ الروح في منخري الحمار. خامسها: يجيب على السؤال: لماذا أمات الله عزيزاً مائة سنة؟ الجواب: لأن الله خلال هذه المدة أحيى بيت المقدس فامتلات بالعمران والسكان. سادسها: بإحياء عزيز وإحياء بيت المقدس أحيى الله التوراة لأن عزيز كان الوحيد الباقي ممن يحفظون التوراة. وهكذا أحيى الله إنساناً وحيواناً ومدينة وكتاباً سماوياً بعد مائة عام من الموت والفناء.

أداة التشبيه: حرف الكاف في كلمة (كالذي). وحرف الكاف هنا بمعنى "مثل".

**وجه الشبه:** هذا المثل القرآني يتضمّن آية محسوسة ملموسة منظورة على البعث والنشور ويقدم الدليل القاطع والبرهان الساطع على قدرة الله العظيم. ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿ قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكلِّ خلقٍ عليم ﴾ [ يس ٧٨-٧٩ ].

لم يكن سؤال عزيز عن شكّ في قدرة الله أو نقص في الإيمان بل طلباً للاستزادة من علم اليقين. أي ليزداد يقيناً بقدرة الله على إحياء الموتى فكان الجواب عملياً وتعليمياً وارتقائياً. أمّا عملياً فالإحياء تمّ في الواقع تحت بصر عزيز. فقد أحياه الله بعد مائة سنة مرّت عليه كأنّها عشية أوضحاها. ويقول العلماء إنّ الله أحيأ رأسه وبصره وأمره أن ينظر ليرى كيف يحيي الله باقي جسده. ثمّ أراه طعامه وشرابه طازجين بعد مائة سنة معرّضة لكلّ أسباب الفساد ولكنّه حفّظ الله سبحانه. ثمّ أراه كيف يجمع عظام الحمار ويركّبها في أماكنها حتى أصبح حماراً عظماً ثمّ كسا العظام لحماً وأنشأ الأعصاب والأوردة والشرايين والجلد والشعر. ثمّ أرسل ملكاً فنفخ الرّوح في منخريّ الحمار<sup>(١)</sup> فنهق بإذن الله. وأمّا تعليمياً فليعلم ذلك كلّ النّاس وقد جعل الله المثل آية للناس ﴿ ولنجعلك

(١) منخريّ الحمار: فتحتي أنف الحمار.



آية للناس ﴿ وليكون ردّاً مُفْجِماً<sup>(١)</sup> معجزاً على الشيوعيين والوجوديين والماديّين والدهريّين والملحدّين وكلّ من ينكر قضيّة البعث والحياة بعد الموت. وأمّا ارتقائياً فَلْيَزْتَقِي عزيز وجميع المؤمنين إلى عين اليقين وهي مرحلة أعلى من علم اليقين.

### المثل الثاني: قال الحقّ سبحانه:

﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ<sup>(٢)</sup> إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ<sup>(٣)</sup> يأتينك سعيّاً واعلم أنّ الله عزيز حكيم ﴿ [البقرة ٢٦٠].

### الطرف الأوّل:

سيّدنا إبراهيم الخليل يطلب من خليله أن يُريّه كيف يحيي الموتى. ليس شكّاً في قدرة الله ولا مرضاً في القلب ولا نقصاً في الإيمان ولكن للتّرقّي من علم اليقين إلى عين اليقين فيزداد يقيناً على يقين ورسوخاً في العلم والإيمان والدين. إنّ إبراهيم عليه السلام يعلم أنّ الله قادر على الإحياء بعد الإماتة وهو على كلّ

(١) ردّاً مُفْجِماً: جواباً شافياً.

(٢) فصرهنّ: اذبحهنّ وقطعهنّ.

(٣) ادعهنّ: اطلب منهنّ الحضور إليك.

شيء قدير. وإبراهيم من هو؟ أبو الحنيفية<sup>(١)</sup> السمحاء. ولكنه يريد أن يُضيف إلى هذا العلم الرؤيا العملية بالنظر فيصبح إيمانه عين اليقين وهي رتبة فوق علم اليقين.

### الطرف الثاني:

استجاب الله سبحانه لطلب خليه إبراهيم عليه السلام وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويتبع التعليمات.

أداة التشبيه: أداة التشبيه في هذا المثل محذوفة ولكنها مفهومة. فإبراهيم بسؤاله كان يقصد كيفية إحياء البشر. فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ليكون هذا مثلاً يُعني عما سأل.

وجه الشبه: من يستوعب إحياء الطيور سوف يستوعب إحياء البشر. فالطائر كالإنسان يتكوّن من جسم وروح ودم وشرايين وأوردة وأعصاب ومفاصل وأربطة في الأطراف.

واختلفوا في ﴿ أربعة من الطير ﴾ ما هنّ؟ والجواب لن يزيد المثل وضوحاً لأنّ القضية قضية إحياء بعد موت وليس قضية بظ أو إوز أو دجاج. ولا طائل<sup>(٢)</sup> من وراء معرفتهنّ.

قال ابن عباس: إنّ إبراهيم فعل ما أمره الله. ذبحهنّ ونتف ريشهنّ وقطعهنّ ومزقهنّ وخلط بعضهنّ ببعض ثم جزأهنّ أجزاء وجعل

(١) الحنيفية: عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢) لا طائل: لا فائدة.

على كلّ جبلٍ منهمنّ جزءاً. ثمّ أمره الله عزّ وجلّ أن يدعُهنّ<sup>(١)</sup> فدعاهنّ كما أمره الله. فجعل ينظر إلى الرّيش يطير إلى الرّيش والدّم إلى الدّم واللّحم إلى اللّحم والأجزاء من كل طائر تجتمع مع بعضها حتى قام كلّ طائر على حدة واقفاً على رجليه. ثمّ أتينه يمشين سعيّاً<sup>(٢)</sup> ليكون أبلغ لإبراهيم في الرؤية التي سألتها.

ولهذا قال سبحانه: ﴿واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾. أي أعلم يا إبراهيم أنّ الله عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء وما شاء الله كان بلا مانع لأنّه القاهر لكلّ شيء القادر على كلّ شيء المحيي المميت الحكيم في أقواله وأفعاله وشرّعه وقدره سبحانه.

---

(١) يدعُهنّ: يشير إليهنّ بالحضور إليه.  
(٢) سعيّاً: مشياً سريعاً.

مثل الكافرين وأوثانهم

قال الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا <sup>(١)</sup> عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعَقُ <sup>(٢)</sup> بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ [البقرة ١٧٠ - ١٧١] .

هذا مثلٌ من واقع البادية والرعاة يعرفه أهل الجزيرة العربيّة جيّداً للكافر الذي يدعو أصنامهم وأوثانهم أن ترزقه وتجلب له الخير وتشفيه وتباركه.

حتى إذا جاءهم رسولٌ من عند الله بالهدى والحق والصراط المستقيم رفضوه وتمسّكوا بعبادات آبائهم ومعتقدات سابقهم. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾. ثم يصف القرآن آبائهم وما كانوا عليه من ضلالات ومعتقدات باطلة ﴿ أُولَئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

(١) ألفينا: وجدنا.

(٢) ينعق: الراعي ينادى على غنمه طالباً منها الاتجاه يميناً أو شمالاً.

فهم يستحقون مثلاً يُخلد ضلالهم وضلال آبائهم من قبلهم  
ويكون شاهداً عليهم يوم الحساب.

**الطرف الأول (المشبه):** الذين كفروا وأصمّوا آذانهم عن دعوة الحقّ وأغمضوا أعينهم عن النور والهداية يدعون أوثاناً وأصناماً وحجارة طالبين الخير والرزق والشفاء والتوفيق من جمادات.

**والطرف الثاني (المشبه به):** مثلهم كالرّاعي الذي ينق بغنمه ويطلب منها الاتجاه يميناً أو شمالاً. والغنم لا تعي<sup>(١)</sup> ما يقول الراعي ولا تسمع من دعائه إلا ما تردده الجبال والوديان والصحراء الشاسعة الممتدة من صدى الصوت.<sup>(٢)</sup>

**أداة التشبيه:** تكرار كلمة "مثل" مع زيادة حرف "الكاف" في كلمة "كمثل".

**وجه الشبه:** المدعو في الحالتين إمّا صنماً أو حجراً أو بهيمة. وهذه الأشياء لا تنطق ولا تسمع ولا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً ولا تملك هدايةً ولا عقلاً. وهي عاجزة عن تدبّر الكلام ووزنه بميزان الحقّ والعدل والاستقامة.

(١) لا تعي: لا تفهم.

(٢) صدى الصوت: ارتداد الصوت.

ولقد اختلف النَّاس في المثل اختلافاً كثيراً واضطربوا اضطراباً شديداً. وقد لخص العلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسّمين الحلبي في كتابه " الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون " أقوال العلماء واختلافهم في فهم هذا المثل على أربعة أقوال:-

القول الأول: مثل الذين كفروا في قلة فهمهم كمثل الرعاة يكلمون البُهْم<sup>(١)</sup> والبُهْم لا تعقل شيئاً.

القول الثاني: عدم استجابة الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم عندما يدعوهم للإيمان فهم كمثل بهائم الذي ينعق.

القول الثالث: مثل دعاء الكفار أصنامهم وأوثانهم كمثل الناعق بغنمه وهو القول الصحيح.

القول الرابع: وهو قول سيبويه. يقول "مَثَلُكَ يَا مُحَمَّد وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّاعِقِ وَالْمَنْعُوقِ بِهِ".

ونبدأ بالرد على سيبويه. ونقول أنّ تفسير سيبويه للمثل هو تفسير إعراب وليس تفسير معني. أي أنّ ما يهّمه هو أجزاء الجملة الرئيسيّة أو ما ينوب عن الجزء المحذوف. وهذا التفسير مردودٌ على قائله.

(١) البُهْم: البهائم من غنم أو ماعز أو إبل أو غيرها.

ونقول إن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. بعثه شاهداً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. بعثه الله هادياً للأمم وحاشا لله أن يكون بعثه ناعقاً للغنم. وحاشا لله أن يكون هذا هو مثله في كتاب ربه. وغفر الله لنا ولسيبويه ولجميع العلماء ولجميع طلاب العلم الذين سبقونا واللاحقين بعدنا طالما اجتهدوا وخلصت النوايا لله سواء أصابوا أم زلت بهم الأقدام. طالما أن القصد هو تنوير عباد الله وتوصيل ما أنزل الله إلى أفهامهم. والله أعلم بمراده وهو العليم الحكيم.

ويرى ابن عباس أن المخاطب في الآية هم اليهود. وعندما سُئل عن الدليل قال: إن اليهود ذُكروا في الآيات السابقة للمثل واللاحقة للمثل فكان ما بينهما خبراً عنهم حتى تأتي الأدلة واضحة بانصراف الخبر عنهم إلى غيرهم.

وأنا سأبدأ بما انتهى إليه كلام ابن عباس الذي يطلب الأدلة واضحة بانصراف الخبر عن اليهود إلى غيرهم:-

(١) أن الآيات التي سبقت المثل تتحدث عن طائفة من الناس اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله وهم المشركون. والآيات التي بعد المثل مباشرة

تخاطب المؤمنين. والحقيقة أنّ الآيات تتطرق إلى  
تعداد فئات الناس المختلفة وليس خاصاً باليهود.

(٢) أنّ المثل بدأ ب ﴿ ومثل الذين كفروا ..... ﴾. فالمثل  
يتحدّث عن الكفّار، واليهود أصحاب كتاب عندما  
يعنيهم الله بالخطاب يقول ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ليشمل  
اليهود والنصارى. أو يقول سبحانه ﴿ ألم تر إلى الذين  
كفروا من أهل الكتاب ﴾ ليعنى فئة الكافرين من أهل  
الكتاب.

(٣) المثل يتحدّث عن الفعل "ينعق"<sup>(١)</sup>، والنعيق خاص  
بالرعاة. واليهود سكان المدينة المنورة هم أصحاب  
زراعة وتجارة وليسوا أصحاب رعي وبهائم.

(٤) أنّ كفّار جزيرة العرب هم من كانوا يعبدون الأصنام  
التي ذكرها الله في كتابه كآلات والعزى ومناة وهبل  
وغيرها من الأصنام وهم سكّان الصحراء وهم محترفو  
الرعي والبهائم. أمّا اليهود فلم يُعرف عنهم أنّهم دعوا  
أصناماً أو عبدوها اللهم إلاّ عجل السامريّ.

(٥) ونختم بهذا البند وهو مفتاح السرّ وفصل الخطاب  
وعقدة المنشار في الموضوع والذي يردّ عل كلّ الأقوال

(١) ينعق ب... الراعى ينادى على غنمه ويوجّهها.



التي أوردناها. هذا السر هو ﴿ ينعق بما ﴾ في المثل.  
 واسم الموصول (بما) لا يستخدم للأحياء بل  
 للجمادات ممّا دلّ على أنّ المنعوق به (الآلهة) هنا  
 أصناماً وأوثاناً وحجارة. ولو كان المدعو حياً لاستخدم  
 له اسم الموصول (بمن). وهذا يوصلنا إلى النتيجة التي  
 بدأنا بها مناقشة المثل أنّ الداعي (الناعق) هم  
 المشركون عبدة الأصنام من أهل البادية ومن غيرهم.  
 وأنّ المدعو (المنعوق به) هي الأوثان والأصنام  
 والحجارة والأنداد. وننوّه أنّ خاتمة المثل ﴿ صمّ بكم  
 عُمي فهم لا يعقلون ﴾ تصبّ في نفس السياق الذي  
 ذكرناه وتعطى أربعة أوصاف للآلهة الحجرية المدعوة  
 المنعوق بها. والله أعلى وأعلم.

## من سورة البقرة (٤)

### لسانٌ أحلى من العسل وقلبٌ أمرّ من العلقم

قال الحقّ سبحانه:

﴿ ومن النَّاسِ من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام <sup>(١)</sup> ۝ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل والله لا يحبّ الفساد ۝ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد﴾  
[البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦].

الإنسان ظاهر وباطن. الله عزّ وجلّ ينظر إلى قلوب النَّاس وأعمالهم ولا ينظر إلى صور الظاهر والأقوال. قُرْبٌ مُهَنْدِمٍ وسيم الملامح يُعجب النَّاس قوله ومظهره ولكنّه بعيد من الله لإظهاره غير ما يبطن يعطيك من طرف اللسان حلاوة وقلبه يتوقّد حقداً وغلاً وسوءاً وشرّاً، ذلك هو المنافق. وقد توسّع الحقّ سبحانه في وصف شخصيّة المنافق في سورة البقرة وجعل لهم سورة خاصّة بإسمهم لعظيم خطرهم على الإسلام والمسلمين. ﴿ وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامهم وإنّ يقولوا تسمع لقولهم كأنّهم خُشبٌ مسنّدة

(١) ألدّ الخصام: عدوّ شديد العداوة.

يحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ [المنافقون ٤] .

أمّا عباد الله المخلصين فظاهرهم وباطنهم سواء يراقبون الله في أقوالهم وأفعالهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه. يتّقون الله في سائر شئونهم لعلمهم أنهم سيُبعثون وليقينهم بالحساب والجزاء على الأعمال وإيمانهم بأنّ العاقبة للتّقوى لقوله تعالى: ﴿ تلك الجنة التي نُورثُ من عبادنا من كان تقياً ﴾ [مريم ٦٣] .

وهذا المثل الذي تتحدّث عنه الآيات هو نموذج بشري

لمنافق:

**الطرف الأوّل (المشبه):** ظاهر المنافق وقوله من ناحية. وقلبه وعمله من ناحية أخرى.

**والطرف الثاني (المشبه به):** ظاهر المنافق وقوله أحلى من العسل. أمّا قلبه وعمله فأمرّ من الصبر والعلقم<sup>(١)</sup>.

**وجه الشبه:** ظاهره يعجبك ويروقك فتستحسنه ولسان يقطر عسلاً فتطمئنّ له من كثرة الحلف والأيمان وإشهاد الله على ما في قلبه. أمّا باطنه فيخبرنا عنه علامّ الغيوب سبحانه بأنه أعوج شديد الخصومة وأنّ همّه الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث

(١) العلقم: سائل شديد المرارة.

والزّرع والنّسل. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾. وإذا نصحه ناصح بالتّوقف عن فساده وأن يتّق الله فيما يفعل أخذته العزّة الآثمة وحميّة الجاهليّة وكبرياء الإثم فردّ قول واعظيه ولم يقبل نصح ناصحيه.

هذا المثل يقدّم لنا صورة من الواقع لنماذج بشريّة هم أضرّ على المسلمين من أعدائهم المجاهرين بالعداوة. فهم كالحية ليّن ملمسها قاتلٌ سُمّها. يعتمدون على حلاوة اللّسان وطلاقة الكلام في غشّ النّاس. يوهمون من يسمعهم أنّهم صادقون متّقون لله مجتنبون للفواحش وهم منافقون ماكرون يقولون ما لا يفعلون. ابتساماتهم خادعة وألفاظهم معسولة. فهم يصدق فيهم المثل العربي "كلام كالعسل وفعل كالأسل"<sup>(١)</sup>. وهذا المثل يُضرب عند اختلاف القول عن الفعل وهذا هو شأن المنافقين.

ضرب الله المثل القرآنيّ تقبيحاً لأعمال المنافقين وكشفاً لمساوئهم وتنبيهاً لأهل الإيمان وتعلّيماً لذوي العقول والأفهام وإرشاداً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المنافق يسعى إلى كسب ثقة النّاس بكلّ سبيل لتمرير مآربه فالغاية عنده تبرّر الوسيلة. وهو

(١) الأسل: شوك طويل يكون في شجر النخيل.

لا يتورّع<sup>(١)</sup> عن تسويق نفاقه بالحلف الكاذب والأيمان الآثمة.  
وفي الحديث: "أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"<sup>(٢)</sup>.<sup>(٣)</sup>

وهذا النموذج من البشر موجود في كل عصر وعلى كل أرض.  
كانوا موجودين أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. وهم من اخترع  
حادثة الإفك ضدّ أمّ المؤمنين عائشة بنت الصّديق وزوجة  
الحبيب عليه الصلاة والسلام ورضي الله عن عائشة التي برّأها  
الله وأنزل في براءتها وطهارتها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة. ﴿ إِنَّ  
الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير  
لكم لكلِّ إمريءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كِبْرَهُ منهم  
له عذاب عظيم ﴾ [النور ١١] .

ويكون خطرهم أشدّ ضرراً على المجتمعات والأفراد عندما  
يكونوا في مناصب حسّاسة كالقضاء والإعلام والتدريس والجيش  
والشرطة والصّحة وما يتعلّق بشئون الجماهير ومصالح الناس  
مباشرة. يحتالون على الدنيا بالدين.

جاءت صفة المنافقين في الكتب القديمة، ومن ذلك ما رواه  
الترمذي عن أبي الدرداء من حديث جاء فيه: "أنزل الله في بعض

(١) لا يتورّع: لا يترفع عن.

(٢) الألد الخصم: الأعوج شديد الخصومة.

(٣) الحديث روته السيّدّة عائشة وأخرجه البخاري.

الكتب أو أُوحيَ إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون في الدين  
لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة  
يلبسون للناس مُسوكَ الكباش<sup>(١)</sup> وقلوبهم كقلوب الذئاب،  
ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصَّبْر<sup>(٢)</sup>: إِيَّايَّ  
يخادعون وبي يستهزئون؟ لأُتحنَّ لهم فتنة<sup>(٣)</sup> تذر الحليم فيهم  
حيران".

اعتدنا أن نصف الذئاب بالوحشيّة ولكن الحقيقة أنّ البشر  
أكثر وحشيّة من الذئاب. هل رأيت أو سمعت عن ذئب يأكل لحم  
ذئب؟ أبداً. ولكنّ الناس ينهشون بعضهم بعضاً عياناً جَهاراً. هل  
رأيت أو سمعت عن ذئب ينبش قبر ذئب؟ أبداً. منظرًا لن أنساه  
ما دام في نفسي رَمَق<sup>(٤)</sup>. شاهدته على شاشة التلفاز يحدث في  
ضاحية إحدى المدن الإسلاميّة. رأيت أناساً يلبسون ملابس بشر  
ولكنّي على يقين أنهم ليسوا كذلك. رأيتهم ينبشون قبوراً علانية  
تحت الكاميرات والأنوار ليستخرجوا جُثثاً دُفِنَتْ بلا أكفان. رأيتهم  
يعلّقونهم في خطاطيف كما تُعلّقُ الشاة عند سلخها رؤوسهم  
لأسفل ثم قاموا بتلطّيح وجوههم وتدنيها بفضلات آدميّة.

(١) مُسوك الكباش: شبّه ظاهرهم بظاهر الحمل الوديع.

(٢) الصَّبْر: هو نبات الصبّار طعمه شديد المرارة أصبح مثلاً كنعنيص للعسل في المذاق.

(٣) لأُتحنَّ لهم فتنة: لأبتليهم بمصيبة.

(٤) ما دام في نفسي رَمَق: أي ما دُمت على قيد الحياة.

وبدأوا يَسْتَجُوبُونَهُمْ وَيَحْقُقُوا مَعَهُمْ وَهُمْ جُثُّ هَامِدَةٌ وَيَضْرِبُونَهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ثُمَّ أَطْلَقُوا عَلَيْهِمُ الرِّصَاصَ ثُمَّ قَامُوا بِإِحْرَاقِهِمْ وَتَرَكَوهُمْ مَعْلَقِينَ وَقَدْ تَفَحَّمُوا. وَانصَرَفُوا إِلَى مَنْ يَدْفَعُ لَهُمْ لِيَهْتَنُّوهُ بِنَجَاحِ الْمَهْمَةِ وَلِيَتَهَيَّأَ كِي يُسْمِعَ النَّاسَ مَعْسُولَ الْكَلَامِ فِي مُؤْتَمَرٍ صَحْفِيٍّ.

والتَّفَاقُ مِنْهُ اعْتِقَادِيٌّ وَمِنْهُ عَمَلِيٌّ. فَالْمُنَافِقُ فِي الْمَعْتَقَدِ هُوَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُنْكَوسِ وَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ فَهُوَ خَبِيثُ الْبَاطِنِ وَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُ الْإِسْلَامُ. وَفِي هَذَا الصَّنْفِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ [البقرة ٨ - ٩] .

وَأَمَّا نِفَاقُ الْمَعَامَلَاتِ فَقَدْ جَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَّعِيَهَا<sup>(١)</sup>. إِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ". [ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ].

(١) يَدَّعِيَهَا: يَتْرُكُهَا.

## من سورة البقرة (٥)

### والله يضاعف لمن يشاء ... والله واسع عليم

قال الحق سبحانه:

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة ٢٦١].

هذا مثل مدني. ذكر بعض المحدثين أنه نزل في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما بعد تجهيزهما لغزوة العسرة. وأياً ما كان سبب النزول فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هذا المثل يبيّن ما يجنيه المنفق في سبيل الله من ثمار نفقته بشرط ألا يُتبع ما أنفق مناً ولا أذى.

### طرفا التشبيه:

**الطرف الأول (المشبه):** الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بلا منّ ولا أذى. **الطرف الثاني (المشبه به):** كمثل باذر<sup>(١)</sup> أو زارع حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.

**أدوات التشبيه:** تكرار كلمة "مثل" وحرف "الكاف" في "مثل" الثانية.

(١) باذر: اسم الفاعل من بذر البذور في الأرض.



وجه التشبيه: "المنفق زارع خير والباذر زارع حبوب. كلاهما دفع ممّا عنده مما عزّ عليه. كلاهما دفع ما عنده عاجلاً على أمل أن يعود عليه بنفعٍ آجل. كلاهما عاد عليه ما دفعه بالنّفع أضعافاً مضاعفة" <sup>(١)</sup> [انتهى].

والمثل عام في مجال الإنفاق دون تفضيل إنفاق على إنفاق. وبهذا يكون الإنفاق المقصود به في المثل هو في كلّ أبواب الخير وكلّ ما هو خالص لله وكلّ ما ينفع المسلمين وكلّ ما يخدم الإسلام ويُعلي شأنه.

أمّا الآية: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام ١٦٠] فيبدو لي أن المقصود ( بالحسنة ) هنا كلّ خيرٍ خالصٍ لله لالعلاقة له بالإنفاق المادّي كإمطة الأذى عن الطّريق <sup>(٢)</sup> والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وغيره.

أمّا الإنفاق فهو تضحية بالمال. والمال عزيز على الإنسان. كما أنّ الإنسان عليه أن يكدّ ويتعب ويجتهد للحصول على المال. والإنسان بطبعه حريص على جمع المال حيث أنّ المال هو قُوام الحياة <sup>(٣)</sup> وقوام الدين. وخاصّة أنّ التضحية بالمال تعني نقصانه في الظاهر. وكوّن المال له صلة وطيدة بأكثر من ركن من

(١) أمثال القرآن للفيّاض ص ٢٥٩.

(٢) إمطة الأذى عن الطّريق: رفعه وإزالته.

(٣) قُوام الحياة: لا تقوم الحياة الكريمة بدون المال. فهو عصب الحياة.

أركان الإسلام، فالزكاة والحج والعمرة وعمارة المساجد والإنفاق في الجهاد كلها عبادات مادية. وقد قدم الله الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. وكذلك الصدقات على المحتاجين. فالمال عصب الحياة وهو أيضاً عصب الدين. لهذا كان أجره كما قال الله تعالى:

﴿ من ذا الذي يُقرضُ الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض<sup>(١)</sup> ويبسط<sup>(٢)</sup> وإليه ترجعون ﴾ [البقرة ٢٤٥].

هذا المثل مقيد بقيود:

**أولها:** أن يكون المنفق مسلماً مؤمناً موحداً. أما نفقات الكفار والمشركين والمرائين والمنافقين وكل ما قصد به غير وجه الله فثوابه في الدنيا ولا نصيب له في الآخرة.

**ثانيها:** أن يكون دفع نفقته بنفسه راضية وبلا إكراه أو إخراج أو مراءاة راجياً ثواب نفقته من الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

وقد وصف الله حال المنافقين ونفقاتهم ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يُنفقون إلا وهم كارهون ﴿ [التوبة ٥٣ - ٥٤].

(١) يقبض: الله يرزق من يشاء رزقاً ضيقاً محدوداً ابتلاءً له.  
(٢) يبسط: والله يرزق من يشاء رزقاً واسعاً بغير حساب ابتلاءً له.

ثالثها: أن تكون النفقة من مال طيب وكسب حلال، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً.

رابعها: ألا يُتبع النفقة مناً<sup>(١)</sup> ولا أذى<sup>(٢)</sup> ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى..﴾ [البقرة ٢٦٢].  
نتقل الآن إلى الطرف الثاني من المثل وهو المشبه به أو الممثل به فنجد ﴿كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة﴾.

وقد يسأل سائل: هل هناك حبة تُنبت سبع سنابل؟ وهل هناك سنبله بها مائة حبة؟

يقول الزمخشري: "بل هو موجود في نبات الدُّخْن<sup>(٣)</sup> والذرة النيلي وغيرهما"<sup>(٤)</sup>. [انتهى].

والواقع أن المثل لم يُقصد به الحبوب والسنابل والزراعة وعدد الحبوب. فما هذه إلا آلة حاسبة لحساب مجموع ما يستحقه المنفق عن نفقته وما يعود عليه في الآخرة من ثواب وحسنات مقابل ما أنفق.

(١) المن: تكرار ذكر النعم على من تنفق عليه لتشعره أن يده هي السفلى.

(٢) الأذى: أن تشتم من تنفق عليه وتؤذيه سواء بالجوارح أو باللسان.

(٣) نبات الدُّخْن: هو نبات كالذرة ثمرته عبارة عن سنبله في أعلى النبات حبوبها صغيرة مستديرة متراكبة يصعب عدّها. هو في الأصل علف للماشية وفي الأزمان والمجاعات والمجتمعات الفقيرة يطحنه الناس ويصنعون منه خبزاً.

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٨٣ لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري.

ويبقى السؤال: هل ثواب المنفق الخالص لوجه الله هو سبعمائة ضعف؟

الواقع أنّ الرقم سبعة ومضاعفاته تكرر كثيراً في كتاب الله. قال تعالى:

﴿ سبع سماوات ﴾ ﴿ سبع سنين ﴾ ﴿ سبع سنابل ﴾ ﴿ سبع ليال ﴾ ﴿ سبع سنبلات ﴾ ﴿ سبع بقرات ﴾ ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرّة ﴾ ﴿ ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ ﴿ سبعة أبحر ﴾ ﴿ سبع أبواب ﴾ ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ ﴿ سبع عجاف ﴾ ﴿ سبع شداد ﴾ وغيرها.

وقد ترسخ العدد سبعة ومضاعفاته في وجدان العرب والمسلمين عامّة حتى أصبح العدد سبعة هو أكثر أعداد العشرة والسبعين هي أكثر أعداد المائة والسبعمائة هي أكثر أعداد الألف.

وهذا العدد في المشبّه به ما ذكر إلا ليوحى أنّ النفقة يُضاعف ثوابها بأقصى ما يمكن أن يتصوّره الإنسان بدون التقيد بعدد معيّن. والدليل من نفس آية المثل: ﴿ والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾. فلم تَنْتَه الآية حتى تجاوز الأجر العدد المذكور ﴿ السبعمائة ﴾ بأضعافٍ لا يعلمها إلا الله. وهذا يذكّرنا بالآية في سورة التوبة ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر

لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم ... ﴿ [التوبة ٨٠] . والآية نزلت في حقّ المنافقين الذين جمعوا كبيرتين هما النّفاق والاستهزاء بفقرء المسلمين الذين يتصدّقون بما في وسعهم وعلى حسب جهدهم.

وقد يسأل سائل هل يغفر الله لهؤلاء المنافقين لو زاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم في استغفاره لهم عن السبعين؟

والله سبحانه وتعالى يقول في الآية: ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ وهنا حَسْمٌ للأمر. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ما يُبدّل القولُ لديّ وما أنا بظلامٍ للعبيد ﴾ [ق ٢٩] . والرسول العربيّ الأصيل الذي يُوحى إليه بلسان عربيّ مبين صلّى الله عليه وسلّم فهم من "السبعين" أنّه أكبر عدد يمكن أن يخطر على بال إنسان فلم يحاول الزيادة عليه. "فالسبعين إنما ذُكرت حَسْمًا للأمر وليس لتحديد العدد". [الفياض]. [انتهى]

وكذلك السبعمئة ضعف ليس المقصود منها تحديد العدد. بل تتجاوز ذلك إلى ما يشاء الله الواسع العليم الحكيم الكريم الذي يجازي بغير حساب.

ويتفق ابن القيم في أحد أقواله مع هذا التوجّه فيقول: "والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك [فوق السبعمئة ضعف] فلا يقتصر

به على السبعمائة بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة". [ابن القيم]. [انتهى]

ويبقى تفسير المثل ودلالاته: فالمؤمن الحقّ ينفق من طيب ماله فيما يُرضي الله وفيما ينفع إخوانه المؤمنين في كلّ وجوه الخير وفي كلّ مناحي البرّ إنفاقاً يبتغي به وجه الله وثواب الآخرة. وليعلم كلّ منفق أنّ النفقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد المحتاج ﴿ ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأنّ الله هو التوّاب الرحيم ﴾ [التوبة ١٠٤].

ونختم الموضوع بالإجابة على هذا السؤال: إذا كانت النفقة خالصة لوجه الله ومن مال طيب ولم يتبّعها منٌّ ولا أذى فما ثمرتها؟

١. أنّ الأجر والثواب في الآخرة يكون بفضل الوهّاب وكرم الكريم بلا عدّ ولا حساب.

٢. النفقة كفّارة للذنوب طهارة للمال تزكية للنفس ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكنٌ لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة ١٠٣].

٣. النفقة تزكية للمال الذي خرجت منه وحفظاً له من الآفات وسبباً في بركته وزيادته.

٤. الأجر على النفقات والصدقات هو الجنة.

٥. الأجر ليس مقتصراً على الآخرة فقط. بل المنفق معه

شيك على بياض مكتوب فيه ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[النحل ٩٧]. فربّما يحتاج المنفق في الحياة الدنيا نظراً

لتقلّباتها وعدم استمرارها على حال. والكريم لن يُضام

أبداً والرّزاق حيّ لا يموت وخزائنه مملأى.

## من سورة البقرة (٦) مُحَبَّطَاتِ الْأَعْمَالِ

قال الحقّ سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأُذَى كَالَّذِي ينفق ماله رِئَاءَ النَّاسِ <sup>(١)</sup> وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ <sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ <sup>(٣)</sup> فَتَرَكَه صَلْدًا <sup>(٤)</sup> لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة ٢٦٤].  
هذا مثل مدنيّ مرّكب ممتدّ يتكوّن من مثلين متداخلين.

**نبدأ بالجزء الأوّل:**

الخطاب موجّه إلى المؤمنين أن يعتبروا بهذا المثل ويحافظوا على صدقاتهم ورصيد حسناتهم ولا يُبطلوها ولا يتسبّبوا في إبطالها.

**الطّرف الأوّل (المشبّه):** الأمانّ بصدقته والمؤذي لمن تصدّق عليه.

**والطّرف الثاني (المشبّه به):** المرأي الذي لايؤمن بالله واليوم الآخر.

(١) رِئَاءَ النَّاسِ: سَمْعَةً وَطَلَبًا لِمَدْحِ النَّاسِ.

(٢) صَفْوَانٌ: صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ مَلْسَاءٌ.

(٣) وَابِلٌ: مَطَرٌ غَزِيرٌ.

(٤) صَلْدًا: صَخْرًا وَاضِحًا بَعْدَ أَنْ زَالَ عَنْهُ التَّرَابُ وَتَبَيَّنَ عَدَمُ صِلَاحِيَّتِهِ لِلزَّرْعَةِ.



أداة التشبيه: الكاف في (كالذي).

وجه الشبه: كلاهما أبطل صدقته فثواب الصدقة لا يفي بخطيئة المن والأذى. وكذلك الرياء فمن تصدق وقصد أن يمدحه الناس ويثنوا عليه بالصفات الجميلة أو لأى مقصد دنيوي مع انصرافه عن معاملة الله عز وجل بطلت صدقته. وقد بين الله لعباده أن كلاً من المرابي وذي المن والأذى أتى بعمل غير مقبول ولا صحيح وأنه لا ثواب له عليه بل هو عمل باطل ومردود على صاحبه.

والواقع أن هذا المثل يصور لنا إحباط العمل وإبطال الصدقات عن طريق المن والأذى والرياء.

فالمن يكون باللسان ويكون بعد الإنفاق فيتعدى على من أحسن إليه ويريه أنه اصطنعه<sup>(١)</sup> وأوجب عليه حقاً وطوقه منة في عنقه. وينسى أن ما أنفقه هو جزء يسير مما رزقه الله ويسر له سبل الحصول عليه واكتسابه. وأن المنّة والحمد والفضل هو لله وحده.

والمن هو استعباد للبشر ولا تصلح العبودية إلا لله وحده. والمان يشهد من أنفق عليه أنه ربّ الفضل والإنعام وأنه ولي نعمته وليس ذلك في الحقيقة إلا لله. والمان يذكر الآخذ بأنه بنفقته أصبح عالياً عليه عزيزاً غنياً عنه وأنّ يده هي العليا وباقي

(١) اصطنعه: أي أنه صاحب فضل عليه.

الأيدي هي السفلى ولا ينبغي ذلك للعبد. وأخيراً نذكر هذا المانّ بأنّ الله تولى ثوابه وردّ عليه أضعاف ما أعطى. فأيّ حقّ بقي له عند الآخذ؟

إنّ المنّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة<sup>(١)</sup> وطال زمنه ضرّ بصاحبه ولم يحصل له مقصود الإنفاق<sup>(٢)</sup>. كما أنّ الإيذاء يكون بعد النفقة طال الوقت أم قصّر. ويكون الإيذاء بالجوارح كالضرب أو باللسان كالشتم أو بكليهما.

يقول عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أنّ سلامك يُثقل عليه فكفّ سلامك عنه. [انتهى].  
والواقع أنّ المثل لم يصرّح أكان هذا الذى أنفق ماله رثاء الناس كافراً أو منافقاً. فالجملة من الآية ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تصدّق على الكافر المعلن كفره بالله واليوم الآخر كما تصدّق على المنافق الذى أخفى كفره بهما. فالنص القرآني يشمل كلّ المرأين كافرين ومنافقين.

وننتقل إلى الجزء الثاني من المثل:

**الطرف الأوّل (المشبه):** هو المرأى سواء كان كافراً أو منافقاً.

(١) تراخى عن الصدقة: تأخر حدوثه بعد الإنفاق بمدة.  
(٢) لم يحصل له مقصود الإنفاق: أُحْبِطَتْ نفقته ولم تُقبل ولم تُؤت ثمارها.

والظرف الثاني (المشبه به): الصّفوان وهو الصخر الأملس عليه تراب فأصابه وابل من مطر شديد فأزاح عنه التراب وتركه صلباً مكشوفاً للعيان.

أداة التشبيه: كلمة مثل وتكررت وحرف الكاف.

وجه الشبه: هذا المثل من أبلغ الأمثال وأحسنها حيث يتشابه قلب المرأى الكافر أو المنافق مع الصّفوان لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به. وهناك وجه آخر للشبه بينهما وهو أنّ أثر الصدقة ترك طبقة خفيفة من التراب والغبار على الصّفوان ليحسبها المزارع المبتدئ صالحاً للزراعة. كذلك المرأى حين الصدقة يحسبه الجهلاء رحيماً شفوفاً على المحتاجين. ولكن سرعان ما يكشف الله ستر كليهما.

فالصّفوان يأتيه وابل من مطر شديد يزيح عنه التراب ليكتشف أيّ مزارع أنّ هذا الصخر لا يصلح للزراعة والانتفاع به. كذلك المرأى بمجرد منّه وأذاه ورياءه سرعان ما يكتشف البسطاء ما حاول إخفائه فثوب الرياء يشفّ عمّا تحته وأنّه ما أنفق إلاّ ليقال منفق سخّي رحيم وإلى آخر ما اشتهت نفسه أن يُقال فيه. فبدت قسوة كليهما للعيان وتأكدت عدم صلاحيتهما لأيّ خير أو منفعة. وبطل عمل المرأى وأحبط ثواب نفقته.

وهكذا نجد التوافق والتطابق الكامل التام بين طرفي المثل في حال المرآئي ونفقته التي تُلغع بها<sup>(١)</sup> ليموّه على الناس<sup>(٢)</sup> ويُظهر لهم نفسه على غير حقيقتها. والتراب الذي تغطّى به الصفوان ليموّه على الزُّراع أنّه مكان صالح للزرع والنبات والخير. فجاء الوابل ليكشف حقيقة الصفوان بعد أن أذهب عنه التراب وتركه صلباً ظاهراً للعيان. تماماً كما جاءت المنّة وجاء الأذى ليكشف حقيقة قلب الكافر والمنافق ويكشف أنّ قلبه بالضبط كالصفوان وأنّه لا نفقة له ولا ثواب له ولا قبول له لا عند الله ولا عند الناس.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾  
[البقرة ٢٦٣].

لقد قرّرت هذه الآية الكريمة مبدأً عاماً في شريعتنا الغراء وهو "درء المفساد مقدّم على جلب المصالح"<sup>(٣)</sup>

فالخير لا يكون طريقاً إلى الشر. والأعمال الصالحة يجب أن تكون خالية من الشوائب<sup>(٤)</sup> التي تفسدها وتذهب بفائدتها. ولنعلم أنّ الله غنيّ عن صدقات عباده وقروضهم فلا يأمرهم

(١) تُلغع بها: تسرّ خلفها.

(٢) ليموّه على الناس: ليخدع الناس.

(٣) "درء المفساد مقدّم على جلب المصالح": إذا كان هناك عمل تختلط فيه المصالح والمفساد فيجب أن تكون الأولوية لتجنّب المفساد وإن لم نستطع نترك العمل بكلّيته.

(٤) الشوائب: المخالفات والمفساد المبطلّة للعمل.

ببذل المال والإنفاق لحاجته إليه سبحانه بل ليطهرهم ويزكّيهم  
ويؤلف بين قلوبهم ويصلح نفوسهم وأحوالهم الاجتماعيّة  
والماديّة.

فإنّ كانت نفقته لوجه الله خالية من شوائب المنّ والأذى  
والمراءاة والنّفاق فإنّها مقبولة مأجورة تقع في يد الله قبل أن تقع  
في يد المحتاج وهي نفقة يُضاعَفُ أجرها ونعمًا هي. وأمّا إن كانت  
نفقة مغموسة بالشوائب والمفاسد فلا حاجة لله فيها ولا يقبلها  
الله والله هو الغنيّ.

لقد بيّن الله لعباده في أوضح صورة ودون أدنى التباس أنّ  
المنّ والأذى والمراءاة والنّفاق محبط للعمل مبطل لقبوله كأنه لم  
يكن. وأنّ العمل يجب أن يؤدّي إلى الغاية التي يقصدها المنفق.  
وأنّ ترك هذه المفاسد المرافقة للإنفاق أو التالية بعده شرط لا  
تسامح فيه لحصول الأجر وقبول العمل والثواب على الإنفاق.

ومن الآداب التي ينبغي للمؤمن أن يأخذ بها نفسه مع أخيه  
المحتاج ما جاء من حديث عمر رضي الله عنه أنّ النّبّيّ صلّى الله  
عليه وسلّم قال: "إذا سأل السائل<sup>(١)</sup> فلا تقطعوا عليه مسألته<sup>(٢)</sup>

(١) إذا سأل السائل: إذا جاءكم محتاج يسأل صدقة.

(٢) فلا تقطعوا عليه مسألته: اعطوه فرصة من الوقت يبيّن فيها سبب حاجته.

حتى يَفْرُغَ منها ثم رُدُّوا عليه بوقار ولين<sup>(١)</sup> أو ببذل يسير<sup>(٢)</sup> أو ردَّ  
جميل<sup>(٣)</sup> فقد يَأْتِيكُمْ من ليس بإنس ولا جانَّ ينظرون صنيعكم  
فيما خَوَّلَكُم اللهُ تعالى<sup>(٤)</sup> ". [أخرجه مسلم وغيره].

---

(١) رُدُّوا عليه بوقار ولين: رُدُّوا عليه بكلام طيب هادىء  
(٢) أو ببذل يسير: أو تعطوه ما تجود به نفوسكم مع استحضار النية لله.  
(٣) أو ردَّ جميل: أو الدعاء له أن يرزقه الله ويكفيه حاجته وييسر له أمره.  
(٤) فقد يَأْتِيكُمْ من ليس بإنس ولا جانَّ ينظرون صنيعكم فيما خَوَّلَكُم اللهُ تعالى: قد تأتاكم  
ملائكة في صورة بشر لينظروا كيف تتصرفون فيما رزقكم الله كما في قصة الأبرص والأقرع  
والأعمى المشهورة.

## من سورة البقرة (٧)

### جَنَّةِ بَرِيَّةٍ

قال الحقّ سبحانه:

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم <sup>(١)</sup> كمثل جنّة برية <sup>(٢)</sup> أصابها وابل <sup>(٣)</sup> فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظلّ <sup>(٤)</sup> والله بما تعملون بصير ﴾  
[البقرة ٢٦٥].

المثل في القرآن الكريم فيه إعجاز وروعة ودقّة وجمال وفيه بيان وإيضاح وتنعكس منه على نفس المؤمن المتدبّر أنوار تكشف المعنى وتقاطعاته. فيُدركُ بالعقل كأنّه مائل للعيان. والمثل في القرآن يؤثّر في النفس وينير الطريق أمام العقل ليجسّد الصورة ويثبّتها في الذاكرة والوجدان. أما هنا مثل مدنيّ ظاهر ضربه الله للمؤمن المنفق المخلص لوجه الله.

**الظرف الأوّل (المشبه):** المؤمنون المنفقون أموالهم في سبيل الله ابتغاء مرضات الله خالصاً لوجه الله وتثبيتاً من أنفسهم.

(١) تثبيتاً من أنفسهم: تثبيتاً لأنفسهم على الدّين خوفاً من الرّيبغ والرّدة.

(٢) جنّة برية: بستان على تلة مرتفعة من الأرض.

(٣) وابل: مطر غزير.

(٤) الظلّ: المطر الخفيف.

الطَّرْف الثاني (المشبه به): جنة بربوة.

أدوات التشبيه: كلمة مثل في أول الآية وكلمة مثل في وسط الآية سبقها حرف الكاف.

وجه الشبه: كلاهما اكتسب من طيب وأخلص في الإخراج فكانت الثمرة ضعفين لكلا الطرفين.

والمقصود من المثل أن المؤمن الصادق كدَح واجتهد واكتسب مالاً ينفق منه صدقاً وإخلاقاً لوجه الله لا يطلب من أحد جزاءً ولا شكوراً ولا يُتبع نفقته مناً ولا أذى ولا يرأى بنفقته أمام الناس طمعاً في مديح. قال الله فيه وفي أمثاله ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجيلَةٌ﴾<sup>(١)</sup> أنهم إلى ربهم راجعون ﴿[المؤمنون ٦٠]. هؤلاء مثلهم كمثل جنة بربوة.

واعلم أن المنفق المتصدق يعترضه حال إنفاقه آفتان<sup>(٢)</sup> إن نجا منهما كان حقيقاً أن تُمثل نفقته بجنة بربوة.

أولاهما: أن يطلب بنفقته مدحاً أو ثناء.

ثانيهما: تردّد النفس في البذل هل يُنفق أو يُمسك؟

أمّا طلب المدح والثناء من الناس فيزول بابتغاء مرضات الله وهذا هو الإخلاص. وأمّا التردّد فيزول بتثبيت النفس وتشجيعها

(١) وجيلَةٌ: خائفة من عدم قبول الصدقة.

(٢) آفتان: مثنى "آفة" وهي عائق أو حاجز أو مانع لقبول العمل.



للإقدام على البذل وهذا هو الصدق. وهما شرطان لقبول العبادات المألية. أمّا عبادات الجوارح كالصلاة والصيام والحجّ والعمرة فيضاف شرط ثالث وهو متابعة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلّم عن ربّه.

### والآن إلى تقاطعات المثل:

لِمَ كانت الجنة بربوة؟

الجنة هي البستان الكثير الأشجار المتنوّع الأصناف والثمار. فإنّ انتهى موسم فاكهة بدأ موسم أنواع كثيرة أخرى. وكونها بربوة أي على مكان مرتفع فهو حماية لها من الحُسبان<sup>(١)</sup>. فالماء يكون سبباً في الحياة وقد يكون سبباً في الإهلاك. فالجنة على الربوة تأخذ ما يلزمها من الماء. وما زاد عن حاجتها ينحدر بعيداً إلى الأسفل فلا تتضرّر بوجوده. وكونها بربوة تكون معرّضة للهواء والرياح والشمس طول الوقت فتكون أنضج ثمراً وأطيبه مذاقاً وأحسنه حلاوة وأكثره محصولاً. فإنّ الثمار تزداد طيباً وزكاً ونضجاً ولوناً وحلاوة بتعرّضها للرياح والشمس.

ما رمزية "الوابل" و "الطلّ" في الآية؟

الوابل هو المطر الغزير الشديد. والطلّ هو المطر الخفيف.

(١) الحُسبان: هو المطر الشديد المتواصل الهطول أسباب كثيرة حتى يُغرق كلّ شيء ويُهلك الحرث والنسل.

والمقابلة بين الوابل والطلّ تضيء على المثل جمالاً لفظياً رائعاً. كما أنّ هناك مماثلة وتناسق في المعنى بين الوابل والإنفاق الكثير. وبين الطلّ والإنفاق بحساب.

### والآن إلى شرح المثل:

شبه الله المؤمن الصادق الذي يكّد ويتعب لتحصيل المال الحلال الطيب ثم ينفقه في سبيل الله سخية به نفسه لا تتنازعه الأهواء والشياطين. فهو يطلب مرضات الله ويثبت نفسه ويشجعها على الإنفاق بأن يُطمئن نفسه أنّ هذا المال الذي يدفعه هو إلى ربحٍ وغنيمَةٍ وذخِرٍ لنفسه وليس إلى خسارة أو نقص في المال. وهو يعلم علم اليقين أنّ التجارة مع الله لن تبور والقرض الحسن إلى الله رابحٌ رابحٌ رابح. يضاعف الله به الحسنات والأجر والثواب بغير حساب ولذلك فهو في أشدّ البعد عن الأذى والمنّ والنفاق والرياء.

هذا المؤمن المنفق الصادق الحقّ شبهه الله بجنةٍ يرعاها الله ويتكفل بجميع احتياجاتها. فهي جنةٌ مليئةٌ بأصناف الفاكهة. كلّما تنوّع إنفاقه على المحتاجين كلّما زادت أصناف الفاكهة والثمار في جنته أكلها وثمارها دائمة لا تنقطع. هي جنةٌ بربوة يسقيها الله حسب نفقة المنفق فإنّ كان كثيراً كانت السُّقيا وابلأ

تأخذ الجنة منه احتياجها ثم يتحدّر باقي الماء<sup>(١)</sup> إلى الوديان والأسافل. وإن كان الإنفاق قليلاً كانت السُّقيا بالظّل وهو المطر الخفيف. وفي الحالتين كان هناك النّماء والثمار والبركة. وكون الجنة على ربوة فهي تحصل على ما يلزمها من الهواء والرياح وأشعة الشمس فتجود بالثمار الزكيّة والفواكه من جميع الأنواع والطعوم<sup>(٢)</sup> والألوان والروائح.

وقد اختلف المفسّرون والباحثون حول الإنفاق الكثير والإنفاق الأقلّ أو ما عبّر عنه المثل بـ "الوابل" و "الظّل". ففسّر ابن القيم رحمه الله ﴿فأصابها وابل فأتت أكلها ضعفين﴾ فقال إنّ الجنة بسبب الإنفاق الكثير أدّت ثمرتها وأعطت بركتها فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر قبل الوابل. فهذا حال السابقين المقرّبين.

وفسّر ﴿فإن لم يصبها وابل فظّل﴾ والظّل دون الوابل. فهو يكفيها بسبب طيب مغرسها ومنبتها<sup>(٣)</sup> فتكتفى بالظّل لإخراج بركتها. وهذا هو حال الأبرار أصحاب اليمين المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله. فأصحاب الوابل أعلاهم درجة وهم الذين

(١) يتحدّر باقي الماء: ينزل إلى الوديان والقيعان.

(٢) الطعوم: المذاقات والنكهات.

(٣) طيب مغرسها ومنبتها: جودة تربتها وحلاوة الماء الذي يسقيها وحصولها على كلّ احتياجاتها وموقعها الاستراتيجي على الربوة.

ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وأصحاب الطلّ هم مقتصدوهم<sup>(١)</sup>. فمثل لحال القسمين بالجنة على الربوة. ونفقاتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ. وكلاً من المَطْرَيْنِ يوجب زكاء وثماراً مضاعفة فكذاك نفقتهم كثيرة أو قليلة بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضات الله وثبتت النفوس فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة. [ابن القيم ص ١٩١]. [انتهى].

لكنّ الدكتور الفيّاض رحمه الله له رأي آخر. فهو يرى أنّ الوابل والطلّ هي تمثيل لنفقة المنفقين في هذا العصر سواء كانت كثيرة أو قليلة. فيقول: "هذا الصنف من النَّاسِ [يقصد المؤمنين المنفقين] خيراتهم لغيرهم وإنّ كانت لهم وبأيديهم فإنّ كَثُرَ ما عندهم جادوا<sup>(٢)</sup> بالكثير من هذا الكثير. وإنّ قلّ لم تمنعهم قلّته عن الجود والإنفاق من هذا القليل. فلا عجب - بعد ذلك - أن يُمثّلوا بالجنة" [الفياض ص ٢٧٦]. [انتهى].

والحقيقة أنّ اجتهاد الباحثين جميل وموفّق، ولكنّ لا يوجد في المثل تقييد على فئة معيّنة من المنفقين. فالمثل عام يعمّ المؤمنين كافّة ولا يقبل التقييد الزمانيّ أو التخصيص المكانيّ أو

(١) مقتصدوهم: هم أصحاب اليمين الأدنى درجة من المقرّبين.

(٢) جادوا: أعطوا وأنفقوا.

النوعيّ أو الكميّ. فكلّ من ينفق ويتصدّق فهو جنّة بربوة إذا راعى الشروط المطلوبة وهي أن يكون الكسب حلالاً طيباً. وأن يكون الإنفاق طواعية لا إكراهاً ولا إحراجاً ولا حياءً. وأن تكون النية خالصة لله بعيداً عن الرياء والنفاق. وأن تكون نفس المنفق راضية مطمئنة إلى التجارة مع الله موقنة<sup>(١)</sup> بالكسب العظيم. وأن لا يُتبع ما أنفق منّا ولا أذى.

فإذا توفّرت الشروط فالعمل مقبول والتجارة رابحة والأجر مضاعف قلّت النفقة أو كثرت وفي أيّ مجال من مجالات الخير كانت.

وقد حسم الله الأمر في آية واحدة: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ<sup>(٢)</sup> مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ<sup>(٣)</sup> فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق ٧].  
والمثل هنا يُعتبر موكباً عظيماً من مواكب الإيمان. فكلّما تصدّق المؤمن كانت له جنّة بربوة. فكم من الجنان يستحقّ على إنفاقه المتواصل طوال عمره؟ والله إنّ هذا لموكب عظيم من الأجر المركّب والبركة العامّة وإنّه والله لبشرى عظيمة للمؤمنين.

(١) موقنة: نفسه مليئة بيقين لا يخالطه شكّ.

(٢) ذو سعة: الأغنياء.

(٣) ومن قُدِرَ عليه رزقه: الفقراء.

## من سورة البقرة (٨)

### السلامة في الإخلاص والاستقامة

قال الحق سبحانه:

﴿ أَيُودِّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ <sup>(١)</sup> وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ <sup>(٢)</sup> فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ <sup>(٣)</sup> فِيهِ نَارٌ <sup>(٤)</sup> فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿ [البقرة ٢٦٦].

هذا مثل مدني في غاية الحُسن والوضوح ومنتهى الكمال. وكلّ أمثال الله حسنة وواضحة وكاملة. وهو من أبلغ الأمثال فهو خلاصة أمثال المنفقين وبيان مصير نفقاتهم وأحوالهم. وهو في نفس الوقت مثل مُرعب مُخيف. على الإنسان العاقل أن يتدبّره ويعتبر به ولا يجازف ولا يخاطر برصيده من الحسنات فإنّ الأمر جدُّ خطير. فالنفير النفير <sup>(٥)</sup> فعلى العاقل أن يتحسّس موضع قدمه قبل أن يضعها. وعليه أن يتعلّم أن يحبس لسانه إلّا عمّا

(١) أصابه الكبر: أدركته الشيخوخة.

(٢) له ذرّيّة ضعفاء: له بنين وبنات صغار في السن.

(٣) إعصار: ريح عاصف / زوبعة.

(٤) فيه نار: ريح شديدة الحرارة بها صواعق.

(٥) النفير النفير: لبدأ التشمير والاستعداد للعمل.

يرضي الله عزّ وجلّ. وعليه أن يكبّل جوارحه<sup>(١)</sup> فلا تأتي بحركة إلا بحساب وفي طاعة الله. فإنّ الأمر - والله - جَلَلٌ<sup>(٢)</sup>. فإمّا حُسن الخاتمة وجنّات تجري من تحتها الأنهار وتجوّد بأطيب الثمار وتغرّد بها الأطيار. وإمّا الأخرى - ونعوذ بالله من سوء الخاتمة - وإحباط العمل والرّصيد الصّفري<sup>(٣)</sup> ودخول النار وقودها الحجارة والأشرار.

هذا المثل ضربه الله لمرحلتين متضادتين من حياة إنسان.

### المرحلة الأولى:

**الطَّرْف الأوّل (المشبهه):** المؤمن ﴿ أَحَدُكُمْ ﴾ ينفق ماله في سبيل الله: نفقات وصدقات وزكوات. ينفقها على الجهاد في سبيل الله وفي الحجّ والعمرة أو على عياله في إعاشتهم وتربيتهم وتعليمهم وإحسانهم. أو للمحتاجين من الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل وعلى ذي القربى. ينفقها ليلاً ونهاراً في السراء وفي الضراء سرّاً وعلانية يرجو بها تجارة مع الله لن تبور.

فتقبّل الله نفقاته وأثابه بأضعافٍ لا حصر لها حتى أصبح له حسنات كالجبال الشاهقة.

(١) يكبّل جوارحه: يقيد يديه قيلاً معنوياً بحيث لا يؤذي أحد.

(٢) جَلَلٌ: عظيم.

(٣) الرصيد الصّفري: نفاد رصيد الحسنات.

**الطرف الثاني (المشبه به):** رجل غني أنفق على أرضه فمهدّها ونظّفها وأجرى فيها الأنهار وغرس فيها الأشجار واعتنى بها حتّى أصبحت جنّة غنّاء على الأرض تعوله وتعول عياله وتكفيهم. أداة التشبيه: مفهومة وإن كانت محذوفة.

**وجه الشبه:** وجه الشبه هنا واضح تماماً ومائل أمام أعيننا. كلاهما أنفق، وكلاهما حصد. المؤمن حصد حسنات كالجبال لا مثل لها. والغنيّ أصبحت له جنّة على الأرض لا مثل لها. هنا فاصل زمني بين المرحلتين.

### المرحلة الثانية:

خلال هذا الفاصل الزمني الذي استمرّ عقوداً<sup>(١)</sup> تقدّم كلاهما في السن ﴿وأصابه الكبر﴾. ولهما ذريّة صغاراً لا يملكون مساعدة والديهم.

**في هذه المرحلة اختلف مسارهما:** فالمؤمن منّ وآذى من أنفق عليهم في شبابه. والغنيّ كفر بالله وأنكر البعث. فأرسل الله ريحاً فيها نار فأحرقت جنّة الغنيّ الكافر، وأحبط الله ثواب<sup>(٢)</sup> نفقات المؤمن بسبب منّه وأذاه للنّاس. فلا هذا يستطيع أن ينشئ جنّة جديدة غير التي احترقت، ولا ذاك يملك

(١) عقوداً: عشرات السنين.

(٢) أحبط الثواب: أبطل الله ثواب عمله وعاد رصيده إلى الصّفر.



المال لينفق من جديد عملاً صالحاً بدل الذي أُحبط. كلاهما واجه التّعاسة والعجز وقلة الحيلة وضياح كل شيء وهما في أشد الحاجة إليه.

فالمثل يصوّر لنا حسنات المنفق من المؤمنين بجنة في الدنيا. حتى إذا ما اختلف مساره وعاد القهقري<sup>(١)</sup> وصدر عنه ما يبطل العمل أُحبط ثوابه في الدنيا والآخرة وأطفئ نوره وهو في أواخر عمره فإنما الأعمال بخواتيمها. فلا يملك الصّحة والشباب وطول العمر وسعة المال لينفق من جديد. ولا ذريته الصغار يملكون له عوناً أو تعويضاً. فعرض أصابع الندم والحسرة والحرمان وسوء الخاتمة في أخرج وقت من عمره. ذلك هو الخسران المبين. فمثله كمثله مالك جنة في سلامتها وجمالها وانتفاعه هو وغياله بها. ثم إذا بلغ خريف العمر اختلف مساره الإيماني فكفر بعد إيمانه وأنكر البعث والنشور بعد إقراره. فكان الجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحداً. فالنار بالمرصاد لجنته فاحرقتها. وإن لم يصحّ مساره الإيماني قبل الموت فسيكون مصيره كمصير جنّته.

فالمثل يتطرّق لمسألة الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة وهذا يذكرنا بأيّتين في كتاب الله.

(١) عاد القهقري: رجع إلى الوراء ليفسد ما عمل من قبل.

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييناه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل ٩٧].

﴿ فأما الذين كفروا فأعدّ لهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [آل عمران ٥٦].

لقد عرض المثل نتيجة المن والأذى بالتصوير وبالكاميرا وبالألوان دون تعليق فكانت الصورة أبلغ من الكلام وأشدّ تحذيراً للمؤمنين من مغبة هاتين الآفتين.

أما الوجه الآخر للمثل فهو يخاطب المؤمنين الذين يحفظون أسنتهم وجوارحهم عن المن والأذى والرياء والنفاق وكلّ ما يُحِبُّ الأعمال والنفقات. هؤلاء يحفظون حسناتهم وأرصدتهم من الضياع ويعلمون أنّ ثواب ما قدّموا هو ذخر لهم<sup>(١)</sup> ينتفعون به في الدنيا سعةً في الرزق وبركة في المال والذرية ومضاعفة في الأجر وينتفعون به في الآخرة أحوج ما يكونون إليه يدخلهم جنّات عرضها السماوات والأرض لهم فيها ما يشاءون لا يمسه فيها نصب<sup>(٢)</sup> وما هم منها بمُخرجين. والملائكة في خدمتهم وزيارتهم والتسليم عليهم والترحيب بهم. والحوار العين زوجات لهم قاصرات الطرف. ذلك هو الفضل العظيم.

(١) ذخر لهم: رصيد محفوظ لهم.

(٢) نَصَبٌ: كل ما يسبّب الحزن للإنسان من تعب ومرض وجوع.... إلخ.

وهذا المثل العظيم يذكّرني بقصة حقيقية قرأتها من سنين  
اسردها باختصار:

أثناء معركة أحد بين مشركي مكة ومسلمي المدينة لاحظ  
الصّحابة رجلاً لم يعرفوه من قبل يصول ويجول يقتل المشركين  
يميناً وشمالاً يُدعى "كُزْمان". فكان "كُزْمان" كأنه جيش في شخص  
واحد. فأوصلوا الخبر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:  
"هو في النار". فعاد الصحابة ليتعرّفوا على الرجل: "إنك لتُتّلي بلاء  
حسناً لوجه الله". "فأجاب بل شجاعة وحمية وعقاباً لهؤلاء  
الذين تجرأوا أن يغزونا في بلادنا".

وأثناء القتال أُصيب بجرح فلم يحتمل الألم. فغرز رمحه في  
الأرض ثم انحنى عليه حتّى كان رأس الرمح بين ثدييه ثم ضغط  
بكلّ قوّة حتى دخل الرمح في صدره وخرج من بين كتفيه من  
الظهر. وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فمثل هذا الرجل أحسن العمل ولكنه أفسد النية وفقد  
الإخلاص. وماذا كان يُضيره<sup>(١)</sup> وماذا يكلفه أن يشهد شهادتي الحقّ  
ويدخل الإسلام ويُخلص النية لله. فالعمل لكي يرتفع يلزمه  
جناحان: إخلاص واستقامة.

(١) ماذا يضيره؟: استفهام استنكاري. أي لا يضيره شيء ولا يضره شيء ولا يكلفه شيء.

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ من سعادة المرء أن يطيل الله عمره ويرزقه الإنابة<sup>(١)</sup> وحسن العمل.

وإنّه من أمارات الشقاوة أن يحسن المرء العمل في أول عمره ثم ينعكس سيره وينقلب على عقبه فيشخّ بعد أن كان سخيّاً<sup>(٢)</sup> وينقطع عن الطاعة بعد أن كان مُجدّاً، أو يطلب المنزلة في الناس<sup>(٣)</sup> بعد الإخلاص وصدق النية والتواضع. إنّ المرء الذي يفعل ذلك وهو يستقبل الآخرة ويُدبر عن الفانية<sup>(٤)</sup> إنّما يجني على نفسه إذ يلقي ربّه مُثَقلاً بالسيئات مفرطاً في الطاعات قد ضيّع ما أسلف من الصالحات وهو في موقف الكربات<sup>(٥)</sup>. وهناك لا ينفع الندم ولا البكاء على ما فات وقد انقضى زمن العمل وجاء وقت الحساب فذاك سوء الخاتمة.

وإنّه من بشریات الخير وأمارات الفلاح أن يستر الله العبد عند آخر عمره وأن يثبتته بالقول الثابت والعمل الثابت والبُعد عن الكبائر<sup>(٦)</sup> وأن يرزقه التوبة النصوح والبكاء على الذنوب والمعاصي

(١) الإنابة: التوبة والرجوع إلى الله.

(٢) فيشخّ بعد أن كان سخيّاً: يبخل بعد أن كان معطاءً.

(٣) يطلب المنزلة في الناس: يريد من الناس أن يمدحوه.

(٤) يدبر عن الفانية: في أواخر أيامه في الدنيا.

(٥) موقف الكربات: شدائد وأهوال يوم الحساب.

(٦) الكبائر: المهلكات من الذنوب.

والاجتهاد في الطّاعة والأسف والندم على التفريط. وازدياد رغبته  
فيما عند الله من الثواب والرّحمة ويرزقه الاستقامة فذاك أمانة  
على حسن الخاتمة. ولو مات العبد مؤمناً موحّداً صالحاً مستوراً  
مُخْلِصاً فتلك هي السعادة الأبدية بإذن الله تعالى.

## من سورة البقرة (٩)

أولياء الله ..... وأولياء الطاغوت

قال الحق سبحانه:

١. ﴿اللّٰهُ وَلِيّٰ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ  
وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوْتُ <sup>(١)</sup> يُخْرِجُوْنَهُمْ  
مِّنَ النُّوْرِ اِلَى الظُّلُمٰتِ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا  
خٰلِدُوْنَ﴾ [البقرة ٢٥٧].

وقال سبحانه:

٢. ﴿اَوْمَنُ كَانَ مَيِّتًا فَاَحْيَيْنٰهُ <sup>(٢)</sup> وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْرًا يَمْشِيْ بِهٖ فِي  
النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلهٗ فِي الظُّلُمٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زُيِّنَ  
لِلْكَافِرِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ [الأنعام ١٢٢].

وقال سبحانه:

٣. ﴿لِّلَّذِيْنَ اسْتَجَابُوْا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنٰى وَالَّذِيْنَ لَمْ يَسْتَجِيبُوْا لَهُ  
لَوْ اَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْاَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهٗ مَعَهٗ لَافْتَدَوْا بِهٖ اُولٰٓئِكَ  
لَهُمْ سُوْءُ الْحِسَابِ وَمَا وَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد  
١٨].

وقال سبحانه:

(١) الطاغوت: كل ما يُظني من صنم أو شياطين الإنس والجنّ.  
(٢) أَوْمَنُ كَانَ مَيِّتًا فَاَحْيَيْنَاهُ: شَبَّهَ الْكُفْرَ بِالمَوْتِ وَالْإِيْمَانَ بِالحَيَاةِ.

٤. ﴿ أفمن يعلم أنّما أنزل إليك من ربك الحقّ كمن هو أعمى  
 إنّما يتذكّر أولوا الألباب ﴾ [الرعد ١٩].

هذه أمثال أربعة متقاربة في المعنى وفي التمثيل. ففيها بُشّرَى  
 لأهل الطّاعة المنقادين<sup>(١)</sup> لأوامر الله الذين اتّبعوا الرسل وصدّقوا  
 ما في الكتب أولئك أولياء الله لهم الحياة الطيّبة في الدّنيا ولهم  
 الحسنى في الآخرة. لهم النور والكرامة والتأييد في الدّنيا ولهم  
 النعيم المقيم في الآخرة.

والذين لم يؤمنوا بالله ولم يتّبعوا الرسل ولم يأتَمروا بما أمر  
 الله به ولم ينتهوا عمّا نهى الله عنه وصفهم الله بالأموات  
 وبالعمى وبأصحاب الظلمات وأنّهم أولياء الشيطان. أولئك  
 مصيرهم إلى جهنّم حيث العذاب الذي لا تطيقه الجبال الرواسي.  
 لهذا فإنّهم من شدّة ما يروُن من هؤلّ العذاب لو أنّ لهم ما في  
 الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أنفسهم. ولو افتدوا بذلك  
 وأضعافه لما تُقبِلَ منهم. إنّها النّدامة بعد فوات وقتها وإنّها  
 الحسرة يوم لا تنفع الحسرة.

**الطّرف الأوّل (المشبهه):** وليّ الله ووليّ الطاغوت.

**الطّرف الثاني (المشبهه به):** الحيّ الذي يمشي في نور الله على

(١) المنقادين: المطيعين.

طريق مستقيم إلى الجنة والنعيم. والميت الذي ينتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك والأوهام إلى أخرى ويتردى في مهاوي الهلاك ودروب الشياطين في طريقه إلى جهنم وبئس المصير.

**وجه الشبه:** هما ضدان. فريق على هداية ورشاد أولئك أولياء الله أحياء يمشون بين الناس في نور الله على صراط الله المستقيم إلى جنات الله ومستقرّ النعيم. وفريق على عمى وضلال. هم محجوبون عن نور الوحي هم أموات القلوب وإن كانوا يأكلون ويشربون ويتحركون. هم أصحاب الظلمات فيها يتخبّطون. هم أجهل الناس بدين الله عميت قلوبهم وفسدت فطرتهم وتعطلت بوصلتهم بما ران عليها من المعاصي والذنوب<sup>(١)</sup>. أولئك حقّ عليهم القول وفي العذاب هم مُحْضَرُونَ خالدون.

لا استواء بين الفريقين كما لا يستوي الأعمى والبصير. وكما لا تستوي الظلمات والنور. إنها أضداد لا تجتمع في شخص واحد ولا تجتمع في مكان واحد في وقت واحد. وإنما تُعرف الأشياء بأضدادها كما يُعرف الظلّ بضوء الشمس وكما في الفرق بين الحياة والموت.

(١) بما ران عليها من المعاصي والذنوب: المعاصي والذنوب تترك أثراً في القلب أسوداً يسمّى "نكّته". إذا تراكت هذه النكات والآثار فهذا هو الخثم والطبع على القلب. فإذا وصل القلب إلى هذه المرحلة فسدت الفطرة وتعطلت البوصلة الدينيّة فلا يميّز الشخص بين الصواب والباطل أو بين الخير والشر.



لقد تمّ تمثيل وليّ الله بالمؤمن وبالبعير وبالحيّ. كما تمّ تمثيل وليّ الطاغوت بالملحد والكافر وبالمشرك وبالأعمى وبالميتّ.

والله يهدي من اتّبع رضوانه سُبُلَ السلام فيُخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والرّيب إلى نور الحقّ الواضح الساطع المنير. والله يثبّت أولياءه الصّالحين بالقول الثابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ويوفّقهم إلى الحقّ والخير ويسدّد خطاهم على طريق الهدى والنور. وإذا عَرَضَتْ للمؤمن شبهة لاح له شعاع من نور الحقّ يطرد هذه الظلمة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف ٢٠١].

أمّا الكافرون فإنّ الشياطين أولياؤهم يُخرجونهم من نور البيّنات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهات وتزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويحيدون بهم<sup>(١)</sup> عن طريق الحقّ إلى الكفر والإفك<sup>(٢)</sup>.

ولمّا كان الحقّ واحداً والكفر أجناساً كثيرة كلّها باطلة فقد أفرد الله تعالى لفظ "النور" وجمع لفظ "الظلمات". فالحقّ طريق واحد مستقيم والباطل طرق متعدّدة وجميعها مُعَوّجة

(١) يحيدون بهم: يُخرجونهم.

(٢) الإفك: الكذب المهلك.

منحرفة. إنّ أهل الكفر على تعدّد نحلهم<sup>(١)</sup> وكثرة أجناسهم  
وفرّقهم أهلٌ للدخول في النَّار<sup>(٢)</sup> التي حكم الله بها عليهم لكفرهم  
وضلالهم عدلاً منه سبحانه لا يُسئل عمّا يفعل. ﴿ أولئك  
أصحاب النَّار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة ٢٥٧]. ﴿ أولئك لهم  
سوء الحساب ومأواهم جهنّم وبئس المهاد ﴾ [الرعد ١٨].

---

(١) نحلهم: طوائفهم.

(٢) أهل للدخول في النَّار: أهل النَّار لا يدخلون النَّار إلا وهم موقنون متأكّدون أنّ النَّار أولى  
بهم من الجنّة وأنّ عذابهم هو العدل الذي لا يخالطه أيّ ظلم.

## من سورة البقرة (١٠)

وأحلّ الله البيع وحرّم الربّا

قال الحقّ سبحانه:

﴿ الذين يأكلون الربّا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان <sup>(١)</sup> من المسّ <sup>(٢)</sup> ذلك بأنهم قالوا إنّما البيع مثل الربّا وأحلّ الله البيع وحرّم الربّا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ يحقّ الله الربّا <sup>(٣)</sup> ويُرّي الصدقات <sup>(٤)</sup> والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم ﴾ [البقرة ٢٧٥-٢٧٦].

أكل الربّا والتعامل به جريمة شنعاء توّعد الله فاعلها بحرب من الله ورسوله ولم يتوّعد الله في كتابه الكريم بالحرب والويل والثبور <sup>(٥)</sup> إلّا المتعاملين بالربّا. ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا <sup>(٦)</sup> ما بقي من الربّا إنّ كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا

(١) يتخبطه الشيطان: يصرعه الشيطان ويضرب به الأرض. تكون بطن آكل الربّا كالجبل كلّما وقف وقع.

(٢) من المسّ: من الجنون والصرع وفقدان التوازن.

(٣) يحقّ الله الربّا: ينزع الله منه البركة ويهلكه ويهلك المال الذي يدخل فيه الربّا.

(٤) ويُرّي الصدقات: يبارك الله في الصدقات إلى سبعمائة ضعف وأكثر وينمي المال الذي خرجت منه الصدقات.

(٥) الثبور: الهلاك. وكانت العرب إذا أصابتهم مصيبة قالوا "واثبوره".

(٦) ذروا: اتركوا وتخلّصوا من الربّا.

بحربٍ من الله ورسوله ﷺ [البقرة ٢٧٨-٢٧٩]. وهذا كافٍ في بيان  
شناعة هذه الجريمة عند الله وعند رسوله وعند المؤمنين.

### والرِّبَا نَوْعَانِ:

أ- ربا النَّسِيئَةِ: وكلمة "النَّسِيئَةُ" تعني زيادة المال مقابل إمهال  
فترة من الوقت للسداد. وأضربُ مثلاً للتوضيح. هذا النوع  
من الرِّبَا يكون بإقراض قدرٍ معيّنٍ من المال إلى أجلٍ محدّد  
كشهر أو سنة أو أكثر أو أقل مع اشتراط زيادة قيمة المبلغ في  
حالة تمديد الأجل. وكان صاحب الدّين يقول للمقرض إذا  
حلّ وقت السداد ولم يسدّد. "إِمَّا أَنْ تَقْضِي وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي".  
"وتقضي": معناها أن تدفع ما عليك من الدّين الآن لأنّ  
مواعده قد حلّ. أو "تُرْبِي": وإمّا أن أعطيك مهلة من الوقت  
للسدّد مقابل زيادة في مبلغ "الدّين" حسب ما هو متّفق  
عليه في بنود العقد.

وقد حرّم الله الرِّبَا لأنّه متّلفة للأموال مهلكة للنّاس.

ب- ربا الفضل: وكلمة "الفضل": تعني الزيادة في الميزان أو  
المكيال. ويكون ببيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين  
على الآخر. ونضرب مثلاً يوضّح المعنى. لو كان عندك مائة  
جرام ذهب نقش قديم أو ذهب مكسور وتريد استبداله

بذهب جديد. لا يجوز أن تعطي للصائغ مائة جرام ذهب قديم مقابل مثلاً سبعين جراماً ذهب جديد فهذا ربا محرّم. إذن كيف تتجنّب الرّبا؟ تباع ما عندك من ذهب قديم ثم تشتري بثمنه ذهباً جديداً. وقد حصلت حادثة أيام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نَزويها كمثالٍ آخر ليزداد المعنى وضوحاً.

أخرج الأئمة والحديث هنا للإمام مسلم عن أبي سعيد الخُدريّ قال: جاء بلال بتمر بَرّني<sup>(١)</sup> عذب الحلاوة فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من أين هذا؟ فقال بلال: من تمرٍ كان عندنا رديء فَبِغْتُ منه صاعين بصاع لمطعم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم<sup>(٢)</sup>. فقال النّبّي صلّى الله عليه وسلّم عند ذلك: هذا الرّبا فردّوه ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا".

**هذا الرّبا: أي هذا هو الرّبا المحرّم نفسه.**

**فردّوه: دلّ على وجوب فسخ صفقة الرّبا. فعقد الرّبا مفسوخ وباطل وهذا قول جمهور العلماء والفقهاء.**

(١) تمر بَرّني: اسم نوع جيّد من التمر لونه أحمر ومُضَقَّر كثير اللب.  
(٢) لمطعم رسول الله: لكي يأكله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ثمَّ بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا: هذا هو البديل الحلال  
لصفقة الرِّبا. لا بدّ أن تكون عمليّتين: نبيع الرديء ونشتري بثمنه  
الجيد.

"وهكذا الحكم في جميع المكيّلات والموزونات والنقدين  
الذهب والفضة"

وفي الحديث الشريف الذي رواه الأئمة واللفظ لمسلم عن  
أبي سعيد الخُدريّ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:  
"الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ<sup>(١)</sup> بالبُرّ والشعير بالشعير  
والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثلٍ يَدّاً بيدٍ فمن زاد أو استزاد  
فقد أربى. الآخذ والمعطي فيه سواء".

كما يدخل في النهي عن الرِّبا النهي عن كلّ مال حرام أُكتسب  
بأيّ وجه كان. يقول الله سبحانه في اليهود ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ  
أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ ﴾ فدخل السُّخْتُ<sup>(٢)</sup> في المال الحرام. وكذلك ما  
أُكتسب بالغشّ أو الاحتيال أو الاحتكار<sup>(٣)</sup> أو الغصب أو النّشل أو  
السرقه أو الظلم. وهذه الأنواع جميعها محرّمة سواء كان المبلغ  
المكتسب صغيراً أو كبيراً وسواء كانت نسبة الزيادة الربويّة قليلة أو

(١) البُرّ: هو القمح.

(٢) السُّخْتُ: أكل أموال النَّاسِ بغير وجه حقّ، وهو محرّم.

(٣) الاحتكار: تخزين سلعة أو أكثر حتّى تشتدّ حاجة النَّاسِ إليها ثمّ إظهارها ورفع ثمنها وهذا  
يشمل الموادّ الغذائيّة والأدوية وكلّ ما يلزم النَّاسَ في حياتهم.

كثيرة فالأمر سَيَّان لا فرق<sup>(١)</sup> والتحريم واقع والرِّبَا من الذنوب  
المُهْلِكَات<sup>(٢)</sup>.

والرِّبَا هو السبب الحقيقي وراء الخراب والدمار والحروب  
المهلكة والإفلاس والكساد والركود الاقتصادي والعجز في  
الميزانيات للدول والأفراد والعجز عن تسديد الديون وارتفاع  
الأسعار والغلاء الفاحش وشلل الاقتصاد وارتفاع مستوى البطالة  
وانهيار الشركات والبورصات والمؤسسات والحكومات ونزع البركة  
من المال وتضخم العملات وتعويم الأوراق النقدية ونشوء  
الطبقات وتكدس الأموال في خزائن المرابين واختلال الميزان  
الاقتصادي وتفشي الأوبئة الاجتماعية كالرشوة والسرقه والنشل  
والغصب والتطفيف<sup>(٣)</sup> والتحايل والغش. هذا كله غَيْضٌ من  
فَيْضٍ<sup>(٤)</sup> من صورة الحرب التي تَوَعَّد الله بها المتعاملين بالرِّبَا.

وكلّ من يشارك في الرِّبَا من الأطراف الأساسيّة والوسطاء  
والموظّفين المساعدين ملعونون على لسان محمّد صلّى الله عليه

(١) الأمر سَيَّان لا فرق: التحريم يشمل المبالغ الصغيرة والكبيرة وسواء كانت نسبة الرِّبَا (أو ما يسمونها الآن الفائدة) قليلة أو كبيرة كلّ محرّم لا فرق.

(٢) الرِّبَا من الذنوب المهلكات: المرابي في حرب مع الله ورسوله والله غالب لا يُغلب فهو سبحانه يُهلك مال الرِّبَا والمال الذي دخل فيه الرِّبَا ويُهلك المتعاملين بالرِّبَا بالأمراض المزمنة في الدنيا وسوء الحساب يوم الحساب.

(٣) التطفيف: الغشّ والسرقه في الميزان والمكيال.

(٤) غيض من فيض: هذا قليل من كثير من مفاسد الرِّبَا.

وسلم. فعن جابر بن عبد الله قال: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكلَ الرِّبَا ومؤكِّله وكاتبه وشاهديه" وقال: "هم سواء". [رواه مسلم].

"وبناءً عليه لا يجوز العمل في كتابة الرِّبَا ولا في تقييده وضبطه ولا في استلامه وتسليمه ولا في إيداعه ولا في حراسته. كما تحرم المشاركة فيه والإعانة عليه بأيِّ وجه من الوجوه"<sup>(١)</sup> [انتهى]

والآن نصل إلى المثل وهو مثل واقعي يحدث الآن في الدنيا وسوف يحدث عند البعث من القبور والحشر والحساب. وما يخبرنا الله به أنه سيحدث في المستقبل فنحن - كمؤمنين - نراه أصدق ممَّا نراه بأبصارنا.

**الطرف الأول: (المشبه):** آكل الرِّبَا إذا مات بلا توبة.

**الطرف الثاني: (المشبه به):** يُبعث من قبره يوم القيامة مترنحاً فاقد التوازن كمن يتخبَّطه الشيطان من المَسِّ والصَّرَعِ.

**أداة التشبيه: كلمة "كما".**

**وجه الشبه:** واضح تماماً فأكل الرِّبَا في حرب مع الله ورسوله في الدنيا. ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنّ له نار جهنّم

(١) محرّمات استهان بها النَّاسُ لمحمد صالح المنجد ص ٤٨.



خالدًا فيها ذلك الخزي العظيم ﴿ [التوبة ٦٣]. فهو يترنح في حياته في دروب الشيطان. فهو يأكل من الرّبا ويلبس من الرّبا ويسكن بالرّبا ويربّي أولاده بالرّبا وينفق على أهله من الرّبا ويصبح في الرّبا ويُمسي في الرّبا وربما يحجّ ويعتمر ويتصدّق من الرّبا. وفي كلّ خطوة يخطوها هو في غضب الله وكلّ وجبة يأكلها فإنّما يأكل نارًا تحرق جوفه. وإذا مات فقبره حفرة من حفر النّار وإذا قام من قبره للحساب قام مترنحًا كالمصروع فاقد التوازن كمن مسّه الشيطان يمشي على غير استواء كالمجنون وفاقد الوعي.

وقد وصف الأستاذ طاحون حال أكلة الرّبا عند البعث فقال: "قد جعل الله عزّ وجلّ هذه العلامة لأكلة الرّبا وذلك أنّه سبحانه أرباه وزاده في بطونهم فأثقلهم فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون. ويقال: إنهم يُبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالي كلّما قاموا سقطوا والنّاس يمشون عليهم"<sup>(١)</sup>. [انتهى].

ومما يدلّ على بشاعة أكل الرّبا أنّ الله قد ضرب لآكله مثلاً بصورة المجنون ذي الحركات المضطربة يمشي على غير استواء في تعثرٍ وعوّج يصطدم بالأشياء فيخبطه جدار أو شجرة أو حيوان أو يسقط في حفرة بعد أن فقد توازنه وتخبّطه الشيطان فأفقدته

(١) أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم لأحمد محمّد طاحون ص ٩٥ ج ١.

وعيه. صورة المترج<sup>(١)</sup> المجنون هذه وضّحت لنا هذا اللّون من العذاب بعد البعث وهذا الخزي العظيم حيث يدوس عليه حين سقوطه أهل المحشر ويمقتونه<sup>(٢)</sup> ويحتقرونه. ذلك عذاب وخزي أكلة الرّبا وهذا كلّه قبل الحساب فعقابهم أليم شديد لأنّهم رفضوا حُكْمَ الله في الرّبا واستحلّوا التعامل به واستهانوا بتحريمه والنّهي عنه واعترضوا بقولهم: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا ﴾ أي أنّ هذا مثل هذا. وهذا نظير هذا. فلم حُرِّمَ هذا وأُبيحَ هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع. وشتان ما بين البيع والرّبا. إذ في البيع ما يقتضي حِلُّه لما فيه من المنافع والمصالح. وفي الرّبا من المفسدة ما يقتضي تحريمه. والله عزّ وجلّ أعلم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرّهم فينهاهم عنه.

ومع فُحْش هذه الجريمة<sup>(٣)</sup> إلّا أنّ الله برحمته أخبر عن التوبة وجعل لمقترفي الذنب العظيم مخرجاً فقال لأهل الرّبا: ﴿ فَإِنْ تَبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٧٩]. وهذا عين العدل ومنتهى القسط.

(١) المترج: المتخبّط فاقد التوازن.

(٢) يمقتونه: بطنه المنفوخة من الرّبا وسقوطه علامتان على أنّه مرايي. والنّاس يكرهون المرايين في الدنيا والآخرة لأنّهم غيّرُوا شرع الله وامتصّوا دماء عباد الله.

(٣) فحش جريمة الرّبا: هي جريمة كاملة الأركان. وهل هناك جريمة أكبر من أن يحارب الله ورسوله ويحارب المؤمنين ويسلب أموالهم ويحوّلها إلى خزائنه مستغلاً حاجة الآخرين واضطرارهم للإستدانة.

## من سورة آل عمران (١١)

### مثلُ عيسى كمثلِ آدم

قال الحقّ سبحانه:

﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين ﴿  
[آل عمران ٥٩-٦٠]

الله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين. فمن البشر من يخلق خلقاً أدنى درجاتٍ من خلق الله. هؤلاء الأدنى درجات هم الذين يصنعون أشياء صمّاء لا حياة فيها مثل الكمبيوتر والإنسان الآلي (الروبوت) والطائرة ومكوك الفضاء وغيرها كثير. هذه المصنوعات جمادات صمّاء لا روح فيها ولا تكاثر لها ولكنها تُعين الإنسان في أعماله وتيسّر له التقدّم الصناعي والفكريّ والحضاريّ. هذه المصنوعات تعمل بحركات ميكانيكيّة تتحكّم فيها برامج بشريّة.

أمّا خلق الله سبحانه فلا يستطيع أحد أن يضاهيه أو يقلّده أو يدّعيه فهو سبحانه أحسن الخالقين.

وقد بدأ خلق البشر بآدم عليه السّلام. وكان خلقاً وإيجاداً من عدم. لم يكن آدم موجوداً ووُجد بكلمة "كن" من الله سبحانه وتعالى. كان خلق آدم المعجزة الأولى من معجزات الخلق. كان

خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ خَلَقًا مَبَاشِرًا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْجَدَهُ بَدُونَ  
أَبٍ وَلَا أُمَّ.

ولكي تمضي الحياة ويتكاثر النَّاسُ ويكونوا خلائف في الأرض  
ويعمروها كان لابدَّ من وجود أنثى إلى جانب آدم، فكانت حواء.  
فكان خلق حواء المعجزة الثانية من معجزات الخلق. إذ خُلِقَتْ  
من ذكرٍ دون أنثى.

ثم شاء الله أن تتم عملية الخلق عن طريق اجتماع ذكر وأنثى  
وعن طريق نطفة الرجل وبويضة الأنثى وكانت هذه هي المعجزة  
الثالثة من معجزات الخلق.

وبقيت هناك معجزة رابعة من معجزات الخلق لم تتحقق  
وهي خلق بشر من أنثى دون ذكر. اختار الله لهذه المهمة مريم ابنة  
عمران الصديقة العابدة الحافظة لفرجها المصدّقة بكتب الله  
ووعده. اصطفها سبحانه وطهرها على نساء العالمين واختارها  
لئيجريَ عليها بقدراته إتمام معجزات الخلق. فكان عيسى هو متمم  
معجزات الخلق إذ خلقه الله من أنثى بلا ذكر.<sup>(١)</sup>

هذا المثل يصوّر لنا قدرة الله على الخلق والإيجاد من العدم  
وكيفما يشاء سبحانه لا قيود على قدرته ولا حدود لمشيئته.

(١) لمزيد من المعلومات عن الخلق انظر (معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي)  
ج ٧ ص ٨٢.

الطَّرْف الأول: (المشَبَّه): خلق عيسى بن مريم عليه السلام.

الطَّرْف الثاني: (المشَبَّه به): خلق آدم عليه السلام.

أدوات التشبيه: تكرار كلمة "مثل" وزيادة حرف "الكاف"

في الثانية.

وجه الشَّبه: أوجه الشَّبه هنا كثيرة ومتعدّدة نسردها

بالأرقام:-

١. كلاهما خلقه الله خلقاً مباشراً بكلمة "كن" فكان. ﴿ ثمّ

قال له كن فيكون ﴾ ومن قال الله له "كن" فهو كائنٌ لا

محالة.

٢. كلاهما مخلوق من تراب ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل

آدم خلقه من تراب ﴾ .

٣. آدم نبيّ وعيسى نبيّ ورسول إلى بني إسرائيل.

٤. كلا الظاهرتين خلق آدم بلا أب ولا أمّ وخلق عيسى من أمّ

بلا أب لن تتكرّرا أبداً.

٥. كلاهما تمّ النفخ فيه من روح الله. ففي آدم يقول الحقّ

سبحانه ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

ساجدين ﴾ [الحجر ٢٩].

وفي عيسى يقول الحقّ سبحانه ﴿ والتي أحصنت فرجها

فنفخنا فيها من روحنا ... ﴾ [الأنبياء ٩١].

٦. كلاهما بشر وكلاهما عبد لله عزّ وجلّ أوجدهما من العدم وأنعم عليهما بنعمه الظاهرة والباطنة وجعلهما مثلاً ورحمة وآية للعالمين وأمرهما بتوحيده وشكره فأطاعا ربّهما وشكراه على نعمه. وقال آدم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف ٢٣].

"وقد نادى عيسى بن مريم عليه السلام بتوحيد الله وحذر بني إسرائيل من الشرك وخوفهم من عاقبة الاعتقاد بأنّ لله ولداً أو نيداً وأنذر كلّ من قال ويقول إنّ الله هو المسيح بن مريم أو إنّ ابن الله أو إنّ ثالث ثلاثة. أنذرهم بالخلود في نار جهنّم إذا ماتوا على شركهم ومعتقدهم الباطل. وقال لهم: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة ٧٢]."<sup>(١)</sup> [انتهى].

٧. كلا الظاهرتين لا تخلوان من وجود حكمة، وهي أنّ الله سبحانه يخلق ما يشاء مع وجود الأسباب ومع انعدام الأسباب وبعكس الأسباب ودون مثالٍ سابق. يخلق ما

(١) أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم لأحمد طاحون ج ٢ ص ٢٤٩.

يشاء وكيفما يشاء بطلاقة قدرته التي لا تحدّها حدود ولا تقيدّها قيود سبحانه وتعالى أحسن الخالقين.

٨. ويوم القيامة وعند اشتداد الأهوال ينادي منادٍ: "يا آدم إنّ الله يأمرك أن تُخْرِجَ من ذرّيتك بعثاً إلى النّار. قال ياربّ وما بَعَثُ النار؟ قال من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين...".  
فهذا أصعب موقف على آدم وعلى الخلق أجمعين. فكيف يُطَلَبُ من أبٍ أن يُخْرِجَ تسعمائة وتسعة وتسعين من كلّ ألف من أبنائه وقوداً للنار؟ فيودّ لو يستطيع أن يفرّ من الموقف خجلاً من أعمال بنيّه وكثرة ذنوبهم.

ومن شدّة أهوال يوم القيامة حتى عيسى يودّ أن يفرّ من الموقف خجلاً من أعمال قومه وكونهم عبدوه وأمّه من دون الله. ويقول "لا أسأله اليوم إلّا نفسي. لا أسأله مريم التي ولدتني".<sup>(١)</sup>

فهذا شيء مشترك بينهما.

٩. ويوم يستشفع الناس بآدم يوم القيامة فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه

(١) من الحديث الصحيح في أمر الشفاعة وهو رواية أبي سعيد الخدري وإخراج البخاري.

وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا عند ربنا فيقول:  
**"لست هناكم" (١) ويذكر خطيئته" (٢).**

وعندما يصل الدّور إلى عيسى فيأتونه فيقولون: أنت  
 عبد الله ورسوله وكلمته وروحه كنت تبرىء الأكمّة والأبرص  
 وتحيي الموتى. اشفع لنا عند ربنا فيقول كما قال آدم **"لست  
 هناكم" ولم يذكر ذنباً.**

وهذا أيضاً شيء مشترك بينهما. فكلاهما كان جوابه  
**"لست هناكم".** وكلاهما يعرف أنّ هذه المهمة أكبر منه وأنها  
 مخبّأة حصرياً ومنذ الأزل في قضاء الله وقدره لخاتم النبيين  
 سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

١٠. أسكن الله آدم الجنة إلى ما شاء الله ثم أهبطه إلى  
 الأرض فكان ممّن عاش في السماء وعلى الأرض.

ورفع الله عيسى من على الأرض وأسكنه السماء إلى أن  
 يأتي وعد الله فينزل عيسى إلى الأرض ليكمل عمره ومهمّته مع  
 قومه. وينزل كصحايب من صحابة رسول الله وليس كنبى ولا  
 رسول. فلا رُسُل بعد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلّم ولا  
 نبى بعده.

(١) لست هناكم: لست مؤهلاً لهذه المهمة.

(٢) ويذكر خطيئته: إشارة إلى الأكل من الشجرة المنهي عنها. وهذا مقتطف من حديث  
 الشفاعة أخرجه البخاري من رواية أنس.



١١. وهكذا وصلنا إلى مفتاح المثل وعقدة المنشار وبيت القصيد. فكلاهما مثل معجزة من معجزات الخلق. فأدم مثل المعجزة الأولى إذ خلقه الله بلا أب ولا أم. ومثل عيسى المعجزة الرابعة إذ خلقه الله من أم بلا أب وبذلك اكتملت أركان الخلق الأربعة.

وهكذا طفنا الشرق والغرب والدنيا والآخرة والسماء والأرض والماضي والمستقبل كي نجمع المتشابهات بين آدم وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

ولكن ما هو مقصود المثل ﴿ إِنَّ مَثَل عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾؟

المقصود أنّ كلاً منهما مثل ركناً من أركان الخلق. ولو أنّكم استعملتم عقولكم - والخطاب إلى النصارى الذين يدعون عيسى إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة آلهة - لوجدتم أنّ خلق آدم أعجب من خلق عيسى. ومع ذلك لم يزعم أحد أنّ آدم إله أو ابن إله ولم ينادي أحد بعبادة آدم.

فالمشكلة ليست في خلق عيسى ولكن المشكلة في عقولكم. فهلاً استعملتموها بالشكل الصحيح وبتفكير شفاف محايد وهلاً رجعتم إلى الحق وإلى طريق الله المستقيم؟ اللهم فاشهد.

## من سورة آل عمران (١٢)

### حبل الله المتين

قال الحق سبحانه:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً<sup>(١)</sup> ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة<sup>(٢)</sup> من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون ﴾ [آل عمران ١٠٣].

ذكر محمّد بن اسحق بن يسار وغيره أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في شأن الأوس والخزرج. وذلك أنّ رجلاً من اليهود يدعى قيس بن شاس مرّ بملاً<sup>(٣)</sup> من الأوس والخزرج في مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فساءه ما هم عليه من الاتّفاق والألفة. فبعث شاباً من اليهود وأمره أن يجلس بينهم ويذكّرهم بما كان عليه حالهم قبل الإسلام. وقد كان بين القبيلتين حرب شعواء<sup>(٤)</sup> تُسمّى "بُعاث". يقول المؤرّخون أنّ هذه الحرب استمرّت أكثر من قرن من الزمان. ولا يُستبعد أن يكون لليهود اليد الطولى في

(١) واعتصموا بحبل الله جميعاً: تمسّكوا بقوة بعهد الله ودينه وكتابه.

(٢) شفا حفرة: حافة هاوية.

(٣) مرّ بملاً: مرّ بجماعة من الناس من قبيلتي الأوس والخزرج.

(٤) حرب شعواء: حرب مريّة ممتدّة يقال أنّها امتدت ما يقارب مائة سنة تسمى "بُعاث".

استمرارها. حتى جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهاجراً إلى المدينة فكان أن أصلح بين القبيلتين وأطلق عليهما معاً اسم "الأنصار".

جلس اليهوديَّ بينهم وما زال هَمُّهُ وَحِرْصُهُ التفريق بينهم حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتناوروا<sup>(١)</sup> ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحَرَّة<sup>(٢)</sup>. فبلغ ذلك النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتاهم وجعل يُسَكِّنُهُمْ ويقول: "أَبِدَعُوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟"<sup>(٣)</sup> وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا والقوا السلاح وخمدت الفتنة.

في هذه الآية الكريمة يأمرنا الله سبحانه باللجوء إلى أسباب الحفظ والحماية والمَنَعَة والقوَّة والرِّفْعَة في الدنيا والفوز برضوان الله في الآخرة.

يأمرنا الله سبحانه بالاعتصام بالحقّ وبعهد الله وبكتاب الله وبدين الله فمجموع هذه هو ما يجعل حبل الله متيناً لا ينقطع وهو ما يجعل وعد الله وعهد الله حقّ ومَنْ أوفى بعهده من الله

(١) وتناوروا: بدأوا بإطلاق التهديد والوعيد ضدّ بعضهم البعض.  
 (٢) الحَرَّة: منطقة مستوية خارج المدينة المنورة تعودوا أن يتقابلوا فيها للقتال.  
 (٣) وأنا بين أظهركم؟: أهذا حالكم وأنا بينكم أدعوكم إلى الإسلام؟

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. ويأمرنا سبحانه بالبعد عن أسباب الشقاق والفرقة والبغضاء والشحناء<sup>(١)</sup> فلا حسد ولا حقد ولا كِبْر ولا إعراض. أمرنا أن نتمسك بحبل الله المتين الذي لا ينقطع أبداً وأن نكون في دين الله إخواناً.

### وفي تفسير حبل الله:

يقول ابن عباس هو العهد. ويقول ابن مسعود: حبل الله هو القرآن. وجاء في حديث الحارث الأعور عن عليّ مرفوعاً في صفة القرآن: "هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم".

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتّبعه".

كما أمرنا سبحانه بالجماعة ونهانا عن التفرقة ﴿ ولا تفرّقوا ﴾. وقد وردت الأحاديث بالنهي عن التفرّق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله

(١) البغضاء والشحناء: الكراهية وحبّ الانتقام.

جميعاً ولا تفرّقوا وأن تُناصحوا من ولاة الله أمرّكم. ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال<sup>(١)</sup> وكثرة السؤال<sup>(٢)</sup> وإضاعة المال".

وامتنّ الله على عباده المؤمنين أن ألفَ بين قلوبهم بعد أن كانوا في عداوات وحروب فأصبحوا بنعمة الله إخواناً في الدين ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾.

امتّن الله على عباده المؤمنين أن أنقذهم من السقوط في جهنّم. فقد كانوا على حافة السقوط في جهنّم ولم يكن يحول بينهم وبين ذلك إلا الموت فهداهم وأنقذهم منها بالإسلام.

هذا المثل العظيم ضربه الله لعباده المؤمنين مُذكراً إياهم بنعمه عليهم وموجّهاً إياهم إلى التمسك بحبل هذا الدين والبُعد عن الفُرقة.

**الطرف الأوّل: (المشبهه):** القرآن والإسلام.

**الطرف الثاني: (المشبه به):** حبل الله المتين الذي أولّه بأيدينا وآخره في جنّات النعيم.

(١) قيل وقال: كثرة الجدل العقيم ونقل الكلام ونشر الإشاعات الكاذبة.  
(٢) كثرة السؤال: التسوّل دون حاجة ضرورية لمجرّد الاستكثار من الأموال.

ويجب التنويه هنا أنّ المشبّه به لم ينطبق تماماً على المشبّه فحسب بل وأخذ مكانه بعد حذف المشبّه. فتداخلت أطراف المثل في بعضها فلم يلزم أدوات تشبيهه. وإحلال المشبّه به مكان المشبّه زاد المثل عمقاً وفصاحة وبيانياً فكان من أعظم الأمثال في القرآن.

**وجه الشبه:** لا تَفَرَّقُوا كما تَفَرَّقَت اليهود والنصارى قبلكم. ولا ترجعوا إلى أسباب الفُرقة والعداوة كما كنتم في الجاهليّة. فما أَهَلَكَ الأمم السابقة إِلَّا تَفَرَّقَهَا. وأنتم عندكم ما يجمعكم إن تمسّكتم به: حبل الله المتين وصراطه المستقيم وكتابه الحكيم والأعظم من ذلك الإسلام وأخوة الدّين.

فيا أمة الإسلام يا ذوي البصائر والألباب إلزموا صراط ربّكم المستقيم ليستقيم حالكم واعتصموا بدينكم فالهكم واحد ورسولكم واحد وربّكم واحد وكتابكم واحد والحقّ طريقه واحد فليَمَ الاختلاف؟ والله سبحانه يأمركم أن تكونوا إخوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات ١٠]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ<sup>(١)</sup> فِي شَيْءٍ

(١) تنازعتم: اختلفتم في الرأي.

فردّوه إلى الله والرسول <sup>(١)</sup> إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴿ [النساء ٥٩].

وفي الحديث الشريف: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره". [رواه مسلم عن أبي هريرة].

يا أمة الإسلام اذكروا ماضي أمتكم عندما تمسكوا بدينهم واجتنبوا دواعي الفرقة أي حضارة بنوا وأي فتوحات أنجزوا. واذكروا صيحة المرأة المسلمة في أصقاع الأرض عندما تعرّضت لظلم صاحبة "وامعتصماه". فكان صدى الصيحة من الخليفة المعتصم أن ردّ عليها "سأمدكم بجيش أوله عندكم وآخره عندي". ثم انظروا إلى حال المسلمين اليوم كأنهم في سكرات الموت تتداعى عليهم الأمم من كل حدب وصوب كوليمة لا صاحب لها.

عسى الله أن يلتمّ شمل المسلمين ويوحّد كلمتهم ويصلح حالهم فلا يُخي العظام وهي رميم إلا هو سبحانه ندعوه ونتوسل إليه أن يجمع شتاتهم إكراماً لدينه ولرسوله صلى الله عليه وسلّم وذكرى لعباده المؤمنين، اللهم آمين ... آمين.

(١) فردّوه إلى الله والرسول: حكموا كلام الله بينكم. فإن لم تجدوا الحلّ في القرآن ففي السنة النبوية المطهرة.

## من سورة آل عمران (١٣)

### يوم تبيضّ وجوه ... وتسودّ وجوه

١. قال الحقّ سبحانه:

﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت  
وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم  
تكفرون ۝ وأما الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم  
فيها خالدون ﴾ [آل عمران ١٠٦ - ١٠٧].

٢. وقال سبحانه:

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة  
أليس في جهنّم مثوىً للمتكبّرين ۝ وينجيّ الله الذين اتّقوا  
بمفاضتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون ] الزمر ٦٠ - ٦١.

٣. وقال سبحانه:

﴿ وجوه يومئذ مُسْفِرَةٌ ۝ ضاحكة مستبشرة ۝ ووجوه يومئذٍ  
عليها غبرةٌ ۝ ترهقها قترَةٌ ۝ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾  
[عبس ٣٨ - ٤٢].

هذه الآيات الكريمة تصوّر لنا يوم القيامة: يوم يقر المرء من  
أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه. يوم يكون لكلّ امرئ شأن



يغنيه عن كلِّ ما هو سواه. يوم الأهوال والفرع الأكبر. يوم تشيب الولدان. يوم تُنصبُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلمُ نفس شيئاً. يوم تثقل موازين وتخفّ موازين. يوم القارعة ويوم الصاخة والطامة الكبرى. يوم تقع الواقعة<sup>(١)</sup>. يوم تتطاير الصحف. فمستلم كتابه بيمينه ومستلم كتابه من وراء ظهره. يوم تُبرزُ جهنم<sup>(٢)</sup> يُؤتى بها لها سبعون ألف زمام<sup>(٣)</sup> يجرّ كل زمام سبعون ألف ملك. يوم ترى كلّ أمة جاثية<sup>(٤)</sup>. في ذلك اليوم ترصد الكاميرا وجوه الناس فمنهم من ابيضت وجوههم حتى ولو كانوا سوداً في الدنيا. ومنهم من اسودت وجوههم حتى ولو كانوا بيضاً وذوي وجوه متوردة في الدنيا. فهذا شأن آخر. مرجعية هذا اليوم معتقد الإنسان وعمله واستحقاقه.

هذه الآيات الكريمة هي أمثال واستعارات:

**الطرف الأوّل: (المشبه):** أصحاب الجنة ... وأصحاب النار.

(١) القارعة - الصاخة - الطامة الكبرى - الواقعة: هذه بعض أسماء يوم القيامة.

(٢) تُبرزُ جهنم: يتم إحضارها إلى أرض المحشر ليراها جميع الخلائق.

(٣) زمام: حبل ليس كحبال الدنيا من ليف بل من فولاذ مجدول لا ينقطع ولا ينكسر.

(٤) جاثية: نازلة على ركبها من أهوال ذلك اليوم. فهذا يوم استعراض جهنم نعوذ بالله منها.

**الطَّرْف الثاني: (المشبه به):** ذوي الوجوه البيض ... وذوي الوجوه السود.

**أداة التشبيه:** لقد رأينا أمثلة سابقة على شاكلة هذا المثل حيث تم حذف المشبه واستُخدم المشبه به مكانه. فلم يُذكر في المثل لفظ "الجنة" أو "النار" صراحة. وبدلاً من ذلك استُخدم لون وجوه أصحاب الجنة ولون وجوه أصحاب النار. فلم يعد هناك حاجة لاستخدام أدوات التشبيه وأصبح التشبيه مفهوماً بالضرورة. وقد رأينا هذا النموذج في "حبل الله المتين" من سورة آل عمران. كما رأيناه في تشبيه المؤمن بالأرض الطيبة والكافر بالأرض الخبيثة من سورة الأعراف وفي نماذج أخرى كثيرة. وهذا ممّا يزيد المثل عمقاً إضافياً ويكسوه جمالاً على جمال ويجعله أكثر وضوحاً وأقرب للعقل والإحساس.

**وجه الشبه:** أصحاب الجنة ذوي الوجوه البيض المُسفرة الضاحكة النيرة المستبشرة هم من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین والحساب والجنة والنار. هم من رضي بالله ربّاً لا شريك له ولا ولد ولا صاحبة ولا وليّ. هم أهل الإيمان في الدنيا وأهل الأعمال الصّالحة. هم أهل السنّة والجماعة. هم المتوضئون المتطهّرون. هم الراكعون الساجدون المسبّحون. هم

الأمرون بالمعروف والتّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله. هم المستغفرون بالأسحار. هم الصّوامون القوامون. هم المزكّون المتصدّقون المُخبتون<sup>(١)</sup>. هم أصحاب شعار "سمعنا وأطعنا". هم أصحاب النفوس الزكّية والأخلاق العليّة. هم الصادقون الصابرون الموفون بالعهود. هم الخاشعون الوجّلون. هم الموحدون الشّاكرون الحامدون. أولئك أصحاب الجنّات التي عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين. أولئك في رحمة الله هم فيها خالدون.

وأصحاب جهنم ذوي الوجوه السّود عليها غبرة ترهقها قتر<sup>(٢)</sup> أولئك هم الكفرة الفجرة. هم المتكبّرون الجبارون. هم الفاسقون المنافقون. هم المرتدّون المرّجفون<sup>(٣)</sup>. هم المشركون أصحاب شعار "سمعنا وعصينا". هم المستهزّئون<sup>(٤)</sup> الظالمون. هم الشيوعيّون والاشتراكيون والوجوديّون. هم الوثنيّون والدّهريّون<sup>(٥)</sup> والمثليّون. هم أهل البدعة والفُرقة والطوائف

(١) المُخبتون: المطمئنّون إلى الله المتواضعون له.

(٢) ترهقها قتر: تغشاها ظلمة وسواد.

(٣) المرّجفون: مرّوجو الإشاعات الكاذبة.

(٤) المستهزّئون: الذين يشركون بالله.

(٥) الوجوديّون والدّهريّون: أصحاب معتقدات أنّ الطبيعة من أوجدت الخلق وأنّ ما يهلك النّاس هو الدهر وأن لا حساب ولا عقاب بعد الموت.

والتحزّبات والجماعات. هم الخائنون الكاذبون المضيعون لحقوق العباد وحدود الله. هم المضيعون للأمانات والعهود والعقود. هم المفترون الكذب على الله وعلى رسوله والمؤذون للمؤمنين. هم السفّاحون المعتدون الطغاة. هم الفاسدون المفسدون في الأرض. أولئك أصحاب السعير ليس لهم من دونه وليّ ولا نصير. أولئك أصحاب الوجوه السود فما أصبرهم على النّار.

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يَطْوِي اللهُ عِزَّ وَجَلِّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيَمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟" [أخرجه الإمام مسلم].

ومصداق ذلك من سورة الرّمز: ﴿ وما قدرُوا اللهُ حقَّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطوّيات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون ﴾ [الزمر ٦٧].

ألوان الوجوه في الدنيا كثيرة منها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والدرجات بين ذلك. أمّا في الآخرة فلونان لا ثالث لهما: لون السعادة ولون الشقاء. حتّى يصبح لون الوجه سمة حصريّة لصاحبه يُعرَفُ بها وعلامة فارقة تميّز كلّ فريق عن الآخر. ولذلك

كان أصحاب الأعراف يعرفون كلّ فريق بسماهم. ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسماهم﴾ [الأعراف ٤٦]. ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسماهم...﴾ [الأعراف ٤٨].

﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مُسْوَدَّةٌ أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين﴾:-

كذبوا على الله في إدّعائهم أنّ لله ولداً أو شريكاً أو ولياً أو صاحبة أو ندّاً. أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموتلاً<sup>(١)</sup> لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وبُعدهم عن الحقّ وقولهم على الله الإفك<sup>(٢)</sup> والكذب والبهتان<sup>(٣)</sup> وما لا يعلمون؟

وفي الحديث: "إنّ المتكبرين يُحشرون يوم القيامة أشباه الذرّ في صور النّاس<sup>(٤)</sup> يعلوهم كلّ شيء من الصّغار<sup>(٥)</sup> حتى يدخلوا سجنًا من النّار في وادٍ يقال له (بولس) من نار الأنيار<sup>(٦)</sup> ويُسقون من عُصارة أهل النّار ومن طينة الخَبال<sup>(١)</sup>" [أخرجه ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه مرفوعاً].

(١) موتلاً: سکناً ووطناً ومستقراً.

(٢) الإفك: أقبح الكذب وأفحشه.

(٣) البهتان: إفتراء ما ينكره الشرع ويكرهه الله ثم يرمي به بريئاً.

(٤) أشباه الذرّ في صور النّاس: الوجوه والملامح آدمية وأما الأجسام فبحجم النمل الأسود الصغير ليدوس عليهم النّاس جزاء استكبارهم في الدنيا.

(٥) الصّغار: الذلّ والهوان.

(٦) نار الأنيار: هذا السجن في أصل النار وأشدّها لهباً وحرارة.

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر ٦١]. يُنَجِّي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ  
السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ عِنْدَ اللَّهِ. لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِزَعُ الْأَكْبَرُ. بَلْ هُمْ آمِنُونَ  
مِنْ كُلِّ فِزَعٍ وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ. مَزْحُحُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ. نَائِلُونَ كُلَّ خَيْرٍ.

﴿ وَوَجَّهَ وَجْهَهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ  
الْفَجْرَةُ ﴾ [عبس ٤٠-٤٢]. يَصِلُ الْعَرَقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى أُذُنِي الْكَافِرِ  
فَيُلْجِمُهُ عَنِ الْكَلَامِ<sup>(٢)</sup> ثُمَّ تَقَعُ الْغَبْرَةُ عَلَى وَجُوهِهِمْ.

قال ابن عباس: وجوه الكفار تقع عليها غبرة ويغشاها سواد  
الوجوه<sup>(٣)</sup> وهم الكفرة قلوبهم، الفجرة أعمالهم.

اللهم بيض وجوهنا ووجوه آبائنا وأمهاتنا في الدنيا والآخرة.  
اللهم اجعل لنا عندك عهداً أن تعاملنا يوم نلقاك برحمتك  
وليس بأعمالنا فإننا لا نثق إلا في رحمتك يا أرحم الراحمين.

آمين ... آمين

---

(١) طينة الخبال: ما يخرج من سوائل من فروج الزانيات.  
(٢) يلجمه عن الكلام: لا يقدر على الكلام لأن العرق وصل إلى فمه وتجاوزه إلى أعلى.  
(٣) يغشاها سواد الوجوه: يغطي وجوههم سواد دائم لا يفارقهم.

## من سورة آل عمران (١٤)

اليهود يحاربون المسلمين بأموالهم وليس برجالهم

قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ مَثَلُ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ<sup>(١)</sup> أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ١١٦-١١٧].

هذا مثل مدنيّ ضربه الله لكفار أهل الكتاب (اليهود خصوصاً لأنّهم هم سگان يثرب عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم).

يقول ابن عباس "لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع يهود في سوق قَيْنُقَاع فقال: " يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً". فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً<sup>(٢)</sup> لا يعرفون القتال. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت

(١) صرّ: برودة شديدة.

(٢) أعماراً: لا خبرة لهم بالقتال.

أنا نحن الناس وأنتك لم تأت مثلنا<sup>(١)</sup>. فردّ الله عليهم: ﴿ قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد ﴿١٢﴾ قد كان لكم آية في فتئتئ التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرؤنهم مثلئهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [آل عمران ١٢-١٣].

والمقصود بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في آيتي المثل هم اليهود الذين عرض عليهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم الدخول في الإسلام ونهاهم عن معاداته وأصحابه ونهاهم عن النّجوى لإخافة المسلمين ونهاهم عن إثارة البغضاء بين المسلمين وتذكيرهم بما كان بينهم في الجاهليّة من عداوات وحروب فلم ينتهوا ورفضوا الدخول في الإسلام واستمروا في مكائدهم ضدّ المسلمين. غرّهم ما عندهم من حصون وقلاع واستحكامات ﴿ وظنّوا أنّهم مانعتهم حُصونهم من الله ﴾ [الحشر ٢]. كما غرّهم ما يملكون من أموال ينفقون منها للكيد للإسلام والمسلمين ويشترون بها السلاح ويدربون شبابهم على قتال المسلمين ويستعدّون لمواجهةٍ لا بدّ قادمة. كما غرّهم استكبارهم وزعمهم أنّ رجالهم وشبابهم هم قمة

(١) نحن النّاس وأنتك لم تأت مثلنا: نحن محترفو قتال ونحن أصحاب الحرب وفنونها ونحن الشجعان ونحن أهل البسالة والجرأة [كما يزعمون].



البسالة والجرأة والشجاعة وهم أصحاب الحرب والقتال والأذى  
بفنونها والاستعداد لها كما يزعمون.

ونسوا أنّهم لا يقاتلون المسلمين كأفراد بل يعلنون الحرب  
على الله وعلى دينه وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم. وما  
المسلمون إلا جندٌ من جنود الله وما النصر إلا من عند الله ﴿ إِنَّ  
اللَّهَ بِأَبْصَارِنَا بَالِغٌ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق ٣]. ﴿ وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء ١٤١].

فردّ الله عليهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا  
أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ وتوعدهم بأنهم سيُغلبون ويُحشرون إلى  
جهنّم. وقد حلّ بهم ما توعدهم الله به فغلبوا وأُخرجوا من  
ديارهم فلم تُغن عنهم حصونهم ولا أسلحتهم ولا تدريباتهم شيئاً  
ولم نشهد بسالة جنودهم.

ونعود للمثل: فالمثل مركّب من جزأين: بمعنى أنّه لا بدّ من  
مشبّه ومشبّه به. وهذا هو الجزء الأوّل. ثمّ المشبّه به يتحوّل إلى  
مشبّه ويلزمه مشبّه به ثان.

**الطرف الأوّل (المشبّه):** كُفّر اليهود أحبط نفقاتهم في الحياة  
الدنيا وخاصّة أنّ هذه النفقات كان يُراد بها قتل النبيّ صلى الله  
عليه وسلم وإشاعة الفتنة بين أتباعه. هذه النفقات كانت للكيدِ

للإسلام والمؤمنين. كان هدفها شراء الأسلحة وتدريب شباب اليهود على مقاتلة المسلمين وبناء الحصون والاستحكامات.

**الطرف الثاني (المشبه به):** شبه ما أنفقوا وما أعدوا لقتال المسلمين كزرع جاءته ريح عاصفة شديدة البرودة فأهلكته وأهلك ما أنفقوا. هذا هو الجزء الأول من المثل المركب. والآن هذا المشبه به يصبح مشبه ويحتاج إلى مشبه به جديد. المشبه به الثاني: هذه الريح شديدة البرودة التي أهلكت زروعهم ونفقاتهم ما هي إلا المؤمنون البواسل الأشداء الذين دكوا حصونهم واستحكاماتهم فهزموهم بإذن الله وذهبت الأموال التي أنفقوها سدى<sup>(١)</sup>.

**أدوات التشبيه:** تكرار كلمة مثل وإضافة حرف الكاف إلى الثانية "كمثل".

**وجه الشبه:** لو تأملنا المثل بهدوء لوجدنا أنه يتحدث عن شيئين في الآية السابقة للمثل: ﴿ أموالهم وأولادهم ﴾. ثم تأتي الجملة الثانية وهي جملة المثل فتحدث عن أموالهم فقط. فأين أولادهم الذين درّبوهم على استعمال السلاح وقتال المسلمين والذين زعموا أنهم أولوا قوّة وأولوا بأس شديد؟

(١) سدى: بلا فائدة أو نتيجة.

فخالق النفوس أدرى بما فيها. ففي الوقت الذي كانوا يدعون فيه أنهم الأشجع والأكثر خبرة بالحرب وفنونها كانوا في الحقيقة لا يعولون<sup>(١)</sup> إلا على حصونهم وقلاعهم وأسوارهم. أمّا الرّغم بأنهم الأقوى والأكثر صلابة فهو كذب افتروه وكرّروه حتى صدّقوه. فتجاهلهم القرآن الكريم احتقاراً لهم وكشفاً لضالة شأنهم<sup>(٢)</sup> وتشهيراً بما حاولوا ستره من جُبْنِهِمْ.

فلم يتحدّث القرآن الكريم إلا عن أموال اليهود وما أنفقه اليهود ولم يتحدّث عن اليهود أنفسهم. وهذه براعة في المثل تفوق كلّ براعة. وما تجاهله القرآن احتقاراً له نحن معنيون بكشفه وتعريف المؤمنين بنقاط ضعفهم لأنّ حربنا معهم قادمة لا محالة وَوَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَوَعْدُ رَسُولِهِ حَقٌّ. فأعلن القرآن أن لا شجاعة عند رجالهم ولا بأس ولا قوّة ولا جرأة. أعلن أنّهم أناسٌ أموالُهُم هي التي قاتلت وتقاتل عنهم. أمّا هم فإنّهم أقلّ من أن يُلتفت إليهم وأجبن من أن يتصدّوا للمؤمنين وجهاً لوجه. وما زال هذا هو شأنهم في وقتنا الحاضر. فالحرب معهم ليست إلا حرباً مع حصونهم وأسوارهم وطائراتهم ودبّاباتهم وصواريخهم. أمّا الرجال

(١) لا يعولون: لا يعتمدون.

(٢) كشفاً لضالة شأنهم: ذكر القرآن الكريم أموالهم وتجاهل أولادهم ورجالهم احتقاراً لهم ولعدم أهميتهم.

فلا يقاتلون إلا بالقاء القنابل من الطائرات أو القذائف والصواريخ من الدبابات ومن وراء الاستحکامات. وصدق الله إذ يقول ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله.... ﴾ [الحشر ١٣]. ويقول سبحانه: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [الحشر ١٤]. ولناخذ أمثلة لنرى حال رجالهم:

ففي معركة الكرامة<sup>(١)</sup> عام ١٩٦٦ م عبر اليهود نهر الأردن متّجهين شرقاً للقضاء على الفدائيين. انتظرهم الفدائيون في حُفَرٍ حفروها وسط أشجار الخضروات واستقبلوهم بقذائفهم المضادة للدروع فاحترقت دباباتهم ولم ينج منهم أحد. وكانت المفاجأة أن وجدوا جنودهم مربوطين بسلاسل حديدية إلى الدبابات حتى لا يفرّوا واحترقوا جميعاً.

وفي حرب ١٩٧٣ م ظنّ الإسرائيليون أنّ خطّ بارليف الترابيّ مانعهم من جنود الكنانة البواسل. ولما فتّحت خراطيم ضغط المياه ثغرات في السدّ وتدقق المؤمنون بصيحات "الله أكبر" كان

(١) الكرامة: هو اسم قرية اردنية زراعية في منطقة أغوار نهر الأردن حصلت فيها المواجهة.

الإسرائيليّون قد هربوا إلى حدود دولتهم المزعومة خوفاً من المواجهة.

وفي حرب ٢٠١٤ تمكّن بواسل من المسلمين من دخول إحدى مستوطناتهم بهدف خطف جنودٍ منهم. وبعد ساعات عاد الفريق بدون أسرى ومعهم شريط فيديو يصوّر الجنود وقد ألقوا أسلحتهم ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم وتبرّزوا في سراويلهم من الرُّعب. فاضطر المسلمون إلى قتلهم دون خطفهم لقتارتهم وبتانة ریحهم. وقد تمّ بثّ الشريط في أكثر من قناة تليفزيونية.

فهذا المثل - هو بالتأكيد - أعمق من مجرد الإشارة إلى أنّ نفقاتهم - أو نفقات غيرهم من الكافرين - زائلة زوال النبات الذي تهلكه ريح باردة. هذا المثل هو توطئة وتمهيد واستعداد للحرب التي لا محالة آتية بينهم وبين المؤمنين والتي بشرنا الله فيها بالنصر المبين وبشرنا رسولنا صلّى الله عليه وسلّم أننا سنكون جنوداً من جند الله يحارب معنا جنود الله الآخرين من حجر وشجر وملائكة حيث يقول الحجر والشجر: "يا عبد الله يا مسلم ورائي يهودي فتعال واقتله". وبشرنا الله فيها بالنصر وبهدم أسوارهم وحصونهم ومستوطناتهم وكلّ ما بنوه من زيف وظلم على أرضنا

المباركة. ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة<sup>(١)</sup> ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد<sup>(٢)</sup> كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتييراً<sup>(٣)</sup> ﴿ [الإسراء ٧].

---

(١) فإذا جاء وعد الآخرة: الآخرة هنا ليس المقصود منها يوم القيامة. بل الإفساد الثاني لليهود وهو يحدث الآن على أرض فلسطين. وهذا الجزء معطوف على آية سابقة ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب<sup>(٤)</sup> لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴿ [الإسراء ٤].

(٢) ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد: سيهزموكم ويذلوكم ويعفروا وجوهكم بالخزي والعار وليدخلوا مدينة القدس في فلسطين.

(٣) وليتبروا ما علوا تتييراً: سيدمروا ويهدموا كل ما بنيتموه ليحميمكم منهم من قلاع وحصون وأسوار ومستوطنات فلن تجديكم نفعاً.

## من سورة الأنعام (١٥)

سبحانه ... فعّال لما يريد

قال الحقّ سبحانه:

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام ١٢٥].

هذا مثل مكيّ مركّب يقدّم لنا صورتين متناقضتين بالأبيض والأسود. هذا التناقض في الألوان بين الأبيض والأسود لا يزيد الصورة إلّا وضوحاً وجلاءً. فمن يعلم الله بعلمه القديم الأزليّ أنّه يشتاق إلى الإسلام ويتوق إلى الهداية ويود أن يسير على الصراط المستقيم يهيء الله له الأسباب كي يدخل حظيرة الإسلام بأن يشرح صدره لهذا الدين. والشّرح هنا معنويّ يعني التيسير وإيجاد الأسباب والتوفيق وهذه علامات الخير.

ومن يعلم الله بعلمه القديم الأزليّ أنّه يهوى الضلال ويحبّ الظلمات وسبق عليه القول<sup>(١)</sup> فإنّ الله يجعل صدره ضيقاً لا

(١) سبق عليه القول: هو في قضاء الله وقدره من أهل التّار واسمه مسجّل في كشف أهل

التّار. ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينٍ ﴿٧﴾ وما أدراك ما سَجِّينٍ ﴿٨﴾ كتاب مرقوم ﴿٩﴾

ويل يومئذ للمكذّبين ﴿١٠﴾ [المطفّفين ٧-١٠].

يَتَّسِعُ لِلْهُدَى وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ نُورُ الْإِيمَانِ. فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ مَنْ جَعَلَ  
اللَّهُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا؟

والآن إلى المثل:-

**الطَّرْفُ الْأَوَّلُ (المشبهه):** من يرد الله هدايته للإسلام. ومن ناحية  
أخرى من يرد الله إضلاله وإبقاءه خارج حوزة الإسلام.

**الطَّرْفُ الثَّانِي (المشبهه به):** هذا يقذف الله نور الإيمان في صدره  
فينشرح ويتسع وينشط لدخول الإسلام ويستبشر بهذا الدين  
ويحبّه. وذاك يضيق الله صدره ويغلق منافذ قلبه فلا يدخل نور  
ولا هدى ولا توحيد.

ولأنّه مثل مرگب فيتحوّل المشبهه به إلى مشبهه (طرف أول)  
ويحتاج إلى مشبهه به جديد.

**مشبهه به ثاني:** ما هي أماره كلّ طرف من الطرفين؟

أمّا أماره الذي شرح الله صدره فحبّ الآخرة والعمل لها  
والزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَالزُّهْدُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْحِسَابِ  
قَبْلَ الْمَوْتِ وَأَنْ يَحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ وَالاسْتِقَامَةُ عَلَى  
الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَحُبُّ الْعِلْمِ وَحُبُّ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ.



وأما أمانة الذي ضيق الله صدره وسد منافذ قلبه فالامتناع عن قبول الإيمان وكراهية النصائح والوعظ والأمر بالمعروف. تجده خبيث النفس للشيطان عليه ألف سلطان يُغويه ويصدّه عن سبيل الله ويزين له ما يعمل. فهو كمن يريد أن يصعد للسماء ولكن أئى له ذلك؟ فتجده يزفر زفرات حارة. فكما أنّ السماء تستحيل عليه فكذلك الدخول في الإيمان. ﴿... إنّنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [الأعراف ٢٧].

أداة التشبيه: كلمة "كأنما".

وجه الشبه: من يرد الله هدايته يفتح له كلّ أبواب الخير وييسر له كلّ سبل الهداية ويمدّه بشرح الصدر وقذف نور الإيمان في قلبه. فيأنس إلى الهدى ويألف قلبه الإيمان فلا يستطيع الاستغناء عنه بعد ذلك ويصبح الإيمان من متطلّباته وألويّاته اللّخظيّة. ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه﴾ [الزمر ٢٢].

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾

قال ابن عبّاس: يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان به.

وعن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية. قالوا: يارسول الله ما هذا الشرح؟ قال: "نور يقذف به في القلب". قالوا: يا رسول الله فهل لذلك أمانة تُعرف؟

قال: "نعم". قالوا: وما هي؟ قال: "الإجابة إلى دار الخلود<sup>(١)</sup> والتجافي عن دار الغرور<sup>(٢)</sup> والاستعداد للموت قبل الموت<sup>(٣)</sup>".  
[رواه ابن أبي حاتم].

أما أفضل قلوب العباد فهو قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود موقوفاً قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خيراً من قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خيراً من قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه. فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسناً وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئاً.

﴿ومن يرد الله أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾  
من يرد الله ضلاله يجعل قلبه ضيقاً حرجاً لا يتسع لشيء  
من الهدى ولا يخلص إليه<sup>(٤)</sup> شيء من الإيمان.

(١) الإجابة إلى دار الخلود: حب الآخرة والعمل لها والاستقامة على الطريق المستقيم المؤدي إليها.

(٢) التجافي عن دار الغرور: الزهد في الدنيا ومتاعها وشهواتها وآلا يطلبها بعمل الآخرة وأن تكون الدنيا في يده والآخرة في قلبه.

(٣) والاستعداد للموت قبل الموت: يحاسب نفسه قبل يوم الحساب. ويزن أعماله قبل أن توزن عليه.

(٤) لا يخلص إليه: لا يصل إليه.

قال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع.

قال الخراساني: ليس للخير إلى قلبه منفذ.

وقال ابن المبارك: لا تستطيع "لا إله إلا الله" أن تدخل قلبه.

وقال ابن جرير: هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه.

فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه بذلك كمن يريد الصعود إلى السماء وعجزه عن ذلك ظاهر.

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾

فتجده لا يوفق إلى خير أبداً كمن يتخبّط في الظلمات ويترنّج<sup>(١)</sup> في كلّ موقف وتتناوشه<sup>(٢)</sup> الهواجس السوداء والشكوك والشياطين من كلّ جانب.

اللهمّ ثبت قلوبنا على دينك وزدنا يقيناً بلقائك وحسن ظنّ بك واجعلنا ممّن يعبدك على بينة ويحبّك ويحبّك إلى عبادك على بصيرة وزدنا علماً وتوفيقاً. آمين.

(١) يترنّج في كلّ موقف: متردّد في كلّ موقف. فاقد التوازن. لا يميّز بين الصواب والخطأ.  
(٢) تتناوشه الهواجس: تتخطّفه الأفكار السوداء.

## من سورة الأعراف (١٦)

الأرض الطيبة والأرض الخبيثة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ [الأعراف ٥٨].

نظر<sup>(١)</sup> القرآن الكريم بين الاستعداد الطيب الفطريّ في النفس البشريّة وبين الاستعداد السيّء. فالنفس الطيبة كالأرض الطيبة يُجدي معها التعليم وتنفعها الموعظة وتثمر فيها النصيحة ويفيدها التوجيه والإرشاد إلى الحقّ والهدى. أمّا النفس الخبيثة فإنّها لا تنتفع بعلم ولا توقظها من غفلتها العظة ولا تقبل النصيحة ولا تنصلح بالإرشاد والتوجيه.

والآية الكريمة من سورة الأعراف التي بدأنا بها الموضوع هي مثل. وهي تضع أمامنا صورة نراها ونعرفها وهي صورة الشيء وضده ليزداد فهمنا وليتّضح المعنى. فمن الأرض ما يقبل الماء ويحيا به ويُخرجُ النبات فينتفع الإنسان وسائر الحيوان. ومنها ما لايقبل الماء ولا يحيا به ولا يعطي سوى الحنظل<sup>(٢)</sup> والشوك.

(١) نظر: قارن بين الشيء وضده.

(٢) الحنظل: نبات صحراويّ له ثمر طعمه شديد المرارة.

قال بعض أهل العلم: هذا مثل للناس. شبه الله تعالى الشخص السريع الفهم بالبلد الطيب والبلد بالبلد الخبيث. وقال آخرون: هو مثل للقلوب. فقلب يقبل الوعظ والذكرى وقلب فاسق يرفض ذلك. وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. وسياق الآيات السابقة على المثل يرجح هذا الرأي. فالمؤمن طيب وعمله طيب كما البلد الطيب ثمره طيب. أمّا الكافر فمثله كالبلدة السبخة<sup>(١)</sup> المالحة. فالكافر هو الخبيث وعمله هو الخبيث.

وهكذا اتّضحت الصورة وبرزت وتحدّدت معالمها ووصلنا إلى أجزاء المثل.

**فالطرف الأول: (المشبه به):** المؤمن وعمله وقوله. والكافر وعمله وقوله.

**والطرف الثاني: (المشبه به):** الأرض الطيبة ريحها طيب وثمرها طيب. والأرض الخبيثة ريحها فاسد خبيث وثمرها الشوك والحنظل.

وفي هذا المثل استخدم ربّ العزّة المشبه به ليحلّ محلّ المشبه وحذف المشبه. فكان التشبيه متطابقاً متداخلاً في الصورة لا يحتاج إلى أدوات تشبيه.

(١) السبخة: رائحتها كريهة ونسبة الملح في تربتها زائدة فلا تُنبت.

وجه الشبه: فالمؤمن كالأرض الطيبة يقبل الهدى والعلم وينتفع به كما تقبل الأرض الطيبة الغيث فتحيا به ويخرج نباتها سريعاً طيباً حسناً بإذن ربّه. تماماً كما يبارك الله عمل المؤمن ويقبله ويضاعفه له ويبارك فيه ويجزيه بخير منه. فالمؤمن طيب وقوله طيب فلسانه رطب بذكر الله وتسبيحه وهو دائماً على وضوء وطهارة وعمله طيب لا يعمل إلا ما يرضي الله.

وأما الكافر فهو كالأرض السبخة النتنة المألحة لا تقبل ماء ولا تُنبت زرعاً إلا الشوك والعوسج<sup>(١)</sup> والحنظل. وهذا كعمل الكافر فقلبه مُنكر للحق رافض للإيمان وقوله زور وبُهتان<sup>(٢)</sup> وباطل ومردود عليه وهو نجس ولو استحَمَّ كل ساعة. فهو في ضلال ونكد ونفس خبيثة كالأرض الخبيثة.

والصورة هنا مجسّمة بارزة ثلاثية الأبعاد متطابقة الشبه. وممّا زادها وضوحاً أنّ المثل يتحدّث عن الشيء وضدّه. فالمقابلة بين الضدّين واضحة المعالم لا تزيد المثل إلا وضوحاً وجمالاً وثناءً. وما أجمل وما أروع أن يُدلي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإضاءاته على المثلِ بمثلٍ آخر يجعله محفوراً في الذاكرة دائم الحضور واضحاً مجسّماً.

(١) العوسج: نبات شوكي ليس له ثمر.

(٢) بهتان: إفك وغيبة وكذب.

وقد روى هذا المثل النبوي الشريف أبو موسى الأشعريّ  
 وخرّجه البخاري في "كتاب العلم": قال: قال النبيّ صلّى الله عليه  
 وسلّم: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير  
 أصاب أرضاً: فكان منها نقيّة<sup>(١)</sup> قبلت الماء فأنبتت الكلأ<sup>(٢)</sup>  
 والعشب الكثير. وكانت منها أجادب<sup>(٣)</sup> أمسكت الماء فنفع الله بها  
 الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي  
 قيعان<sup>(٤)</sup> لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين  
 الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك  
 رأساً<sup>(٥)</sup> ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

قال القرطبيّ في تفسير المثل النبويّ: ضرب النبيّ صلّى الله  
 عليه وسلّم لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي  
 الناس في حال حاجتهم إليه. وكذلك كان حال الناس قبل مبعثه  
 صلّى الله عليه وسلّم في أشدّ الحاجة إلى النور والهدى والغيث  
 العميم والدين القويم. فكما أنّ الغيث يحيي البلد الميت فكذلك  
 علوم الدين تحيي القلوب الموتى. ثمّ شبّه صلّى الله عليه وسلّم

(١) نقيّة: أي أرض طيّبة.

(٢) الكلأ: العشب والتّبات عامّة.

(٣) أجادب: الأرض الصّخرية الصلبة لا تشرب الماء ولا تُنبت ولكنها تحفظ الماء.

(٤) قيعان: الأرض الصّخرية الملساء المستوية لا تمسك ماء ولا تُنبت زرعاً.

(٥) لم يرفع بذلك رأساً: لم يقبل الإسلام ولم يدخل فيه واستمر في ذلك وكفره وظلماته.

السامعين له بالأرض المختلفة التي يصيبها الغيث. فمنهم العالم العامل المعلم. ومنهم الجامع للعلم غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع. ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره. وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينقل العلم إلى غيره بقوله صلى الله عليه وسلم: "نصّر الله إمرأً سمع مقالتي فادّأها كما سمعها فربّ مُبلِّغٍ أوعى من سامع".<sup>(١)</sup>

فسبحان من أحيا الأرض الطيبة بالغيث وأحيا قلوب عباده الموحّدين بما جاء في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. سبحان من ضرب الأمثال لعباده ليتدبّروا وينتفعوا وليقبلوا على الخير ويزدادوا من الأعمال الصالحة وليتجنّبوا الشر والكفر والفساد.

(١) رواه عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس. وهذا الحديث رواية زيد بن ثابت مرفوعاً.



النموذج البلعاميّ

قال الحقّ سبحانه:

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها<sup>(١)</sup> فَأَتَّبَعَهُ  
الشیطان<sup>(٢)</sup> فكان من الغاوين<sup>(٣)</sup> ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها<sup>(٤)</sup>  
ولكنّه أخلد إلى الأرض<sup>(٥)</sup> واتّبع هواه<sup>(٦)</sup> فمثله كمثل الكلب إن  
تحمل عليه<sup>(٧)</sup> يلهث<sup>(٨)</sup> أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين  
كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون ﴿ ساء مثلاً  
القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ [الأعراف  
١٧٥-١٧٧].

ضرب الله مثلاً في سورة الأعراف لمن آتاه الله آياته فكان عالماً  
بها قادراً على بيانها والجدل بها لكنّه لم يُؤت العمل مع العلم بل  
كان عمله مخالفاً لعلمه. ضرب الله له المثل بالكلب تقبيحاً  
لمسلكه وتنفيراً من توجّهه ورفضاً لاختياره الضلالة على الهدى.

(١) انسلخ منها: كفر بآيات الله ونبذها وراء ظهره.

(٢) أتبعه الشيطان: استحوذ عليه وسيطر عليه.

(٣) كان من الغاوين: كان من الضالّين المرتدّين عن دين الله.

(٤) لو شئنا لرفعناه بها: أي لظهرناه وجتبناه قاذورات الدنيا.

(٥) أخلد إلى الأرض: مال إلى زينة الدنيا وأقبل عليها.

(٦) اتّبع هواه: أطاع الشيطان.

(٧) تحمل عليه: تطرده وتزجره.

(٨) يلهث: يتنفس بشدّة مع إخراج اللسان.

والحديث في هذا المثل عن رجل من الجبارين من أرض كنعان في زمن بني إسرائيل ويوشع بن نون. هذا الرجل كان يُدعى بلعام بن باعوراء. قد آتاه الله علماً. ويقال إنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب. ويقال إنه كان مستجاب الدعاء ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه.

ونحن الآن بصدد رواية ابن مسعود ومحمد بن إسحق بن يسار عن سالم عن أبي النضر. وتقول الرواية إنه لما نزل يوشع بن نون عليه السلام أرض كنعان في فلسطين أتى قوم بلعام إلى بلعام وطلبوا منه أن يدعو عليه وعلى جيشه حتى لا يحتل أرضهم ويقتلهم. فرفض بلعام في البداية أن يدعو على نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون. فلم يزالوا يتضرعوا إليه حتى فتنوه فانسلك من آيات الله وأخذ إلى زينة الدنيا واتبع هواه وأطاع الشيطان وأخذ يدعو عليهم فيحرف الله لسانه فيدعو على قومه بدلاً من أن يدعو لهم. وعندما بالغ في الدعاء اندلع لسانه على صدره<sup>(١)</sup> ولهذا شبّهه المولى بالكلب اللاهث فهو يلهث وراء مباحج الدنيا ووراء شهواته. كلما أشبع شهوة تلهف إلى غيرها فهو في لهاث مستمر وراء رغباته كالكلب اللاهث تماماً إن تزجره يلهث وإن تركه يلهث. وكان اليهود يسمّونه "فيلسوف الكافرين".

(١) اندلع لسانه على صدره: خرج لسانه من موضعه في الفم وتدلّى على صدره.

وهناك رواية التوراة التي تقول إنّ بلعام كان من علماء بني إسرائيل في التّيه زمن موسى عليه السلام. وكان مُجاب الدعوة. بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان. فأغدق عليه الملك وأعطاه وأقطعهُ<sup>(١)</sup> واستبقاه في بلده. فاتّبع بلعام دين الملك وترك دين موسى وأخذ إلى مُتَع الدنيا وسكن إلى عالم الطين وانسلخ من دين الله وانقلب شيطاناً يدعو إلى الإلحاد. وما يهَمُّنا ليس سيرة حياة بلعام وإنّما المثل الذي ضربه الله لكلّ الحالات المشابهة لحالة بلعام. فهو مثل لمن قرأ القرآن وعرف الحلال والحرام وشهد بوحدانيّة الله وشهد أنّ الرّسول حقّ وعرف الطريق المستقيم وأنارت آيات الله ظلام قلبه ونفسه وذاق حلاوة القرب من الله ودخل جنّة الله في الأرض عن طريق قيام اللّيل وعمل الطاعات ونصب وجهه إلى الله. ثم لسبب أو لآخر خلع رداء الإسلام ومال إلى زينة الحياة الدنيا وانغمس في قاذوراتها واستحبّ العمى على الهدى وارتاح إلى الظلمات وتحوّل إلى خُفّاش يعشق الظلام وفضّل سوء الخاتمة فهو كالكلب اللّاهث لا ينفك<sup>(٢)</sup> عن لهائه في غير وقت النوم.

(١) فأغدق عليه الملك وأعطاه وأقطعهُ: منحه الملك منحةً كثيرة ووهبه هبات كثيرة.

(٢) لا ينفك عن لهائه: لا يتوقف عن اللّهث.

والآن إلى المثل: وهو من الأمثال الظاهرة الواضحة المشتملة على جميع أجزاء المثل.

**الطرف الأول: (المشبه):** عالم سوء يعمل بخلاف علمه انسلخ من آيات الله وأخلد إلى الأرض وأطاع الشيطان.

**الطرف الثاني: (المشبه به):** الكلب اللاهث منقطع الفؤاد<sup>(١)</sup>.

**أدوات التشبيه:** استخدمت الآيات أكثر من أداة تشبيه. فقد ورد فيها "فمثله" و "الكاف" وكلمة "مثل". والقصد من الجمع بين كلمة "مثل" و "الكاف" هو تأكيد التشابه والتماثل والتقابل بين طرفي التشبيه.

**وجه الشبه:** كلا الطرفين يلهثان وراء الدنيا ومباهجها لشدة حرصهما عليها. فحرارة الحرص في كبد الطرفين وعدم الصبر على الشهوات توجب لهما دوام اللهاث.

**إضاءات على المثل:**

"هذه أشد آية على العلماء وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها" [البغوي]. [انتهى].

(١) منقطع الفؤاد: لا يمكنه الصبر على الشهوات.

"ضرب الله عزّ وجلّ مثلاً لهذا الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها واتّبع هواه فقال تعالى ﴿ فمثله كمثل الكلب إنّ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾. هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتّبع هواه وترك آخرته وآثر إشباع شهواته فقد شبّهه الله بأخسّ الحيوانات وهو الكلب في أخسّ أحواله وهو حال اللّهاث". [الخازن]. [انتهى].

"إنّه مثل يضربه الله للإنحراف عن سواء الفطرة ونقض العهد مع الله تعالى والنكوص عن آياته<sup>(١)</sup> فينسلخ من آيات الله. والذي يتلو هذه الآيات وهي تصوّر هذا المثل في مشهدٍ حيّ متحرّكٍ عنيف الحركة شاخص السمات بارز الملامح واضح الانفعالات. نقول من يتلو هذه الآيات ويستشعر هذه الصورة لا يمكن أن يرضى لنفسه مشابهة هذا المخلوق التّعيس بأيّ حالٍ من الأحوال. وهذا هو الهدف من أمثال القرآن العظيم". [الفياض]. [انتهى].

**إضاءات خاصّة على المثل:**

**نُخِصُ من هذا المثل بعدة نقاط:**

(١) النكوص عن الآيات: الارتداد إلى الخلف كما تنصّ الآية ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [البقرة ٢٥٧].

**أولاً:** ليست العبرة بجمع العلم ولكن العبرة بالتّفقه فيه<sup>(١)</sup> والعمل بموجبه على أرض الواقع إذ لا يدري الإنسان بِم يُختم له.

**ثانياً:** الإنسان لا يأمن على نفسه الفتنة إذ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلّبها كيف يشاء. فلا يغترن أحد بعلمه او بعمله<sup>(٢)</sup> وعليه أن يسأل مقلّب القلوب والأبصار أن يثبّت قلبه على دينه ويستعيذ بالله من زَيْغِ القلوب والأبصار.

**ثالثاً:** طالما أنّ الإنسان الحيّ عُرْضَةٌ للفتن والابتلاءات والإنقلابات فلا يصلح أن يكون مَرْجِعاً أو قُدوة. فالشّيعَة يتّخذون مرجعيّات حيّة تمشي على الأرض ويسمّونها "آيات الله العظمى" ويلتزمون بفتاويهم وإرشاداتهم حتّى ولو خالفت نصوص القرآن. ويبقى السؤال: ماذا لو سقط هؤلاء أو بعضهم في المنقلب البلعاميّ؟ ما مصير تابعيهم؟ لذلك أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن نتمسك بمرجعيّة كتاب الله والسنة المطهّرة وأن تكون قدوتنا أناس قضيوا وانتقلوا إلى الرفيق الأعلى وشهد الله لهم وشهد رسوله لهم بالصّلاح والفوز بالجنّات.

**رابعاً:** أنّ الدّين والعلوم الدّينيّة تُطلب لأجل الآخرة وبقصد مرضات الله وليس لطلب الدنيا.

(١) التّفقه فيه: تدبّر العلم والعمل بأوامر الفقه الإسلامي.

(٢) لا يغترن أحد بعلمه او بعمله: لا تجعل علمك أو عملك سبيلاً للتكبر على الناس.

خامساً: كلّ من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبّها فلا بدّ أن يقول على الله غير الحقّ في فتواه وحُكْمِه وفي خَبَرِه وإلزامه. وإنّ كان الحقّ ظاهراً لا خفاء فيه ولا مرأى ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته جَهَاراً نَهَاراً وقال لنفسه: لي مخرج بالتوبة. وهؤلاء هم من قصدْتهم الآية ﴿ فحلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإنّ يأتهم عرض مثله يأخذوه .... ﴾ [الأعراف ١٦٩]. فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه. وما أكثرهم في كلّ عصر.

سادساً: الحقّ سبحانه لا يستنكف أن يضرب مثلاً بمخلوقاته كالكلب وغيره طالما أنّ المشبّه به مطابق للمشبّه. فالمثل كالمرآة. ولا عيب ولا عتب على المرآة إن أظهرت القبيح قبيحاً. أخيراً: فليحذر الذين يتلون كتاب الله طمعاً في أجر القراءة فقط دون تدبّر ودون عمل ولمجرّد تقليب الصفحات أن لا حصانة لديهم ضدّ الفتن والابتلاءات. فإنّما نزل القرآن لنتلوه ونتدبّر آياته ولنستمدّ منه قوّة إيمانيّة وحصانة ضدّ الشيطان والرديّة ولنضمّد في وجه التقلّبات كالرّواسي الشامخات. اللهمّ ثبت قلوبنا وأبصارنا على دينك. اللهمّ لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. اللهمّ نسألك الفردوس الأعلى من الجنّة برحمتك وبغير حساب.... اللهمّ آمين.

مثل الحياة الدنيا

قال الحق سبحانه:

١. ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس ٢٤].

٢. ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف ٤٥-٤٦].

٣. ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد ٢٠].



هذه أمثال ثلاثة ضربها الله لعباده المؤمنين لتترسخ في أذهانهم صورة الحياة الدنيا. والشيء المشترك بين هذه الأمثال أنّ المؤمن يجب ألاّ يأنس لهذه الحياة الدنيا ولا يرضاهها بديلاً عن الآخرة ولا يطمئن إليها ولا يطيل الأمل في البقاء فيها فهي دار فناء ودار ابتلاء ودار التواء وهي بطبعها غدارة تبطش بمن أعجب بها وتنتقم ممن اطمأن إليها وليس لها صاحب. فعلى العاقل أن يجعل الدنيا طريق عبور للآخرة وأن يزرع فيها ما يودّ أن يحصده في الآخرة وأن يتزوّد منها ما يؤهّله للخلود في دار الخلود. والدنيا دار آفات وشرّ تلك الآفات الغفلة عن وجود الله وعلى رأس تلك الآفات الشرك بالله والإكثار مما يُسخط الله ويغضبه. فالعاقل من يتبين موضع قدمه قبل أن يضعها ويسأل الله السلامة في كلّ خطوة حتى يصل إلى برّ الأمان إلى دار السلام. فما أشبه الدنيا بحقلٍ مزروعٍ بالألغام المهلكات ولا نجاة إلاّ بالابتهاال إلى الله: "اللهم سلّم. اللهم سلّم".

لما كانت الحياة الدنيا وما فيها من مُتّع ومتاع وزينة وشهوات تشدّ الناس إليها وتُنسيهم أنّ هناك موتاً وبعثاً وحساباً وداراً أخرى. فقد أوضح الله للناس حقيقة الدنيا ومآلها<sup>(١)</sup> وأبان لهم<sup>(٢)</sup> أنّها

(١) مآلها: مصيرها ونهايتها.

(٢) وأبان لهم: أوضح لهم عن طريق ضرب الأمثال.

ليست أكثر من فرصة لعمل الخير والإعداد للآخرة. وأنّ الدّنيا دار ابتلاء وأنّ الآخرة هي دار الجزاء. وكثّر الأمثلة ليعلم من كان غافلاً أنّ الدّنيا دار التواء<sup>(١)</sup> وفناء وانتهاء وأنّ الآخرة هي دار استواء وبقاء وبلا انتهاء.

## ١. ولنبدأ بالمثل الأوّل في سورة يونس:

**الطّرف الأوّل (المشبه):** هو الحياة الدّنيا.

**الطّرف الثاني (المشبه به):** هو أرض خِصْبَة نزل عليها الماء فأنبتت واخضرت. ثمّ كان حصيداً وحطاماً كأن لم يَغْنِ بِالْأَمْسِ<sup>(٢)</sup>.

**أداة التشبيه:** كلمة **مَثَلٌ** وحرف **الكاف** في كلمة "كماء".

**وجه الشّبه:** الحياة الدنيا كأرضٍ خِصْبَة نزل عليها الماء المبارك من السماء فاهتزّت وربت<sup>(٣)</sup> وقام الإنسان ببذر البذور فيها فإذا بالحبّ يلتقى بالماء ويختلط به فينبت ويترعرع وينمو ويؤزهر زروعاً صنواناً وغير صنوان<sup>(٤)</sup> تكسو الأرض وتزيّن بثيابٍ سُندُسيّة. فيفرح الإنسان بهذا المنظر النّضر وهذا النبات الخضر طعاماً للنّاس والأنعام. فلما عَظَمَ رجاؤه في الانتفاع به وقع اليأس

(١) التواء: اعوجاج وظلم.

(٢) كأن لم يَغْنِ بِالْأَمْسِ: كأنه لم يكن أخضراً يانعاً بالأمس.

(٣) فاهتزّت وربت: أصبحت جاهزة للزراعة.

(٤) صنواناً وغير صنوان: بعض النباتات متشابهة وبعضها مختلف.

منه لأنّ الزرع إذا انتهى نموّه وتكامل حُسْنه إلى الغاية القصوى  
أته آفة فتلف بالكلية كأن لم يكن نضراً مُخضراً بالأمس.

وقد أجمع الباحثون تقريباً على أنّ هذا المثل الأوّل قد يُضربُ  
للباغين في الأرض<sup>(١)</sup> المغتريين بالدنيا<sup>(٢)</sup> كما نصّت الآية السابقة  
على المثل ﴿ يا أيّها الناس إنّما بَغِيكُمْ على أنفسكم متاع الحياة  
الدنيا ﴾ [يونس ٢٣].

قال محمّد عبده: "لَمَّا كان سبب ما ذُكر من البغي وإفساد  
العمران هو الإفراط في حبّ التمتع بما في الدّنيا من الزينة واللذات  
ضرب الله مثلاً بليغاً يصرف العاقل عن الغرور بها ويهديه إلى  
القصد والاعتدال فيها واجتناب حيازتها بالبغي والظلم<sup>(٣)</sup> وحبّ  
العلوّ والفساد في الأرض". [تفسير المنار ١١/٣٤٧].

فالدّنيا هي هذه الأرض التي عرفنا حالها والإنسان في هذه  
الدنيا هو النبات. كلّما تعاقب الليل والنهار وانقضى يوم اقترب  
الإنسان خطوة إلى القبر. وتجده في نهاية عمره ضعيفاً مُضْفَرّاً  
كالنبات على وشك أن يكون حُطاماً. وتجده خطواته ثقيلة واتّزانه

(١) الباغين في الأرض: الطغاة الظالمون الذين يظلمون النَّاس.

(٢) المغتريين بالدنيا: المخدوعين بقوّتهم أو سلطتهم أو بضعف خصمهم الظّانين أنّ لا  
حساب ولا عقاب.

(٣) اجتناب حيازتها بالبغي والظلم: البعد عن أخذ ما في يد الغير بالظلم أو بالقوّة أو بغير  
حقّ.

معدوم وعصاه في يده نظره كليل<sup>(١)</sup> وسمعه ثقيل كأن لم يكن يوماً شاباً فتياً قوياً رياضياً يتحدّى كلّ شيء بشبابه وعضلاته. والتمسك بالدنيا إذا نال منها بُغْيَتَهُ<sup>(٢)</sup> أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا وملذّاتها.

ووجود كلمة إنّما في أوّل المثل فهي للحصر. أي أنّ الدنيا هذا هو مثلها حَصْرِيّاً.

قال ابن القيم: "شبهه سبحانه الحياة الدنيا بأنّها تتزيّن في عين الناظر فتروقه بزینتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها. حتّى إذا ظنّ أنّه مالكٌ لها قادرٌ عليها سلبت منه<sup>(٣)</sup> وهو أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها. فيشبّهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتُعشِبُ ويحسُنُ نباتها ويروق منظرها للناظر فيغترّ بها ويظنّ أنّه قادرٌ عليها مالكٌ لها. فيأتيها أمر الله فتُهْلِكُ الآفةُ نباتها بغتة فتصبح كأن لم تكن من قبل. فيخيب ظنّه وتصبح يداه صفراً منها. هذا هو حال الدنيا والوائق بها سواء". [ابن القيم/الأمثال في القرآن الكريم]. [انتهى].

(١) نظره كليل: نظره ضعيف لا يميّز الأشياء والأشخاص.

(٢) نال منها بُغْيَتَهُ: حصل منها على مُرادِهِ.

(٣) سلبت منه: أخذت منه وحُرِمَ منها أو هو أُخِذَ منها بمرضٍ أو موتٍ أو فقرٍ أو عجزٍ أو سجن.

ولمّا كانت الدنيا دار آفات وحسرات وندامات والجنّة سليمة من كلّ ذلك دعانا الله إلى الجنّة فقال سبحانه ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ [يونس ٢٥]. فسمّاها دار السلام لسلامتها من الآفات الموجودة في الدنيا كالمرض والموت والظلم والحروب والعقوق والطغيان والفقر والضّيع وغيره. فعمّ بالدعوة إليها وخصّ بالهداية من شاء. فذلك عدلّه وهذا فضله.

## ٢. والآن إلى المثل الثاني للحياة الدّنيا: قال الحقّ سبحانه:

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّيح وكان الله على كلّ شيء مقتدرًا ﴾ [الكهف ٤٥].

وهو كالمثل الأوّل يشبّه لنا الحياة الدنيا بأرض أصابتها السماء بغيث فأنبتت واخضرت ثمّ أصبح زرعها هشيماً تذروه الرّيح. ولكنّ هذا المثل يختلف عن المثل الأوّل الذي كان يحثنا على التفكير في أمر الدّنيا والآخرة ويشجّعنا على ترجيح كفة الآخرة وأن نكون من طلاب الآخرة وممن آمن وسعى لها سعيها. وأن تكون العاجلة<sup>(١)</sup> في أيدينا وليس في قلوبنا وأن نستغلّ وجودنا في الدّنيا لنزرع ما سنحصده في الآخرة.

(١) العاجلة: الحياة الدّنيا.

أما في هذا المثل الثاني فيركّز بعد التشبيه على قدرة الله في الإيجاد والإماتة ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾. والله هو الذي أوجدنا من العدم ثمّ يُميّتنا لينقلنا من دار العمل إلى دار الحساب والجزاء.

وهذا المثل إنّما ضُرب للمستكبرين من المشركين الذين استنكفوا<sup>(١)</sup> أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم مع فقراء المسلمين الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهة. فأنزل الله هذا المثل لهم ولفقراء المسلمين.

### ٣. والآن إلى المثل الثالث للحياة الدّنيا: قال الحقّ سبحانه:

﴿ اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج<sup>(٢)</sup> فتراه مُصْفَرّاً ثمّ يكون حُطاماً<sup>(٣)</sup> وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور ﴿ [الحديد ٢٠].

وهذا المثل كسابقه من ناحية تشبيه الحياة الدنيا بزرع يعجبك نباته ثم بغته يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حُطاماً. وهذا

(١) استنكفوا: ترفعوا واستكبروا.

(٢) يهيج النبات: يتوقّف نموّه ويبدأ في الشيخوخة.

(٣) حطاماً: يتحوّل إلى قشّ وتبن.

المثل ينقلنا بعد الحديث عن الدّنيا ومباهجها الزائلة إلى أرض الحساب ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع <sup>(١)</sup> ذلك يوم التغابن ﴾ [التغابن ٩].

فهناك عذاب شديد لمن استحبّ الدّنيا على الآخرة وعمل للدّنيا وأهمل الآخرة. وهناك مغفرة من الله ورضوان لمن عرف الطريق المستقيم واستقام عليه وآمن بالرُّسل واليوم الآخر. ويؤكّد في نهاية المثل ما بدأ به المثل وهو أنّ الحياة الدّنيا متاع الغرور ومملكة الشيطان ومسرح الأهواء والشهوات.

وذهب الفيّاض إلى أنّ "هذا المثل من سورة الحديد قد ضُرب للمؤمنين الذين آمنوا بعد فتح مكّة وظلّوا مشدودين إلى الحياة الدّنيا وما زيّن للنّاس فيها فعزّ عليهم أن يضعوا أموالهم وأنفسهم في خدمة هذا الدّين الذي اعتنقوه حديثاً. فأنزل الله المثل ليفكّ وثاقهم <sup>(٢)</sup> كي لا يحول حائل <sup>(٣)</sup> بينهم وبين الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فيكونوا كالسابقين المقرّبين". [الأمثال في القرآن الكريم ص ٢٤١]. [انتهى].

(١) يوم الجمع = يوم التغابن = يوم القيامة. والتغابن: معناه أن كلّ إنسان عند الحساب يشعر أنّه مغبون أي ظلم نفسه وكان بإمكانه أن يعمل أفضل مما عمل في الدّنيا ولكّنه فرط.

(٢) لفكّ وثاقهم: ليحرّرهم من الشكوك وتخويف الشيطان لهم.

(٣) كي لا يحول حائل: حتى لا تمنعهم أوهاهم ووساوس الشيطان من الجهاد.

ومن هذا يتّضح أنّ الأمثال الثلاثة لا يغني بعضها عن بعض. وأنها - وإنّ بدت متشابهة - فإنّ بينها من الاختلاف الذي وضّحناه ما هو أكثر ممّا بينهم من التّشابه الذي وضّحناه أيضاً.

والقرآن الكريم لم ينتقص من قيمة الحياة ذاتها في أيّ من هذه الأمثال ولا في غيرها من آياته. وإنّما انتقص من انشغال الإنسان فيها بما لا يعود عليه بأجل الثواب. أي أنّ الانتقاص حصل لمن يسيء ترتيب أولوياته.

وقد أريد بالمثل الأوّل أنّ واهب الحياة قادر على انتزاعها في كلّ حال. وقدرة الله على منح الحياة وسلّبها ليس ممّا ينتقص من شأن الحياة فالله على كلّ شيء قدير.

وأريد بالمثل الثاني أنّ الأموال والأولاد ليست مدعاة للتّعالي<sup>(١)</sup> والتفاخر والتفاضل وكذلك كلّ مُتّع الحياة لأنّ من يمتلكها اليوم قد يفقدها غداً. ومن افتقر إليها اليوم قد لا يفتقر إليها غداً. والأعمال الصّالحة خير منها وأبقى. فالحديث عن مُتّع الحياة لا عن الحياة ذاتها.

أمّا الثالث فيحصر الحياة في اللّهو واللّعب والزينة والتفاخر والتكاثر ولم يذكر شيئاً من الأعمال الصّالحة والفضائل. فالمراد

(١) ليست مدعاة للتّعالي: ليس سبباً للتكبر والغطرسة.



بالحياة في هذا المثل هي حياة العبث لا حياة الجدّ.

والحياة نعمة وهي مزرعة الأعمال الصّالحة وبها يميز الله الخبيث من الطيّب<sup>(١)</sup> والأخيار من الأشرار وأصحاب الجنّة من أصحاب النّار. فالحياة غير مذمومة بل المراد صرف هذه الحياة الدّنيا إلى طاعة الله وليس إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذلك هو المذموم.

---

(١) يميز الله الخبيث من الطيّب: يفصل بين هذا وذاك.

عمر الحياة الدنيا

١. يقول الحق سبحانه وتعالى:-

﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم  
قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ [يونس ٤٥].

٢. وقال سبحانه وتعالى:-

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا  
لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ [طه ١٣١].

٣. وقال تبارك وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل <sup>(١)</sup> ولا تستعجل لهم

كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ

فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ [الأحقاف ٣٥].

٤. وقال تعالى شأنه موجّهاً كلامه إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ۖ فيم أنت من

ذكرها ۖ إلى ربك منتهاها ۖ إنما أنت منذر من يخشاها ۖ

كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها ﴾

[النازعات ٤٢-٤٦].

(١) أولوا العزم من الرسل: خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه على رسله أجمعين.

ضرب الله هذا المثل لتقدير عمر الحياة الدّنيا وسرعة انقضائها وأنّ العاقل من استغلّ هذا الوقت الزهيد في عمل ما يرضي الله والبعد عمّا يُسَخِّطُ الله.

**الطّرف الأوّل (المشبهه):** عمر الحياة الدّنيا.

**الطّرف الثّاني (المشبهه به):** ساعة من نهار أو هي بعمر الزهرة.

**أدوات التشبيه:** "كأنّ" مثبتة "وكأنّ لمّ" منفيّة.

**وجه الشّبه:** الدّنيا ما هي إلّا متاع الغرور. زينة وزهرة تعجبك فترة ثم سرعان ما تجفّ بعد النماء والنضرة ثم تتكسّر وتتفتّت وكأنّ لم تكن. فهي حقيرة قليلة قصيرة فانية والآخرة خير وأبقى. فمن جعل الدّنيا مزرعة للآخرة وأجاد الرّزق حصد وربح. ومن تواني وغفل وكسّل ندم حين لا ينفع الندم.

قال سعيد بن جبير: "الدّنيا متاع الغرور إنّ ألّهتّك عن طلب الآخرة. فأما إذا دعّتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة." [انتهى].

والدّنيا وصفها الله بأنّها ساعة وهي في حقيقتها فترة اختبار وابتلاء. فجدير بكلّ عاقل أن يجعلها ساعة طاعة لتكون وسيلة لسعادة الآخرة دار القرار. ﴿ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا تُرجعون ﴾ [الأنبياء ٣٥]. ولما وصفها الله بأنّها ساعة من نهار

عرفنا أنّ النهار يكون للعمل وليس للكسل وبدأنا نتساءل ياترى أيّ ساعة هي من النهار؟

أخرج الإمام البخاري هذا الحديث القدسيّ العظيم:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنّه أخبره أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. أوتيّ أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً<sup>(١)</sup>. ثم أوتيّ أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً. ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين. فقال أهل الكتابين: <sup>(٢)</sup> أي ربّنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنّا أكثر عملاً<sup>(٣)</sup>! قال: قال الله عزّ وجلّ: "هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا لا. قال: فهو فضلي أوتيه من أشياء"<sup>(٤)</sup>.

إذن فنحن بدأنا العمل من بعد صلاة العصر وحتى غروب شمس الدّنيا وقد أوشكت على الغروب. وصدق الله إذ يصفها

(١) قيراطاً قيراطاً: نصيباً. وكانت العرب إذا أرادت تقسيم شيء بالتساوي على مجموعة من

النّاس يكرّروا الكلمة كأن يقال اقسام هذا المبلغ على الجماعة درهماً درهماً.

(٢) أهل الكتابين: أهل التوراة وأهل الإنجيل أي اليهود والنصارى.

(٣) كنّا أكثر عملاً: ربّما يقصد مجموع الطائفتين معاً أو ربّما قائل هذه العبارة هم اليهود.

(٤) فضلي أوتيه من أشياء: دلّ على أنّ الثواب من الله هو على سبيل الإحسان منه جلّ جلاله.

بأنها ﴿ ساعة من نهار ﴾. فما أقلّ العمل المطلوب منا وما أعظم الأجر الذي ينتظرنا. وإنّما جعل أجر المسلمين على عملهم قيراطين قيراطين لبركة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولأنّ المسلمين لم يعجزوا كما عجز الذين من قبلهم بل هم مستمرّون في العمل وإلى زيادة. ومن آمن من اليهود والنصارى برسوله ثم بسيدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم ودخل الإسلام فله أجران أو قيراطان لأنّه واصل العمل مع المسلمين ولم يعجز. كما أنّ فضل الله ذهب إلى المسلمين لأنّهم هم الذين أتمّوا العمل وإنّما الأعمال بخواتيمها. فكان المسلمون هم ختام المسك بين الأمم وكان فضل الله علينا عظيماً.

فالدنيا لها بداية. وكلّ ما له بداية له نهاية. والدنيا لم تبق لمن سبقونا وهي لن تبقى لنا. إذ الله سبحانه هو الباقي وهو الوارث وكلّ ما عداه هالك فاني.

وهي كما يصفها البلغاء: الدنيا أولها عناء وأوسطها شقاء وآخرها فناء. حلالها حساب وحرامها عقاب.

وإنّ العاقل البصير هو من يتزوّد من الدنيا لآخرتة ويأخذ من نفسه لنفسه ويتزوّد من يومه لغده ومن صحّته لمرضه ومن غناه لفقره ومن قوّته وشبابه لأيام ضعفه وكهولته ويجعل وجهته إلى الدائم الباقي سبحانه. إذ اللذات قصيرة وفانية وأوزارها وتبعاتها

باقية. والله وعد عباده المؤمنين الصالحين النعيم المقيم في الآخرة  
دار القرار دار السلام.

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا  
عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مَصْدَاقُ ذَلِكَ فِي  
كِتَابِ اللهِ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيُنٌ جَزَاءً بِمَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾". [السجدة ١٧].

وهكذا تطابق المشبه به على المشبه تطابقاً عجيباً يوحي  
بصدق التمثيل وحُسن العبارة وروعة المثل. فكان هذا المثل موكباً  
إيمانياً عظيماً يُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُطَامِ دُنْيَا الْمُحْنِ وَالْآلَامِ إِلَى  
جَنَّاتٍ وَقُصُورٍ دَارِ السَّلَامِ.

فطوبى<sup>(١)</sup> لمن جعل دنياه طريقاً للآخرة وكدّ الدنيا مطيةً  
لبلوغ نعيم الآخرة<sup>(٢)</sup> وكانت دنياه عوناً له على تحقيق ما خُلق  
من أجله فَتَنِعَمَ بِطَيْبِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا وَفَازَ بِرِضَا اللهِ فِي الْآخِرَةِ.

(١) طوبى: هنيئاً.

(٢) وكدّ الدنيا مطيةً لبلوغ نعيم الآخرة: جعل شقاء الدنيا وتعبها وسيلة لبلوغ نعيم الآخرة.

الأشقياء .... والسُّعداء

قال الحقّ سبحانه في فريق الأشقياء:

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿ الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أولئك لم يكونوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> وما كان لهم من دون الله من أولياء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ لا جرم <sup>(٢)</sup> أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ﴿ [هود ١٨ - ٢٢].

وقال الحقّ سبحانه في فريق السُّعداء:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ <sup>(٣)</sup> أولئك أصحاب الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والسميع والبصير هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾ [هود ٢٣ - ٢٤].

ضرب الله هذا المثل المكيّ لفريقي الكفّار والمؤمنين. وفيه

(١) معجزين في الأرض: لم يكونوا ممتنعين من العذاب.

(٢) لا جرم: لا غرابة ولا عجب.

(٣) وأخبتوا إلى ربّهم: شعارهم والسمع والطاعة لأوامر ونواهي ربّهم، وهم المطيعون لأوامر ربّهم.

فضح الله حال المُفْتَرِّين عليه كذباً وخزيهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق. عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ<sup>(١)</sup> فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ<sup>(٢)</sup> وَيَسْتَرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى (العبدُ) فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ ﴿ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾. [أخرجه البخاري ومسلم وأحمد].

فالظَّالِمُونَ يَصِدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَيُرِيدُونَ طَرِيقَهُمْ مَلْتَوِيَةً عِوَجًا عِوَجًا يَجْحَدُونَ بِالْبَعْثِ وَيَكْذِبُونَ بِالْآخِرَةِ. هَؤُلَاءِ الْجَاهِدُونَ الْمُلْحِدُونَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا بِمَنَاءٍ عَنِ الْعَذَابِ<sup>(٣)</sup> بَلْ كَانُوا فِي قَبْضَةِ الْجَبَّارِ سُبْحَانَهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَحْتَ غَلْبَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَهُوَ قَادِرٌ سُبْحَانَهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَلَكِنْ ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾.

(١) يُدْنِي الْمُؤْمِنَ: يَقْرِبُهُ.

(٢) فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ: يَسْتَرُهُ مِنَ النَّاسِ لِتَكُونَ الْمَنَاجَاةَ سَرِيَّةً.

(٣) وَمَا كَانُوا بِمَنَاءٍ عَنِ الْعَذَابِ: لَمْ يَكُونُوا بِعِيدِينَ وَلَا مَمْتَنِينَ مِنَ الْعَذَابِ.



وفي الصّحيحين: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ"<sup>(١)</sup> حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ".  
 [رواه أبو موسى الأشعريّ]. ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَي يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ. فَقَدْ كَانُوا صُفْمًا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ عُمِيًّا عَنْ اتِّبَاعِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ حِينَ دَخَلَهُمُ النَّارُ. ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك ١٠]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هُمُ الْخَسِرُونَ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ اسْتَبَدَّلُوا نَعِيمَ الْجَنَّةِ بِحَمِيمٍ آن<sup>(٢)</sup>. وَالْحُورُ الْعِينُ بِطَعَامٍ مِنْ غَسْلِينَ<sup>(٣)</sup> وَالْقُصُورُ الْعَالِيَةُ بِالْهَآوِيَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

بعد أن ذكر الله حال الأشقياء انتقل سبحانه إلى المعسكر الآخر لذكر حال السعداء. وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأسلموا أنفسهم لله واطمأنوا إلى وعد الله وصدّقوا وعيد الله وأيقنوا ببقاء الله وشعارهم "سمعنا وأطعنا - ربنا وإليك المصير". وبهذا ورثوا الجنات ذوات الغرف المبنيات العاليات والقطوف الدانيات والظلال الوارفات والحسان الخيرات والفواكه المتنوعات

(١) لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ: يُؤَخِّرُ عِقَابَهُ وَيَمُدُّ لَهُ فِي الْوَقْتِ لِيَزِدَادَ إِجْرَامًا.

(٢) حَمِيمٍ آن: مَاءٌ بَلَغَتْ حَرَارَتُهُ أَقْصَاهَا.

(٣) طَعَامٍ مِنْ غَسْلِينَ: مَا يَتَجَمَّعُ مِنْ قُرُوحِ الْمَعْدِنِينَ فِي جَهَنَّمَ.

والحياة الرغيدة بلا سقم ولا ممات<sup>(١)</sup> والنظر إلى خالق الأرض  
والسماوات.

وبهذا يكون الطرف الأول (المشبهه): الكافر الشقي / والمؤمن  
السعيد.

والطرف الثاني (المشبهه به): الأعمى والأصم / والبصير والسميع.

أدوات التشبيهه: كلمة مثل وحرف الكاف في كلمة "كالأعمى".  
وجه الشبهه: هنا ينطبق المشبهه به على المشبهه انطباقاً تاماً.  
فَيُعْطِينَا صُورَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ لِفَرِيقَيْنِ لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا. فريق أعمى لا  
يهتدي إلى خير ولا يعرف الخير فلا يرى آيات الله وإبداعه في كونه  
ولا يرى آياته في كتبه المنزلة. أصم عن سماع الحجج فلا يسمع  
هدياً ولا نُصْحاً ولا ما يَنْتَفِعُ به في دنياه وآخرته. فريق كالأنعام ولا  
نبالغ إن قُلْنَا: بل هو أضلّ من الأنعام.

وفريق على النقيض من ذلك فطن ذكيّ يميّز بين الحقّ  
والباطل. يتّبع الحقّ ويعمل الخير ويتجنّب الباطل ويرفض الشرّ.  
سَمَاعٌ لِلْحُجَجِ. لَا يُرَوِّجُ عَلَيْهِ باطل. مستقيم في مشيته مستقيم في  
أقواله وأفعاله وفيما يأخذ وفيما يذر<sup>(٢)</sup>. يعيش دنياه ويعمل  
لآخرته.

(١) بلا سقم ولا ممات: ليس في الجنة مرض ولا شيخوخة ولا موت.

(٢) فيما يذر: فيما يترك من محرّمات.

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ لا يارب لا يستويان أبداً. كيف يستوي الكافر والمؤمن؟ كيف يستوي الأشقياء والسعداء؟ كيف يستوي الأعمى والبصير؟ كيف تستوي الظلمات والنور؟ كيف يستوي الأحياء وأصحاب القبور؟ كيف يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة؟

هل يستوي من كان قلبه أعمى عن رؤية الحق وسمعه أصم عن سماع الحق هل يستوي مع مَنْ هو مقيم على توحيد الله والبراءة من الشرك والأنداد؟

لقد تضمّن المثل قياسين وتمثيلين للفريقين ثم نفى سبحانه إمكانية التسوية عن الفريقين. هذا التضادّ في الصفات والاتجاهات زاد الصورتين وضوحاً وعمقاً وفهماً وزاد المثل جمالاً.

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: "تَحَاجَّتْ<sup>(١)</sup> النَّارُ وَالْجَنَّةُ فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْثَرْتُ<sup>(٢)</sup> بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا بَالِي لَا يَدْخُلَنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعَجْزُهُمْ<sup>(٣)</sup>؟ فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَسَاءَ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مَنْ أَسَاءَ مِنْ

(١) تَحَاجَّتْ: تَفَاخَرَتْ.

(٢) أَوْثَرْتُ: نَصَبِي مِنَ النَّاسِ.

(٣) وَسَقَطُهُمْ وَعَجْزُهُمْ: ضَعْفَاؤُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ وَهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. أَمَّا الْعَارِفُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ وَالصَّالِحُونَ الْمُتَعَبِّدُونَ فَهُمْ قَلِيلُونَ وَهُمْ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ.

عبادي. ولكلّ واحدة منكم ملؤها. فأما النّار فلا تمتلئ فيضع  
قدمه عليها فتقول: قَطَّ قَطَّ<sup>(١)</sup> فهناك تمتلئ ويُزوي بعضها إلى  
بعض<sup>(٢)</sup>..

---

(١) قَطَّ قَطَّ: هذا حسبي ويكفيني.  
(٢) يُزوي بعضها إلى بعض: تلمّ أطرافها إلى بعضها وتكتفي بمن فيها فلا مزيد.

كَمَعْتَوْهٖ يَبْسُطُ كَفِّهٖ إِلَى الْمَاءِ

قال الحق سبحانه:-

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ <sup>(١)</sup> وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [الرعد ١٤].

هذا مثل مدني في غاية الجمال ومنتهى الوضوح. وكأنا نشاهد منظرًا حيًا متحرّكًا بالألوان يمرّ أمام أعيننا.

ونبدأ بشرح الجملة من الآية التي تتقدّم المثل ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾: فالضمير ﴿ لَهُ ﴾ عائد إلى لفظ الجلالة سبحانه فهو الحقّ وكلامه الحقّ وآياته الحقّ وأمثاله الحقّ ووعدّه الحقّ وله دعوة الحقّ. إليه تتّجه القلوب وإليه تُرْفَعُ الأيادي والأكفّ بالدعاء والصّراعة. فلا إله غيره ولا ربّ سواه. إليه يصعد الكلم الطيب وهو الذي يسمع الدعاء ولو كان خفيًا ويعلم ما في الصدور. وهو الذي يستجيب للمؤمنين المُخْلِصِينَ في دعائهم فيفرّج الهموم ويكشف الكربات وينجّي المصّطر ويهدي الحيران ويرزق من يشاء وينصر من يشاء ويحقّ الحقّ بكلماته ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون.

(١) له دعوة الحقّ: له كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة ١٨٦].

فمن دعا إلى الله فهو على حقّ ويدعو إلى الحقّ وتوحيد الله ويُثاب على ذلك. ومن دعا إلى غير الله فهو يصدّ عن سبيل الله ودَعْوَتُهُ عَيْنُ الباطل وهو طاغوت من طاوغيت الأرض وويلٌ له يوم الحساب.

﴿ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۖ لَا جَرِمٌ <sup>(١)</sup> أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ <sup>(٢)</sup> فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ <sup>(٣)</sup> وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ <sup>(٤)</sup> هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر ٤١ - ٤٣].

والآن وصلنا إلى المثل:

**الطَّرْفُ الْأَوَّلُ (المشبه): الضَّالُّونَ وَالْكَفَّارَ وَالْمَشْرُكُونَ**

(١) لا جرم: حقاً - بالتأكيد - لا محالة.

(٢) ليس له دعوة: ليس له دعوة مقبولة أو مستجابة.

(٣) مرَدَّنَا إلى الله: رجوعنا بعد الموت والبعث إليه سبحانه للجزاء.

(٤) المسرفين: من تحمّل ذنوباً ومعاصي كثيرة لم يتب منها. ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّهُ هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر ٥٣].

والمستهزئون<sup>(١)</sup> والملحدون<sup>(٢)</sup> والغافلون والمُشغَوذون  
 والمَعْتوهون<sup>(٣)</sup> الذين يدعون من دون الله شمساً أو قمراً أو حجراً  
 أو بشراً أو شيطاناً أو ميّناً في قبره أو سلطاناً أو شريكاً أو ابناً أو كاهناً  
 أو عِرافاً أو نذياً أو وليّاً أو صنماً أو شجراً أو غير ذلك ممّا لم ينزل الله  
 به سلطاناً. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ  
 الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت ٤٢].

**الطَّرْفُ الثَّانِي (المشبه به):** هؤلاء جميعاً لهم مثل واحد. مثلهم  
 كمثل معتوه فقد عقله وحواسه يكاد يقتله الظماً يقف بجوار الماء  
 ثم يبسط يديه ويلوّح للماء ويرجوه أن يصعد من مكانه إلى فمه  
 ليروي عطشه.

**أداة التشبيه:** حرف الكاف في كلمة "كباسط".

**وجه الشبه:** كلاهما معتوه لا عقل له ولا فهم له ولا فقه عنده.  
 فهو يطلب ممّن لا يملك أن يُعْطِيَهُ. ويطلب ممّن لا يسمع أن  
 يسارع لنجدته. ويطلب ممّن لا يبصر أن يرى مكانه!! ﴿ ... والذين  
 تدعون من دونه ما يملكون من قطمير<sup>(٤)</sup> ﴾ إن تدعوهم لا

(١) المستهزئون: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴿ [الحجر ٩٥ - ٩٦].

(٢) الملحدون: الذين ينكرون وجود أيّ آلهة في الكون.

(٣) المَعْتوهون: المجانين - كلّ من لا يعقل وكلّ من لا يستعمل عقله بالشكل الصّحيح.

(٤) قطمير: اللّفاة الرقيقة الشّفاة تكون حول نواة التمر.

يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون  
بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ ﴿ [فاطر ١٣ - ١٤].

لقد تكررت في المثل كلمة "دعوة" و "يدعون" و "دعاء". فما  
معنى الدعاء؟ يقول الأستاذ طاحون: "الدعاء هو تفويض الأمر إلى  
صاحب الأمر ولجوءٌ إليه سبحانه وتعالى في كشف الشدائد ونيل  
الرغائب<sup>(١)</sup>. والدعاء صلةٌ بين العبد والمنعم الوهاب المتفرد  
بالعظمة والجلال السميع المجيب علام الغيوب. والدعاء توجهٌ  
إلى الربِّ القادر واستعانةٌ بالمولى العزيز واستغاثةٌ بالرحمن الرحيم  
وابتهالٌ من المخلوق الضعيف إلى الخالق القويِّ الكريم".  
[انتهى].

إنَّ كلَّ من يدعو من دون الله أو يعبد من دون الله أو يرجو شيئاً  
أو شخصاً من دون الله أو يتخذ إلهاً من دون الله أو يتوجه إلى غير  
الله أو يشرك شيئاً أو شخصاً مع الله أو يتوكل على عباد الله أو على  
الأسباب. كلَّ هؤلاء وهؤلاء وأولئك ضرب الله مثلاً واحداً  
بليغاً.

أولئك شبَّههم الله بمعتوهٍ لا يعي ما يفعل<sup>(٢)</sup>. له قلب لا يفقه  
به قد جفَّ حلقه من العطش وبلغ الظمأ منه كلَّ مبلغ يقف إلى

(١) نيل الرغائب: الحصول على المستحبات.

(٢) بمعتوه لا يعي ما يفعل: كمجنون لا يعقل ما يفعل.



جوار الماء ويمدّ يديه إليه طالباً من الماء أن يصعد إليه ويدخل في فمه ليروي ظمأه. ولو تمّ تصوير مثل هذا المجنون بالكاميرا والألوان لحصلنا على مشهد كوميدوي يثير الضحك فريد من نوعه. فأين عقل هذا الشخص؟ ألا يفهم أنّ الماء جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يملك من أمر نفسه شيئاً؟ ولو استمرّ هذا الشخص على هذه الحال لقتله الظمأ. ولو استمرّ هذا الشخص على هذه الحال إلى يوم القيامة ما استجاب له الماء. ألا يُعْتَبَر بهذا المثل كلّ من يدعو من دون الله ويفهم أنّه لن يُسْتَجاب له إلى يوم القيامة؟!

وقد فسّر سيّدنا عليّ رضي الله عنه الماء في هذا المثل بالبئر وفسّر المثل كعطشان يقف على حافة البئر يمدّ يده إلى الماء ليصعد إليه ويروي عطشه دون حبل ولا دَلْو ولا جهد. فلا الرجل يبلغ الماء في قاع البئر ولا الماء يرتفع إليه.

﴿ واتّخذوا من دون الله آلهة لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلِقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نُشوراً<sup>(١)</sup> ﴾ [الفرقان ٣].

إنّ الدعاء معتبر بصحّة القصد وإجابته مرجوة بالإخلاص وسلامة الإيمان. فمن تعرّى عن الإيمان وكفر بالألوهيّة فمن

(١) نُشوراً: بعثاً وحياة بعد الموت.

يدعو؟ وأنى يُستجاب له؟

لقد لخص الله القضية وفسر المثل وفصل معناه في آيتين من سورة الأحقاف: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَاهُمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف ٥ - ٦]. ﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون له بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه﴾:

هنا علق الله سبحانه استجابة الآلهة المزعومة لدعاء الكافرين باستجابة الماء للمعتوه الذي بسط يديه للماء كي يصعد إليه وَيُغِيْثُهُ<sup>(١)</sup>. ثم تأتي كلمة الفصل في الأمر ﴿ وما هو ببالغ﴾: وهذا تعليق مستحيل على مستحيل. ولن يتحقق أحدهما وبالتالي فلن يتحقق الآخر. والخلاصة ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾. فدعاؤهم هباءً في فضاء ونفخاً في قربة مثقوبة. وهذا هو الضلال البعيد. وهذا هو الغباء المبين.

(١) وَيُغِيْثُهُ: يروي عطشه.

## من سورة الرعد (٢٢)

مثلا المؤمنين في سورة الرعد

قال الحق سبحانه:-

﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً<sup>(١)</sup> رابياً<sup>(٢)</sup> ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء<sup>(٣)</sup> وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [الرعد ١٧].

هذان مثالان ضربهما الله للحق والباطل في آية واحدة. مثل مائي يشاهده أهل الأرياف والزراعة. ومثل ناري يشاهده أهل المدن وأرباب الصناعة وَمَنْ يَصْهَرُونَ المعادن في الأفران والمصانع.

ونبدأ بما بدأ الله به: **المثل الأول: المثل المائي:**

**الطرف الأول (المشبه):** القرآن الذي يحوي الحق والإيمان ينزل به الوحي من السماء يكون صافياً رَقِراً غَضّاً لا كَدَرَ فيه فيستقبله الكفار والمشركون والمنافقون بأهوائهم وجهلهم وبتدعهم وما كانوا

(١) زبداً: ما يحمل السيل من قش وأكياس بلاستيك ورغاوي تكون فوق الماء. وقد يكون حَبْتاً يطفو فوق المعادن عند صهرها.

(٢) رابياً: منتفخاً كالفقاعات.

(٣) جُفَاء: مطروحاً ومهملاً ومزمتياً في جوانب الوادي.

يعبدون وآباؤهم من ضلال فيكُونون طبقة من الشك والأوهام قد  
تعلو فوق الحق والإيمان لبعض الوقت.

**الطَّرْف الثاني (المشبه به):** ماء المطر ينزل من السماء صافياً نقيّاً  
رقيقاً لا شوائب فيه فتسيل أودية بقدرها كلِّ وادٍ حسب عَرْضه  
واتساعه. فيحمل السَّيْل أثناء سيره من القشِّ وقطع الخشب  
والفلين وأكياس البلاستيك والزَّبد ما يطفو على سطح الماء لبعض  
الوقت.

**وجه الشبه:** شبه القرآن الذي يحوي الحقَّ والإيمان والوحي  
بالماء النازل من السماء في صفائه ونقاؤه وحاجة النَّاس إليه. وشبهه  
ما يختلط بالحقَّ والإيمان على الأرض من بدعٍ وشكوكٍ وأوهام  
وضلالات بالزَّبد الذي يطفو ويعلو فوق السَّيْل. ثمَّ شبهه الإيمان  
يملأ قلوب المؤمنين من عباد الله الأتقياء كما الماء يملأ أوديتهم  
ومزارعهم ويسقي مواشيهم فهم في حاجة ماسّة لكليهما فهما حقّ  
ثابت ومنفعة للنَّاس في الأرض وفي قلوب المؤمنين. وأمَّا البدع  
والضلال والزَّبد وكلِّ ما يطفو فوق الماء وفوق الإيمان فمصيره  
الزوال حتماً لأنَّه باطل مُضْمَجِلٌ<sup>(١)</sup> لا ثبات له ولا خير فيه ولا  
جذر له ولا فرع له ولا يُنتفع به.

(١) مُضْمَجِلٌ: زائل لا بقاء له.

﴿ فسالت أُوْدِيَّةٌ بِقَدْرِهَا ﴾: أي يأخذ كلَّ وادٍ من الماء بحسب اتّساعه وهي إشارة إلى قلوب العباد فمنها ما يسع علماً كثيراً ومنها من لا يتّسع لكثير من العلوم.

### المثل الثاني: المثل الناري:

**الطَّرْف الأوَّل (المشبهه):** هو القرآن المحتوي على الحقّ والإيمان صافياً نقياً رقيقاً نازلاً به الوحي من السماء كما في المثل الأوَّل.

**الطَّرْف الثاني: (المشبهه به):** المعادن الكريمة كالذهب والفضّة التي يصهرها الصّاعغة لعمل الحليّ للنساء أو المعادن الأخرى المنصهرة في الأفران والمصانع لعمل الأدوات المنزليّة من سكين وسيف وفأس ومحراث أو أدوات الطبخ من ألومنيوم ونحاس أو ما يلزم للصناعات المدنيّة والعسكريّة من سيارات ومدرّعات وصواريخ وطائرات من الحديد والصّلب.

**وجه الشّبه:** شبّه الحقّ والإيمان والعلم والهُدى والوحي النازل من السماء كمعدن منصهر في نقائه وصفائه ونفعه للنّاس. ثمّ شبّه ما يختلط بالحقّ على الأرض من بدع وأهواء وشكوك وضلالات بالزّبذ والخبث الذي يعلو فوق المعدن المنصهر. ثمّ شبّه الإيمان في قلوب المؤمنين كما المعادن والحليّ والأدوات تملأ بيوتهم ومطابخهم ومزارعهم فكلاهما فيه نفع للنّاس. وأمّا الضلالات والشّهوات والبدع والشُّبّهات والنظريّات الوضعيّة والأفكار

السوداوية المسمومة<sup>(١)</sup> فهي كزبد وَخَبَثُ المعادن إلى اضمحلال وزوال. فالزبد في كلِّ الحالات يذهب جُفَاءً وَيُطْرَحُ به في جوانب الأرض ليتفرَّق ويتلاشى<sup>(٢)</sup> ويزول. وأمَّا ما ينفع النَّاسَ فيمكث في الأرض وفي جذر قلوب المؤمنين.

فالزبد في المثاليين ليس عنصراً من الماء ولا من المعدن. إنّما هو رغبة طارئة وظاهرة عارضة من غازات منتفخة كما "الريم"<sup>(٣)</sup> يكون فوق قدر اللحم وهو يُطهى على النار. فهو طبقة هباء لا أصل له يطرحه السيل بعيداً أو تطرحه النار وتفصله عن المعدن. قال الشيخ كشك: "كذلك شأن الباطل بإزاء الحقّ. فالحقّ جوهر الأصالة لكلِّ شيء في الوجود. والباطل لا أصالة له ولا وجود له. فهو ظاهرة من الوهمِ وغرورِ الأهواء". [الأمثال عن النبيّ المختار من الكتاب والسنة ص ٣٤]. [انتهى].

قال القرطبي: "ضرب الله المثليين للحقّ في ثباته وللباطل في اضمحلاله<sup>(٤)</sup> وإن علا الباطل في بعض الأحيان إلاّ أنّه يضمحلّ كاضمحلال الزبد والخَبَثُ". [انتهى].

(١) والأفكار السوداوية المسمومة: ما تخوّف به الشياطين أولياءها ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

يخوّف أولياءه ﴾ [آل عمران ١٧٥] كأن يوحى إليك بقتل نفسك لأنّ ذنوبك متراكمة..

(٢) يتلاشى: يختفي.

(٣) "الريم": كلمة عامية متداولة تعني ما يكون فوق قدر اللحم على النار من طبقة غير

مرغوب فيها يكشطها الطباخ ويزيلها من الطبخ.

(٤) اضمحلاله: ضعفه وتفكّكه وزواله.

﴿ كذلك يضرب الله الحقّ والباطل ﴾: كذلك يضرب الله الأمثال للحقّ والباطل ليبيّن أنّ الحقّ لا يسكن مع الباطل. فالهُدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والبدع والشبهات ليقتلها ويزيلها. ويبقى في القلب الإيمان الخالص والعلم النافع الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره فيكون مأواه الجنّة. ﴿ ليميز<sup>(١)</sup> الله الخبيث من الطيّب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيزكّمه جميعاً<sup>(٢)</sup> فيجعله في جهنّم أولئك هم الخاسرون ﴾ [الأنفال ٣٧].

قال ابن عباس: "هذا مثل ضربه الله لقلوب العباد على قدر يقينها وشكّها. فأما الشك فلا ينفع معه العمل. وأما اليقين فينفع الله به أهله." [انتهى].

قال ابن القيم: "من لم يفقه هذين المثليّن ولم يتدبّرهما ولم يعرف ما يُراد منهما فليس من أهلها."<sup>(٣)</sup> [انتهى].

ويبقى سؤال أخير: لماذا ضرب الله للمنافقين مثليّن في آيتين وللكافرين مثليّن في آيتين وللمؤمنين مثليّن في آية واحدة؟

(١) ليميز: ليفصل الخبيث عن الطيّب.

(٢) فيزكّمه جميعاً: يطرحه بجميع أنواعه وأشكاله في جهنّم.

(٣) فليس من أهلها: من لم يتدبّر مثليّ المؤمنين فليس من المؤمنين.

والجواب كما أفهمه أنّ التّفاق أنواع: فهناك منافق العقيدة وهناك منافق القول وهناك منافق العمل والمعاملات. وكذلك الكافرين أنواع: فهناك الكافر وهناك المشرك وهناك المُلْحِدُ والظالم. أمّا المؤمنون فهم أمة واحدة لا أصناف في الإيمان ولا أنواع. ولكن في الإيمان درجات: فهذا ظالم لنفسه وهذا مقتصد وذلك سابق بالخيرات بإذن الله وجميعهم في الجنّة وإن تمايزت الدرجات. (١)

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء ٩٢].  
ولو تمعّنت في مثليّ المؤمنين لو جدتّهما مكوّنين من عنصريّن: شيء نافع وهو الماء الذي تعتمد عليه الحياة وفوقه زبد لا نفع فيه. وشيء نافع وهو المعادن المنصهرة وهذا تعتمد عليه الحياة في الدنيا من زراعة وحلّي وتصنيع وفوقها زبد لا نفع فيه. ثمّ يضرب الله الحقّ والباطل فلا يجتمعان معاً فيذهب الزبد جُفاءً ويتبدّد مع الشمس والهواء ويمكن ما ينفع النّاس في الأرض وفي قلوب المؤمنين. وهذا سرّ من أسرار المثل ينفع الله به من يشاء. ويضرب الله الأمثال للنّاس وما يعقلها إلاّ العالمون.

(١) تمايزت الدرجات: تفاضلت فكان بعضها أفضل من بعض.



الجنة أكلها دائم وظلها

قال الحق سبحانه:-

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ

وظللها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ [الرعد ٣٥].

هذا مثل مكيّ يصوّر الله فيه جنّة الآخرة. هذا المثل به

محذوف في الشق الثاني (المشبه به) تقديره "جنّة الدنيا". ففي

الوقت الذي لا تنصرف عنه الأذهان إلى مثل آخر كان حذف

المشبه به وهو "جنّة الدنيا" أبلغ من ذكره. هذا المحذوف في

المشبه به دفع كثيراً من الباحثين وعلى رأسهم ابن القيم أن يعتبروا

الآية مجرد وصف للجنّة وليست مثلاً ومن تنبّه للمحذوف من

الباحثين لم يتمكّن من تخمينه.

وبذلك يكون طرفا التشبيه كالآتي:

الطرف الأول (المشبه به): جنّة الآخرة التي وُعدَ المتّقون.

الطرف الثاني: (المشبه به): جنّة في الدنيا.

أداة التشبيه: كلمة مثل.

وجه الشبه: كلاهما تُسمّى "جنّة" مع التأكيد على ما بين الجنّتين

من فرق وتمايز وَبَوْنٍ شاسع.<sup>(١)</sup> والمثل يؤكد على هذا التمايز بأن يذكره وهو هنا ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾. وهذا بالتأكيد لن يتوقّر في جنّة الدنيا. ففاكهة الدنيا موسميّة كلّ نوع يتوقّر في موسم معيّن ثم يحصل انقطاع حتى يعود نفس الموسم من العام الذي بعده. ولوجود حركة الشمس في السماء وتعاقب الليل والنهار فيستحيل دوام الظل. هذه الميزات هي من خصائص جنّة الآخرة حصراً.

ولمّا كانت جنّة الآخرة لا شبيه لها ولا مثل فكيف يقرب الله صورتها لعباده المؤمنين ليشتاقوا إليها وليعملوا ما يجعلهم مُسْتَحِقِّين للخلود فيها؟ والجواب أنّ المَخْرَجَ الوحيد هو تشبيهها بجنّة من جنّات الدنيا فهناك تشابه على الأقلّ في الاسم. والناس في الدنيا لا يعرفون إلاّ جنّة الدنيا. ثم يأتي المثل بتقرير لما تتميز به جنّة الآخرة التي بها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقول ابن عباس: "ليس في الدنيا من جنّة الآخرة إلاّ الأسماء." [انتهى].

فيصبح المثل كالآتي: "مثل الجنّة التي وُعد المتّقون كمثل جنّة في الدنيا تجرى من تحتها الأنهار أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ...".

وتشبيه جنّة الآخرة بجنّة الدنيا إنّما يشهد ببراعة القرآن الكريم

(١) وبوْنٍ شاسع: اختلاف كبير.

في التقاط ما يماثل الأشياء التي يريد تمثيلها. ولو أجهد الإنسان نفسه وبذل كل ما في وسعه لكي يجد بديلاً عما مثل به القرآن الجنّة لما وسعه ذلك. المثل استخدم "جنّة الدنيا" كإطار للصورة ثم جعل محتويات الصورة من "جنّة الآخرة".

لم يذكر المثل مسألة الخلود في الجنّة بطريقة مباشرة. بل استعاض عنها<sup>(١)</sup> بكلمة ﴿ دائم ﴾. فأكلها دائم وظلّها دائم. هذا الدوام جعل للمثل صدىً مقبولاً<sup>(٢)</sup> في نفوس المؤمنين. فتشيع الطمأنينة<sup>(٣)</sup> وتهدأ النفوس عند سماع المثل فلا موت يقطع عليهم حياتهم كما في الدنيا. فإنّ دوام الأكل والظلّ يعني دوام الجنّة. ودوام الجنّة يعني دوام المُستمتع بالجنّة. لأنّ الجنّة ما وُجدت إلا لتكون جزاء للإنسان على ما قدّم من صالح الأعمال في دار الدنيا.

هذا هو ثواب الأبرار المتّقين. جنّة تجري من تحتها الأنهار سارحة في أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يصرفونها<sup>(٤)</sup> كيف شاءوا وأين شاءوا. فيها الفواكه والمطاعم والمشرب لا انقطاع ولا فناء. ثمارها دائمة كلّما تناوَلت فاكهة من على الشجرة تنبت غيرها

(١) استعاض عنها: بدلاً من مسألة "الخلود" استخدم مصطلح "الدوام".

(٢) صدىً مقبولاً: وقعاً جميلاً.

(٣) تشيع الطمأنينة: يسود البشر والسرور.

(٤) يصرفونها: يحولون مجراها ويوجهونها.

بدلاً منها في نفس اللحظة. ظلّها دائم. فيها شجرة تدعى "طوبى"  
يسير الراكب المُجِدِّ في ظلّها مائة سنة لا يقطعها ولا ينحسر  
ظلّها<sup>(١)</sup>. فيها الحور العين قاصرات الطرف<sup>(٢)</sup> بَكْرٌ<sup>(٣)</sup> عُرْبٌ<sup>(٤)</sup>  
أترابٌ<sup>(٥)</sup> كأنهنّ الياقوت والمرجان. أينما ذهب بصرك فأنت في  
نعيم مقيم. ذلك هو الفوز العظيم. تلك عقبى المؤمنين المتّقين.  
عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:  
"والذي نفس محمّد بيده إنّ الرجل من أهل الجنّة ليُعْطَى قوّة  
مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشّهوة. أمّا حاجة أحدهم  
فتكون رَشْحاً يفيض من جلودهم<sup>(٦)</sup> كريح المسك فيضمر بطنه".  
[أخرجه الإمام أحمد وابن حبان والنسائي والطبراني وصحّحه  
الألباني وغيره].

وما دمنا نتجوّل في رياض الجنّة ففيم العجلة؟ فلنطوّف  
ونطوّف ونمتّع الأسماع والأبصار والأفئدة عسى الله أن  
يجعلنا وآباءنا وأمّهاتنا وجميع المسلمين من أهل الجنّة.  
ها هي باقية من أقوال الصّادق المصدوق الذى رأى الجنّة رأى

(١) لا ينحسر ظلّها: لا ينتهى ولا يتقلّص.

(٢) قاصرات الطرف: لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

(٣) بكر: كلّما جامعها زوجها عادت بكرًا.

(٤) عُرْبٌ: عاشقات لأزواجهنّ.

(٥) أترابٌ: الرجال والنساء في نفس السن ٣٣ سنة.

(٦) رشحاً يفيض من جلودهم: لا يوجد في الجنّة حمّامات لقضاء الحاجة بل عرق يخرج من مسام الجلد رائحته كالمسك.

عين ليلة المعراج يصف لأُمَّته الجنّة ليشوّقهم إليها وليفاخر بهم يوم القيامة باقي الرّسل صلّى الله عليه وسلّم.

– قال صلّى الله عليه وسلّم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة" [أخرجه الشيخان في الصحيحين رواية الإمام أحمد عن عمّار بن ياسر].

– ثبت بالتواتر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه أخبر أنّ في هذه الأُمَّة سبعين ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب. وفي لفظ: "مع كلّ ألف سبعون ألفاً". [هذا جزء من حديث طويل رواية الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان].

– عن أمّ سلمة قالت قلت: يا رسول الله نساء الدنّيا أفضل أمّ الحور العين؟ قال: بل نساء الدنّيا أفضل من الحور العين. قلت: يا رسول الله وبِمَ ذاك؟ قال: "بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلْبَسَ اللَّهُ وَجُوهَهُنَّ النُّورَ وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ بَيْضَ الْأَلْوَانِ خَضِرَ الشِّيَابِ صَفْرَ الْحُلِيِّ مَجَامِرُهُنَّ"<sup>(١)</sup> الدَّرَّ وَأَمْشَاطَهُنَّ الذَّهَبَ يَقْلُنَّ: "نحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ونحن المقيمات فلا نظعن"<sup>(٢)</sup> أبداً ألا ونحن الراضيات فلا نسخط

(١) مَجَامِرُهُنَّ: أواني العطور والبخور.

(٢) فلا نظعن: لا نرحل ولا نغادر ولا نفارق.

أبدأ طوبى لمن كتّأ له وكان لنا" [رواه أبو القاسم الطبراني].

– عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: إنّ الحور العين ليغنّين في الجنّة يقُلن: "نحن خيرات حسان خُبُّنا لأزواج كرام".  
[أخرجه الحافظ أبو يعلى].

– وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "يدخل أهل الجنّة الجنّة على طول آدم، ستون ذراعاً بذراع المَلِك، على حُسن يوسف، على ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة، وعلى لسان محمّد<sup>(١)</sup> جُرْدٌ مُرْدٌ<sup>(٢)</sup> مُكْحَلون". [رواه ابن أبي الدنيا].

– وقد ورد أنّ الزوجة من الحور العين تقول لزوجها: "والله ما أرى في الجنّة شيئاً أحسن منك ولا في الجنّة شيئاً أحبّ إليّ منك. فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك".

– عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: "لو اطلّعت امرأة من نساء أهل الجنّة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحاً<sup>(٣)</sup> ولطاب ما بينهما ولنصيفها<sup>(٤)</sup> على رأسها خير من الدنيا وما فيها".  
[أخرجه أحمد ورواه البخاري].

(١) وعلى لسان محمّد: دلّ على أنّ العربية هي لغة تخاطب أهل الجنّة.

(٢) جرد مرد: لا شعر في أجسادهم ولا في وجوههم.

(٣) ريحاً: عطراً.

(٤) نصيفها: تاجها.

من سورة إبراهيم (٢٤)

## أعمال الكافرين ... رماد في مهبّ الريح

قال الحقّ سبحانه:-

﴿ مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرمادٍ <sup>(١)</sup> اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ <sup>(٢)</sup> لا يقدرون ممّا كسبوا على شيءٍ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [إبراهيم ١٨].

هذا مثل مكّيّ. وهو من الأمثال الظاهرة الواضحة.

**الطّرف الأوّل (المشبّه):** أعمال الكافرين والمشركين والملحدّين والمنافقين في الدنيا ومصيرها في الآخرة.

**الطّرف الثاني: (المشبّه به):** مصيرها كمصير رماد اشتدّت به الريح في يوم مكفهرٍ <sup>(٣)</sup> عاصف.

**أدوات التشبيه:** كلمة مثل وحرف الكاف في كلمة "كرماد".

**وجه الشبه:** يحقّ الله أعمال الكافرين في الآخرة كما تمحقّ الريح العاتية كومة الرّماد في يوم عاصف.

ضرب الله هذا المثل ليبيّن أنّ أعمال الكافرين والمشركين والمنافقين والمرائين والملحدّين والشيوخيين والمثليين يححقها

(١) رماد: ما يتبقّى بعد احتراق الشيء.

(٢) يوم عاصف: شديد الريح.

(٣) مكفهر: شديد العواصف كثير الأتربة.

الله ويبعثها كمصير كومة من رماد علّق عليها أصحابها في الدنيا  
 آمالاً كبيرة فتشتدّ عليها ريح عاصفة فتطيرها وتذروها في  
 الهواء<sup>(١)</sup> ولا تُبقي منها ذرّة واحدة ينتفع بها صاحبها وهو أحوج ما  
 يكون إليها. وما ذلك إلاّ لأنّهم كفروا بالله ورسوله وأشركوا في  
 أعمالهم غير الله تعالى ولم يدخّلوا في دين خاتم الأنبياء صلّى الله  
 عليه وسلّم. رغم أنّ صفاته واسمه ومكان مولده ومكان هجرته  
 وما يدعو إليه من فضائل وما يحذّر منه من آثام وشور وصفات  
 أصحابه رضوان الله عليهم كلّ ذلك موصوف بالتفاصيل في  
 كتبهم السّماوية التي يعكفون عليها<sup>(٢)</sup>. فأعمالهم قد بُنيّت على  
 غير أساس صحيح. فالأساس الصحيح يُبنى على الشهادتين  
 والدخول إلى حوزة الإسلام وبعد ذلك هناك شرطان لقبول العمل  
 يذكرهما الفضيل بن عياض في شرحه للآية ﴿ لِيُبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ  
 عَمَلًا ﴾ [الملك ٢] فيقول: "إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن  
 صواباً لم يُقبل. حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون  
 لله. والصواب أن يكون على السنّة". [انتهى].

وكان عمر بن الخطاب يدعو: "اللهم اجعل عملي كلّه صالحاً  
 واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً". [انتهى].

(١) وتذروها في الهواء: ترفعها الريح لتحملها بعيداً وتفرّقها.  
 (٢) يعكفون عليها: يشتغلون بها دراسة وفهماً وتحليلاً.



قال الخازن في تفسيره للمثل: "هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار التي لن ينتفعوا بها. ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال: هو أنّ الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرّق أجزاءه بحيث لا يبقى منه شيء. وكذلك أعمال الكفار تَبْطُلُ وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتّى لا يبقى منها شيء". [انتهى].

يقول الحق سبحانه مبيناً مصير أعمال الكافرين ﴿ وقَدِمْنَا إِلَى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان ٢٣]

ويُن الكافرين وأعمالهم في هذا المثل صورة تشبيهية رائعة وسرّ عظيم وجمال وروعة. فقد صوّر لنا المثل أنّ أعمالهم في الدنيا هي طُعْمَةٌ للنّار ثم تأتي العواصف لتبعثر رمادها حتى لا يبقى للكافر من عمله سوى الحسرة وعضّ الأصابع من الندم. والكفار أنفسهم وما يعبدون من دون الله هم أيضاً مصيرهم كمصير أعمالهم وقود للنّار. ﴿ إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادُهُمْ من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾ [آل عمران ١٠].

الكفار لا يؤمنون بالبعث والحساب ولا بالثواب والعقاب ولا بالجنّة والنار. همّهم كلّ همّهم وعملهم وسعيهم في هذه الدنيا لهذه الدنيا فقط. فمنهم من يُقدّم أعمالاً صالحة كإغاثة الملهوفين والمهجّرين وضحايا الحروب والكوارث الطبيعيّة. ومنهم من يُقدّم

مكارم ومواقف ومروءات وحسن خُلق. ومنهم من يصل الأرحام أو يُحسِنُ إلى الجار أو يُثِقِنُ الصَّنْعَةَ. ومنهم من يوفي بالعقود والعهود. إلاَّ أنَّهم بهذه الأعمال الصَّالحة يرجون شهرة بين الناس وثناء من الناس. لذلك تبقى أعمالهم في الدنيا ويُجزون بها في الدنيا تكاثراً في أموالهم وتيسيراً في أعمالهم واتِّساعاً في أنشطتهم ومدحاً وثناء من الناس وتعميماً لإنجازاتهم في نشرات الأخبار وعلى صفحات الصحف وفي لقاءات القنوات الفضائية وعلى وسائل التواصل الاجتماعي. ومنهم من يعلِّق على أعماله آمالاً في الآخرة ولكنهم يعلِّقونها على حبالٍ مقطوعة أصلاً وغير واصلة إلى الآخرة ولا نصيب لهم في الآخرة طالما أنَّ هذه المكارم والأعمال الصَّالحة قد صدرت عنهم وهم على كفرهم بالله وإدبارهم عن الدين الحق<sup>(١)</sup> وعنادهم وشركهم فإذا جاء الحساب لم يجدوا شيئاً وكانت أعمالهم كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف.

لقد صوّر لنا المثل مصير أعمال الكافرين تصويراً رائعاً بعناصر مُستمدَّة من الكون ومما يشاهده الناس ويرونه ويعرفونه ويلمسون بأنفسهم أثره. فهذا رماد متراكم في يوم مكفهر عبوس اشتدَّت ريحه وعصفت فماذا أبقت من الرماد؟ إنَّها تُذَرِّيهِ<sup>(٢)</sup> هنا

(١) إدبارهم عن الدين الحق: رفضهم الدخول في الإسلام.  
(٢) تُذَرِّيهِ: تبعثه وتفركه.

وهناك ولا تُبقي له أثراً. هذه الصورة وضّحت لنا المعنى وجسمته حتى صار مرئياً محسوساً ومفهوماً أنّ العمل إذا قُدّم لغير الله ضاع على صاحبه. فإنّ الكفر يُبطله والشرك يَمَحُقه ..... فاعتبروا يا أولي الألباب.

وأما المؤمنون فصدقاتهم وأعمالهم الصّالحة الخالصة لله ابتغاء وجه الله رجاء ثواب الله وخوفاً من عقاب الله وعلى منهج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيرفعها الله ويكون لها نوراً في مصعدها ويتقبّلها الله وينمّيها ويضاعفها ويبارك فيها حتى تكون جبلاً من الحسنات كأحدٍ وأعظم. ويجزي الله أصحابها بها يوم القيامة بأحسن ما كانوا يعملون.

اللهم اجعل أعمالنا كلّها صالحة في رضاك واجعلها خالصة لوجهك الكريم وتقبّلها منّا واجعل لنا عهداً عندك أن تعاملنا برحمتك يوم نلقاك فلا ثقة لدينا إلّا في رحمتك يا أرحم الرّاحمين.  
آمين.

## من سورة إبراهيم (٢٥)

الكلمة الطيبة ... شجرة طيبة

قال الحق سبحانه:-

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة<sup>(١)</sup> كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ تؤتي أكلها<sup>(٢)</sup> كل حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكّرون ﴾ [إبراهيم ٢٤-٢٥].

هذا مثل مكيّ حسّيّ ضربه الله للمؤمنين ليكون أوقع في النفس وأتمّ لدى العقل. والأمثال لدى العرب هي الطريق المتّبع لإيضاح المعاني وتثبيت الصورة.

**الطرف الأوّل (المشبهه):** الكلمة الطيبة هي شهادتا التوحيد والإقرار بالرسالة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله فهما مفتاح حوزة الإسلام لمن أراد الولوج<sup>(٣)</sup> إلى دين الله والإيمان به.

**الطرف الثاني: (المشبهه به):** الشهادتان كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تجود بثمارها وأكلها الطيب ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً بإذن ربّها.

(١) كلمة طيبة: الإسلام والإيمان في قلب المؤمن.

(٢) تؤتي أكلها: تعطي ثمرها الطيب.

(٣) الولوج: الدخول إلى الإسلام والإيمان.

أدوات التشبيه: كلمة "مثل" وحرف "الكاف" في كلمة "كشجرة".

وجه الشبه: إذا استقرّ الإيمان في قلب المؤمن وتجدّر فإنه كشجرة طيبة المنبت لا تثمر إلا خيراً وصلاحاً واستقامة وكلاماً طيباً وأعمالاً طيبة صالحة. ثمارها كلّ أركان الإسلام وأوراقها وغصونها أقوالٌ صالحةٌ وأعمالٌ صالحةٌ. أمّا فرعها وقمّتها التي في السماء فَخَشِيَةٌ اللهُ وتقواه والاستقامة على أمره. ولا تزال تُؤتي أكلها كلّ حين طاعاتٍ لا تتوقف حتى يتوقف قلب المؤمن ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾<sup>(١)</sup> [الحجر ٩٩].

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الكلمة الطيبة هي كلمة لا إله إلاّ الله. ويرى مجاهد وغيره أنّ الكلمة الطيبة هي الإيمان. وهذا ما اعتقده شخصياً وهذا ما بنيتُ عليه الشرح والتفسير. وقال عطية العوفي هي المؤمن نفسه. ولا أرى اختلافاً كبيراً بين هذه الأقوال فمجموعها واحد. أمّا من شبه الشجرة الطيبة بالنخلة لثباتها في الأرض وارتفاع أوراقها في السماء فهو مثلٌ وتشبيهٌ طيب. فالنخلة من أشرف أشجار الأرض وهي من أشرف أشجار الجنّة وقد ورد في الأثر أنّ النخلة في الجنّة تكون أوراقها حُللاً<sup>(٢)</sup> من سندس

(١) اليقين: الموت.

(٢) الحُلّة: هي البدلة. وهنا المقصود بها كلّ ما يلبس الرجال والنساء في الجنّة.

واستبرق لأهل الجنة و حُللاً من قَزّ وحرير لنساء أهل الجنة والحدور العين. ويكفي النخلة فخراً أن مدحها الله سبحانه في قوله ﴿ والنخل باسقات<sup>(١)</sup> لها طلع<sup>(٢)</sup> نضيد<sup>(٣)</sup> ﴾ [ق ١٠].

ولكن يبقى في النفس شيء من هذا التشبيه. فالمعروف أن النخلة تؤتي أكلها كل موسم مرة في السنة أما شجرة الإيمان والتوحيد في قلب المؤمن فثمارها يانعة طازجة على مدار الأيام والأعوام صلاةً ودعاءً وزكاةً وصياماً وسجوداً وركوعاً وذكراً وتسبيحاً وحباً وعمرةً وبرّاً وطاعات وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر وأضاحي وقربات وصدقات ونفقات وكلاماً طيباً وعملاً طيباً واستقامة وتقوى وخطوات للمساجد وتلاوة وحفظاً للقرآن وجهاداً بالمال والنفس ومدافعة للشيطان ووضوءاً وغُسلأً وطهارةً وتَوَكُّلاً وتفويضاً يكاد لا يتوقّف. فهو أولى بالتشبيه من شجرة موسميّة. ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً<sup>(٤)</sup> ﴾ ملة إبراهيم حنيفاً<sup>(٥)</sup> وما كان من المشركين ﴿ قل إنّ صلاتي

(١) باسقات: طويلة تتمايل مع الهواء.

(٢) طلع: حبوب اللقاح داخل وعاءها في ذكر النخل.

(٣) نضيد: متراكب بعضه فوق بعض.

(٤) ديناً قيماً: ديناً ثابتاً لا يتغير فيه صلاح المعاش في الدنيا وصلاح المعاد في الآخرة.

(٥) حنيفاً: مجتنباً الشرك والباطل ملتزماً بالدين الحق.

وَنُسُكِي<sup>(١)</sup> ومحيائي ومماتي لله رب العالمين ﷻ لا شريك له وبذلك  
أُمِرْتُ وأنا أوّل المسلمين ﴿ [الأنعام ١٦١-١٦٣].

يقول الأستاذ طاحون: "إنّ الإيمان في قلب المؤمن كلمة  
طيّبة يصدر عنها كلّ طيّب وجميل ونافع. والمؤمن الصّالح طاهر  
السريّة واسع الصدر عطوفٌ خيرٌ طيّب الكلام عفّ اللسان يُرْجى  
خيرُه ويؤمن شرّه ويوثقُ بدمّته. إذا عاهد وفّى وإذا قال صدق. فهو  
أمين متواضع يحبّ الخير للنّاس ويسعى في الإصلاح بين  
المتخاصمين يبيّرُ والديه ويصل رحمه ويحسن إلى جيرانه. وهو على  
صلة دائمة برّبّه ويؤدّي فرائضه." [انتهى].

ويقول ابن القيم: "إنّ في هذا المثل من الأسرار والعلوم  
والمعارف ما يليق به. فإنّ الشجرة لا بدّ لها من جذور وعروق  
وساق وفروع وورق وثمر. وكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليتطابق  
المشبّه به مع المشبّه. فعروقه وجذورها العلم النافع والمعرفة  
واليقين وساقها الإخلاص لله وفروعها الأعمال الصّالحة وثمرتها  
زيادة اليقين وحسن الخلق والسّمْتُ الصّالح<sup>(٢)</sup>." [انتهى].

قال الربيع بن أنس بن مالك: "كلمة طيّبة هذا مثل الإيمان.  
والإيمان شجرة طيّبة أصلها الثابت الذي لا يزول هو الإخلاص

(١) نُسُكِي: عبادتي كلّها.

(٢) والسّمْتُ الصّالح: الهيئة العامّة للمؤمن من لباس وخطوات وألفاظ. إذا رُئِيَ ذُكِرَ الله.

وفرعها في السماء خَشِيَّةُ اللَّهِ. " [انتهى].

والإيمان في القلب يلزمه تجديد كل حين. وتجديده بكثرة الذكر والاستغفار والإقبال على العمل الصَّالِح والتفكر في خلق الله وتذكر عظمة الله وجلاله وكبريائه وكمال صفاته والإكثار من الصالحات الباقيات<sup>(١)</sup>.

وتجديد الإيمان وطَمَأْنِينَةُ النَّفُوس والقلوب تكون بِذِكْرِ اللَّهِ. ونحن مأمورون بذكر الله في الصلاة وفي أعقاب الصلاة. والحجَّ والعمرة كلّها ذكر لله. ومن يذكر الله في سرّه يذكره الله في سرّه. ومن يذكر الله في جماعة يذكره الله في ملأ خير من مَلَيْئِهِ. ونحن مأمورون بذكر الله ذكراً كثيراً كثيراً قياماً وقعوداً وعلى جنوبنا وفي المسجد وفي البيت وفي السوق وفي الشارع وفي المواصلات. وحين نأوى إلى فراشنا وحين نستيقظ وعند الأكل وبعد الأكل وعند دخول المنزل وعند الخروج وعند دخول المسجد وعند الخروج وعند الحديث في التليفون وبعد الخروج من الخلاء وحتى عند جماع الزوجات وفي كل وقت وحين. وذكر الله من أعظم القربات. والوضوء وذكر الله هما سلاح المؤمن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ

(١) الصالحات الباقيات: سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وسُمِّيَتْ صالحات لأنَّ أجرها عظيم. وسُمِّيَتْ باقيات لأنَّ خصومك يوم القيامة لا يأخذوا منها شيئاً بل تبقى لك لأنها اشتملت على ذكر الله.



[الأحزاب ٤١-٤٢]. ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾  
 [البقرة ١٥٢]. ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ  
 وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا  
 وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا  
 خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا <sup>(١)</sup> سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ <sup>(٢)</sup> ﴾ [آل عمران  
 ١٩٠-١٩١].

الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت في الأرض وفرعها  
 باسق <sup>(٣)</sup> في السماء. والكلمة الطيبة يبقى في الناس خيرها ويطيب  
 في المجتمع أثرها ويحسن في الأمة جناها <sup>(٤)</sup> ويصعد عنها إلى  
 السماء قولاً صالحاً وعملاً طيباً متقبلاً.

وأصحاب الكلمة الطيبة لا تلعب بهم الشهوات ولا تُضللهم  
 الشُّبُهَات والظلمات لأنهم يعيشون على هدىً ونور من إيمانهم  
 وفي حفظٍ من ربهم. وبالكلمة الطيبة ﴿ يثبَّت اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة... ﴾ [إبراهيم ٢٧].

يثبَّت اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالكلمة الطيبة مدَّة حياتهم. ويثبَّتهم بها  
 بعد الموت في القبر عند سؤال المَلَكَيْن. ويثبَّتهم في مواقف القيامة

(١) باطلاً: عبثاً بلا حكمة أو هدف.

(٢) فقنا عذاب النار: جئنا عذابها واحفظنا من حرها وسُمومها.

(٣) باسق: شامخ مرتفع.

(٤) جناها: ثمرها.

وعند الميزان وعند تطاير الصحف وعند الجواز على الصّراط فلا  
تزلّ أقدامهم ولا تهولهم<sup>(١)</sup> الأهوال ولا يتلعثمون ولا يضطربون  
ولا يفزعون إذا فزع النّاس.

---

(١) تهولهم: ترعبهم وتخيفهم.

## من سورة إبراهيم (٢٦)

الكلمة الخبيثة ... شجرة خبيثة

قال الحق سبحانه:-

﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ (١) من فوق

الأرض ما لها من قرار (٢) ﴾ [إبراهيم ٢٦].

وهذا أيضاً مثل مكيّ محسوس في غاية الحسن والكمال تماماً  
 كمثل أصحاب الكلام الطيب الذي سبقه في نفس السورة.

**الطرف الأوّل (المشبهه):** الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر والشرك  
 والإلحاد:

كقولهم: اتّخذ الله ولداً. وجعلوا لله أنداداً. وجعلوا لله شركاء.  
 وقولهم عَزِيْرُ ابن الله. وقولهم المسيح ابن الله. وقولهم الملائكة  
 بنات الله. وجَعَلِهِمْ بين الحقّ سبحانه وبين الجنّة نسباً. وقولهم  
 لن نُؤْمِن حتى نُؤْتَى مثل ما أُوتِيَ رُسُلُ الله. وقولهم ما أنزل الله على  
 بشرٍ من شيء. وقولهم ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى.  
 وعبادتهم اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من دون الله. وقولهم  
 ما أظنّ الساعة قائمة. وقولهم إنّ هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا

(١) اجْتُثَّتْ: أُفْتَلَعَتْ.

(٢) ما لها من قرار: ما لها من جذور في الأرض.

وما يهلكنا إلا الدهر. وقولهم إنَّ الله فقير ونحن أغنياء. وقولهم يد الله مغلولة. وقولهم لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه. أو يفترون على الله الكذب.

وقولهم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَوْ شَاعِرٌ أَوْ مَفْتَرٍ أَوْ يَعْلَمُهُ بَشَرٌ أَوْ يَسْمُونَهُ يَتِيمٌ أَبِي طَالِبٍ.

وقولهم عن القرآن إنه إفك<sup>(١)</sup> افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. وقولهم أساطير<sup>(٢)</sup> الأولين اكتبها. كل هذا وغيره من خبيث الكلام.

**الطَّرْفُ الثَّانِي: (المشبه به):** شجرة خبيثة لا أصل لها ولا فرع ولا مستقر لها في الأرض ولا مصعد لها إلى السماء. اجْتُثَّتْ من فوق الأرض وطرحت مع القاذورات.

**أدوات التشبيه:** كلمة "مثل" وحرف "الكاف" في كلمة "كشجرة".

**وجه الشبه:** الكلام الخبيث هو حصائد الألسنة المذموم المسموم يمقته الله والملائكة والناس أجمعين يهوي بصاحبه إلى الدرك الأسفل من السعير. ليس له قبول في الأرض ولا تُفتح له

(١) إفك: كذب وبهتان.

(٢) أساطير: قصص خيالية.

أبواب السماء. وكذلك الشجرة الخبيثة ليس لها مكان في الأرض فهي مُقْتَلَعَةٌ من الأرض مَطْرُوحَةٌ مع القاذورات. لا جذر لها ولا فرع وثمرها خبيث مسمّم ولا تصلح الشجرة وثمرها إلا كوقود للنّار.

وكما بيّنا في المثال السابق أنّ الكلمة الطيّبة تعني الإيمان يتجذّر<sup>(١)</sup> في قلب المؤمن فلا يقول إلا خيراً ولا يعمل إلا خيراً. فالإيمان في قلبه شجرة طيّبة أصلها ثابت في جذر قلبه وأعماق نفسه أغصانها وفروعها صاعدة إلى السماء متعلّقة برّبّها بحبل لا ينفصم<sup>(٢)</sup> يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه. ثمارها الكلم الطيّب وحُسْنُ الخلق وذكْرُ الله والقيام له آناء اللّيل وأطراف النّهار.

في ظلّ الكلمة الطيّبة يعيش النّاس في سلام وأمان وتراحُم وتكافل. أموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم محفوظة مُصانة. وفرص الكسب أمامهم متساوية وعادلة.

أولئك عباد الله المُخْلِصين يعيشون في هذه الدنّيّا وقلوبهم وأبصارهم متّجهة إلى ربّهم. يهديهم ربُّهم بإيمانهم وينير لهم الظلمات ويثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(١) يتجذّر: تصبح له جذور وتمكين في القلب.

(٢) لا ينفصم: لا يبلى ولا يُفطع.

وما دمنّا نتحدّث عن الكلام الطيّب والكلام الخبيث فما موقف الإسلام من الكلام؟ عن أبي هريرة أنّ النّبّي صلّى الله عليه وسلّم قال: "والكلمة الطيّبة صدقة". [رواه مسلم وهو بعض حديث طويل].

أمّا الصنف الآخر أصحاب الكلام الخبيث فهم لا ينطقون إلّا شراً وإفكاً وفُحشاً وكذباً ونفاقاً ونميمة. يستغيبون الغائب ويتأمرون عليه ويحتقرون الحاضر ويؤذونه ويمنّون عليه. هم أصحاب النظريّات الباطلة التي زعموها ليُدْحِضوا بها الحقّ<sup>(١)</sup>. هم أصحاب الإشاعات والمرجفون في كلّ مكان. هم أصحاب الإعلام المأجور والقنوات والإذاعات الفاجرة. هم تجّار حروب لا يعيشون إلّا على دماء الآخرين. هم تجّار مخدّرات ومرّوجو دعاة وتجّار بشر وسماسرة أعضاء بشريّة مسروقة. لا يعترفون بأخلاق ولا يحترمون عهود. لا يدينون بدين الحقّ ولا يُحرّمون ما حرّم الله ورسوله. هم خفافيش لا يعيشون ولا ينشطون إلّا في الظلام. يصدّون عن سبيل الله ويقتلون عباد الله المؤمنين بالمئات والآلاف. هم الكافرون والمشركون والظالمون والملحدون والعلمانيّون والمثليّون والحاقدون والمستعمرون.

(١) ليُدْحِضوا بها الحقّ: ليطمسوا الحقّ.

عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإنّ من أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلساً يوم القيامة الثرثارون<sup>(١)</sup> والمتشدّقون<sup>(٢)</sup> والمتفيهقون<sup>(٣)</sup>". [رواه الترمذيّ].

وأصحاب الكلام الخبيث هم أهل الضلال في الدنيا ووقود النّار في الآخرة. ملأوا الدّنيا بشروورهم وحروبهم وقنابلهم وسمومهم فسفكوا الدماء وزهقوا الأرواح ويتمّوا الأطفال ورمّوا النساء بمكائدهم وجشعهم واستعمارهم. امتلأت قلوبهم بالكفر والضلال وركنوا إلى الظلام وأشاحوا وجوههم<sup>(٤)</sup> عن النّور فما أصبرهم على النّار. ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٢٥٧]. ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئةً بمثلها وترهقهم ذلّةً<sup>(٥)</sup> ما لهم من الله من عاصم كأنّما أُغْشِيَتْ

(١) الثرثار: كثير الكلام بلا داعي.

(٢) المتشدّق: المتطاول على الناس بكلامه.

(٣) المتفيهق: الذي يملأ فمه بالكلام ويلوك الكلام تكبّراً وارتفاعاً وتعظيماً لنفسه.

(٤) أشاحوا وجوههم: أداروا وجوههم بعيداً.

(٥) ترهقهم ذلّة: يكسو وجوههم الذلّ والهوان.

وجوههم<sup>(١)</sup> قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ [يونس ٢٧].

وأصحاب الكلام الخبيث لا تثبت لهم من الله بل ﴿ ويضلّ الله الظالمين ﴿. فلهم الضلالة في كلّ وقتٍ وحين في الدنيا والآخرة فهذا ما اختاروه لأنفسهم. فلا يلقتهم الشهادتين قبل الموت ولا يضع على شفاههم كلمة الحقّ إذا سُئلوا في القبور وهم في الآخرة أصحاب الهلع<sup>(٢)</sup> والفرع في كلّ موقف حتّى يتمّ دعّهم إلى جهنّم دعّاً<sup>(٣)</sup>.

(١) أغشيت وجوههم: ألبست وجوههم.

(٢) الهلع: الخوف الشديد.

(٣) يتمّ دعّهم إلى جهنّم دعّاً: تدفعهم الزبانية إلى جهنّم دفعاً.



مثلُ الله سبحانه وما يعبدون من دونه

قال الحق سبحانه:-

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه<sup>(١)</sup> أينما يوجهه لا يأت بخير<sup>(٢)</sup> هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴿ [النحل ٧٣-٧٦].

جاء الدين الإسلامي بالوحدانية المطلقة فلا معبود غير الله ولا شريك مع الله ولا اعتماد على غير الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ولا مدبر للكون والخلق إلا الله ولا إله بحق إلا الله ولا محيي ولا مميت إلا الله ﴿ لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ [القصص ٨٨].

(١) وهو كَلٌّ على مولاه: هو كلفة ومؤونة وعبء على مولاه وسيده.

(٢) أينما يوجهه لا يأت بخير: أينما بعثه سيده لا يقضي مصلحة ولا ينجح مسعاه.

إنَّ المستحقَّ للعبادة هو الخالق الرازق الوهاب المُنعم  
المتفضَّل القدير وهو الله الواحد الأحد الفرد الصّمد له كمال  
القدرة وكمال العظْمَة وكمال الوَحْدانيّة وكمال السلطان ﴿ وهو  
الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في  
السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الرّوم ٢٧].

كيف يُعبدُ غيرُه سبحانه؟ كيف يُعبد من لا يملك مع الله  
شيئاً؟ كيف يُعبد من لا يقدر على إنزال قَطْرٍ<sup>(١)</sup> أو إنبات زرع ولا  
يملك ذلك ولا يستطيعه؟ كيف يَعْبُدون ما لا يملك لهم رزقاً؟  
كيف تجعلون هذه الأصنام والأنداد<sup>(٢)</sup> والأوثان آلهة من دون  
الله؟ كيف تجعلونهم أنداداً لله وأشباهاً وأمثالاً؟ والله لا ندّ له ولا  
شَبَهَ ولا مِثْلَ له ﴿ ليس كمثلُه شيء وهو السميع البصير ﴿ له  
مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّه بكلّ  
شيء علِيم ﴾ [الشورى ١١-١٢]

لقد ضرب الله عزّ وجلّ مثلين قياسيَّين لتقرير قضية التوحيد.  
فبهما يهتدي العقل إلى أنّه لا معبود بحقّ إلاّ الله.

(١) إنزال قَطْرٍ: إنزال المطر.

(٢) والأنداد: جمع "ندّ" وهو الشبيه أو المماثل.

ونبدأ بأول المثليين: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو يُنفق منه سرّاً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [النحل ٥٧].

ضرب الله سبحانه هذا المثل لمشري قريش ولكلّ من جعل لله أنداداً وأشباحاً ولكلّ من ضرب لله أمثالاً. والمثل هنا حُجّة قاطعة وبرهان ساطع على وجود الله عزّ وجلّ ووحدانيّته وكمال رحمته وقدرته. والمثل مأخوذ من واقع حياة العرب في ذلك الوقت حيث كان لأغنيائهم وسادتهم عبيداً يملكونهم ملكاً تامّاً كامتلاكهم لأيّ متاع. ليس للعبيد حقّ التصرف في شيء ولا حتى في أمر أنفسهم. وليس لهم حقوق إنسانيّة كالأحرار. وكان معظم عملهم في خدمة أسيادهم وفي الأعمال التي يأنف الأحرار عن ممارستها<sup>(١)</sup> كالذّبح والسّخّ والرّعي وقصّ الشعر وتنظيف حظائر البهائم.

فجاء المثل ليسقّه آلهتهم التي يعكفون عليها بأن شبّهها بهؤلاء الخدم والعبيد. فهذا عبد مملوك لا يمكنك من أمر نفسه شيئاً. والطّرف الثاني في المقابل سيد حرّ قادر على الكسب ينفق منه سرّاً وعلانية كما يشاء. هل يستوي هذا وذاك؟ هل يستوي

(١) يأنف الأحرار عن ممارستها: يرفضوا ممارستها استكباراً.

العاجز والقادر؟ هل يستوي من له إرادة ومسلوب الإرادة؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾.

**الطرف الأول (المشبه):** العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء وليس له إرادة وليس له حرية التصرف. والمقصود بهذا العبد الأبيكم الأصمّ هو الوثن<sup>(١)</sup> أو الصنم. فكلاهما من نفس الفئة. كلاهما عاجز. كلاهما مسلوب الإرادة. كلاهما جسد بلا عقل ولا حواس.

**الطرف الثاني (المشبه به):** السيّد الحرّ صاحب الإرادة والقادر على الكسب يعبد الوثن.

**أدوات التشبيه:** "ضرب الله مثلاً" من طرفين "هل يستوون"؟  
**وجه الشبه:** صور المثل ما يعبد هؤلاء من لاتٍ وعزى ومناة وهبلٍ وأندادٍ وأصنامٍ تصويراً رائعاً عندما شبّههم بعبيد هؤلاء المشركين في "كونهم" مسلوبى الإرادة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم. وكأنّه سبحانه يقول للمشركين: هل أوصلتكم سفاهتكم أن تعبدوا حجارة صماء؟ أجعلتم عبيدكم أسيادكم؟ أجعلتم خدمكم آلهتكم؟ أين عقولكم؟ أين ماتدعون من

(١) الوثن: هو الصنم.

الحكمة؟ إنكم كمن يلبس نعاله على رأسه ويضع عقله تحت قدمه!!

ثم يأتي المثل الثاني لبيان الحقّ والباطل ولمواصلة الطّرق على الفولاذ وهو حارّ. ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ [النحل ٧٦].

في المثل الأوّل كان الحديث عن عبد وسيّد وأجير وحرّ. ولكن ليس كلّ الناس يملك عبداً ويعرف أحوالهم. فجاء المثل الثاني يتحدّث عن رجلين ولكن شتّان ما بينهما. أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ثم توسّع المثل ليضيف صفات أخرى إلى هذا الرجل تُنقص من قدره وتحطّ من مستواه فهو عبء على من يعوله ولا يأت بخير ولا يدفع شرّاً ولا ينفع بشيء. والمقصود بهذا الرجل صاحب الأوصاف الذميمة هو الوثن وهو الصّنم وهو كلّ ما يُعبد من غير الله.

وبذلك يكون الطّرف الأوّل (المشبّه): هو الوثن والصّنم والنّد والشّريك والولد وكلّ ما يُعبد على الأرض من غير الله وكلّ ما يُشرك في العبادة مع الله سبحانه وهو كما في المثل الأوّل وإن كان تمّ التوسّع في إبراز سفاهته.

والطَّرْف الثاني (المشَبَّه به): رجل معتدل مقتصد لا إفراط ولا تفريط<sup>(١)</sup>. يأمر بالعدل ويعمل به وهو على صراط مستقيم. ومن الواضح تماماً أنّ المقصود به هو الإله الحقّ الله سبحانه ربّ العالمين.

أداة التشبيه: "وضرب الله مثلاً".

وجه الشَّبه: هي علاقة تضادّ ومقارنة ومقابلة<sup>(٢)</sup> بين وثن وصنم أبكم وبين الحقّ سبحانه ربّ العالمين. هي علاقة تضادّ بين الثرى والثريّا. هي علاقة مقارنة بين الباطل والحقّ المبين.

وكيف نقارن بين حجر أبكم لا ينطق بالكلية فلا مقال ولا فعال وبين إله حكيم يأمر بالعدل ويلتزم به؟ كيف نقارن بين صنم يحتاج إلى من يرعاه وينظّفه ويحرّكه وبين ربّ العالمين مدبّر الأمر؟ ولنعطِ فرصة للقرآن ليقوم بالمقارنة: ﴿ قل من ربّ السماوات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهار ﴾

(١) لا إفراط ولا تفريط: هو بالضبط كديننا معتدل وسط لا إهمال ولا تشدّد.  
(٢) تضادّ ومقابلة: أي الشيء وضده.

[الرّعد ١٦]. ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك  
السمع والأبصار ومن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ  
الْحَيِّ ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴿ فذلكم  
الله ربكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلا الضلالُ فأنتى تُصْرَفُونَ ﴿  
[يونس ٣١-٣٢].

كيف تشركون بالله غيره في مُلكه وهو الغنيّ سبحانه له ما في  
السموات وما في الأرض وهو المتفرد بالخلق والإيجاد والعظمة  
والجلال.

كيف ترضون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟ فأنتم لا تقبلون  
أن يشارككم عبيدكم فيما تملكون مع أن عبيدكم وإماءكم بشر  
مثلكم. فكيف تقبلون أن تشركوا مع الله شيئاً أو بشراً علماً أن  
من تشركوا مع الله لا يشبهه في شيء. فالله لا شبيه له ولا مثل  
له. فهو سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴿  
[الشورى ١١]. ﴿ الله الذى خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ  
يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه  
وتعالى عما يشركون ﴿ [الروم ٤٠].

## من سورة النحل (٢٨)

كَفَرْتُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ الْجُوعَ وَالْخَوْفَ

١. قال الحق سبحانه:-

﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً<sup>(١)</sup> من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف<sup>(٢)</sup> بما كانوا يصنعون ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ [النحل ١١٢-١١٣].

٢. وقال سبحانه:-

﴿ لقد كان لسبأ<sup>(٣)</sup> في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم<sup>(٤)</sup> وبدّلناهم بجنّتهم جنّتين ذواتي أكلٍ خَمِطٍ<sup>(٥)</sup> وأثلٍ<sup>(٦)</sup> وشيء من سدرٍ<sup>(٧)</sup> قليل ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [سبأ ١٥-١٧].

(١) رزقها رغداً: سهلاً ميسراً طازجاً رخيصاً.

(٢) لباس الجوع والخوف: سمى الله الجوع والخوف أنهما لباس أي ملازمان لأهلها ملازمة اللباس للجسد.

(٣) سبأ: بلدة في محافظة مأرب باليمن.

(٤) سيل العرم: تهدم سد مأرب ونزل على البلدة ماء السيل والماء المتجمّع خلف السد.

(٥) أكل خمط: ثمر مستدير الشكل بداخله سائل صمغي كنا نستخدمه صغاراً للصق الطائرات الورقية.

(٦) الأثل: شجر يرتفع كثيراً يشبه المئذنة أو قلم الرصاص ثمره لا يؤكل.

(٧) سدر: نبات شوكي ثمره النبق وهو ثمر غير محبب.



هذان مثلان مكّيّان واضحان تمام الوضوح ضربهما الله لمكة  
 عندما كذبت محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وتأمروا على قتله أو  
 إخراجة من بلده ومسقط رأسه. ضربهما الله لمكة إنّ تمادت في  
 غيِّها وتكذيبها وكفرها وأذاها للحبيب المصطفى الذي جاءها بخير  
 الدنيا والآخرة. وهما أيضاً مثلان شاخصان أمام كلّ قرية على  
 امتداد المعمورة تكذب بآيات الله ورسل الله ولقاء الله جعلهما  
 الله تهديداً ووعيداً لكلّ كافر ومكذب ومشرك كما رفع الجبل فوق  
 بني إسرائيل ﴿ وإذ نتقنا<sup>(١)</sup> الجبل فوقهم كأنه ظلة<sup>(٢)</sup> وظنّوا أنّه  
 واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴿  
 [الأعراف ١٧١].

كان أهل مكة المكرّمة يُنعمون بالأمن والرّخاء وكانوا أصحاب  
 تجارة تصل قوافلهم إلى اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف  
 كلّ عام. وعندهم البيت الحرام يحجّ إليه المسلمون ويعتَمروا من  
 كلّ أصقاع المعمورة ممّا يضمن لمكة دخلاً سنويّاً بالمليارات. كانوا  
 يعيشون في أمن وأمان ببركة بيت الله الحرام ويَتَخَطَّفُ الناسُ من  
 حولهم. يتمتّعون برغدٍ وبحبوحةٍ من العيش. تأتيهم خيرات  
 الطائف الزراعيّة وغلّات اليمن ومنتجات الشام والحبشة ومصر

(١) نتقنا: رفعنا الجبل فوق رؤوسهم للتهديد.

(٢) ظلة: سحابة.

وفارس والعراق. ويأتيهم هَدْي وأضاحي الجزيرة العربيّة. كلّ الخيرات كانت تلتقي وتجتمع في مكّة دعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

وكان لمكّة وأهلها منزلة بين العرب حتى قبل الإسلام. فقد كان في مكّة شبه دولة أو حكومة ديمقراطيّة يرأسها أحد أجداد الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو قُصَيّ بن كِلاب. وكان لُقُصَيّ من مظاهر الرياسة والتشريف ما يفوق ما للرؤساء والملوك في عصرنا الحاضر. فكان في مكّة دار الندوة وهي بمثابة برلمان مكّة فيها يتشاورون وفيها يزوّجون بناتهم. وكانت لهم حجابة الكعبة<sup>(١)</sup> ومعهم مفاتيحها وهم سدنتها وخُدّامها. وكان من واجباتهم سقاية الحجيج فيملاؤن للحجّاج حياضاً من الماء<sup>(٢)</sup> يحلّونه بالتمر والزبيب فيشرب الحجيج منها إذا وردوا مكّة. وكان من واجباتهم رفاة الحجيج<sup>(٣)</sup> وهو طعام يُصنَع للحجّاج على طريقة الضيافة يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد. [الرحيق المختوم]. [انتهى].

ولكنّ أعظم نعمةٍ أنعم الله بها على مكّة وأهلها وحيز لهم<sup>(٤)</sup> بها أعظم شرف كانت عندما أرسل الله منهم خاتم الرّسل صلّى الله

(١) حجابة الكعبة: العناية بها وبنظافتها وكسوتها.

(٢) حياضاً: أحواضاً.

(٣) رفاة: إطعام وضيافة.

(٤) حيز لهم: حصل لهم.

عليه وسلّم. رسولاً منهم يعرفون نسبه وشرفه ويعرفون صدقه وأمانته وطهارته ترعرع بينهم حريصٌ على هدايتهم ناصحٌ لهم يدعوهم إلى خير الدنيا والآخرة. يدعوهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك<sup>(١)</sup> والأصنام وترك عبادة الحجارة والأزلام. يدعوهم إلى ربّ البيت الذي يعمرونه والذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف والذي رأوا رؤيا العين ما فعله القويّ العزيز سبحانه وجنوده من الأبابيل بأبرهة<sup>(٢)</sup> وجيشه عندما قصد ديارهم يريد بهم وبيئتهم شراً.

جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلّم بكلّ الحبّ والحرص عليهم وعلى مكة فماذا كان موقفهم؟ كذبوه وبعثوه بأخسّ النعوت<sup>(٣)</sup> وحاصروه وجوّعوه وصدّوا عن سبيل دعوته ونكبوا عن الصراط السويّ<sup>(٤)</sup>. بل أكثر من ذلك فقد خطّوا لقتله ومكروا لإخراجه من بيته وبلده.

فضرب الله لهم مثلاً يندرهم فيه بما قد يحلّ بهم عقاباً على كفرهم بأنعم الله. وكفرهم بأعظم هذه النعم وهو إرسال رسولٍ منهم يتلو عليهم آيات ربّهم ويزكّيهم في الدنيا ويشفع لهم

(١) نبذ الشرك: تركه والتبرؤ منه.

(٢) أبرهة: هو أبرهة الحبشيّ.

(٣) نعتوه بأخسّ النعوت: قالوا إنّه ساحر أو شاعر أو كاذب أو كاهن أو مجنون أو يعلمه بشر.

(٤) نكبوا عن الصراط السويّ: رفضوا الدين الحقّ الذي جاءهم به.

يوم الحساب ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل في ضلال مُبين. ضرب الله لهم مثلاً يطابق حالهم ومآلهم إن هم ظلّوا على ما هم عليه من العناد والتعنّت وإلحاق الأذى بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه.

**الطرف الأوّل (المشبه):** أهل مكة عندهم البيت الحرام والأمن والأمان والرزق الوفير وكلّ الثمرات جاءهم رسول منهم فكذبوه وآذوه.

**الطرف الثاني (المشبه به):** حال قرية من القرى كانت آمنة مطمئنة وفيرة الرزق كفرت بأنعم الله فأبدل الله رزقهم جوعاً وأمنهم خوفاً.

كذلك ضرب الله لهم مثل سبأ التي اشتهرت بجنتيها عن يمين وشمال وماءها الغزير ورزقها الوفير وأمنها وطقسها ومواصلاتها. فكفرت بأنعم الله فبدّل الله حالهم إلى أسوأ حال ومزّقهم كلّ مُمزّق<sup>(١)</sup>.

**أداة التشبيه: كلمة "مثل".**

(١) ومزّقهم كلّ مُمزّق: فرّقهم فرقة لا وصال بعدها: لقد كان من سبأ الأنصار بيثرب وغسان بالشام والأردن بعمان وخزاعة بتهامة.

وجه الشبه: هذه أمثلة قرى ضربها الله لأهل مكة إن لم يعودوا إلى رشدهم ويُقلعوا عن غيِّهم<sup>(١)</sup> ويدخلوا في دين الله أفواجاً. وقد رفع الله لهم المثل ليكون ماثلاً أمام أعينهم ليعرفوا مصيرهم إن هم أصروا على الكفر والعناد. تماماً كما نتق الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه ظلّة وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يُنفذوا ما أنزل الله إليهم بقوة.

كانت هذه القرية مثلاً لأهل مكة ولم تكن المثل الوحيد فهناك مثل سبأ وهناك مساكن عاد وثمود وهناك قرى قوم لوط وغيرهم كثير. ولقد بدأت إرهابات العذاب<sup>(٢)</sup> تحلّ على أهل مكة بسبب عداوتهم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وشدة إيدائهم له حتّى دعا على قريش حين استغصوا عليه فقال: "اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف"<sup>(٣)</sup>. فأصابتهم سنة واحدة<sup>(٤)</sup> بعد هجرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فساءت حالتهم وعاشوا زمناً في مخاوف وحروب وذاقوا مرارة الخوف بعد أن ذاقوا ألم الجوع. فقد هُزموا في بدر وأُحد والأحزاب وعاشوا في خوف من سطوة

(١) يُقلعوا عن غيِّهم: يتركوا الكفر ويدخلوا في الإسلام.

(٢) إرهابات: مقدّمات وبدائيات.

(٣) رواه مسروق وأخرجه البخاري في صحيحه. وفي الحديث دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أهل مكة أن يصيبهم الله بسبع عجاف كالتّي أصابت أهل مصر زمن يوسف عليه السلام.

(٤) سنة واحدة: عاماً واحداً من الجوع والعذاب.

سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم ورفض أهل نجد تزويدهم بالحبوب والطعام حتى توسط الرسول صلى الله عليه وسلم فحصل الإمداد.

وشاءت حكمة الحكيم الرحيم سبحانه أن تكون رحمته بهم أقرب من عقابه. فكانت الحُدَيْبِيَّة فتحاً مبيناً ثم كان فتح مكة ودخول أهلها في دين الله أفواجاً. وهنا موطن العبرة والعظة. فكل قرية أو بلد يُبتلى بمثل ما أُبْتُلِيَتْ به هذه القرية تصير مثلاً لغيرها. وما أحوجنا إلى تدبر هذا المثل في عصرنا الحاضر لنفهم سبب الحروب والمجاعات والفتن والقتل والتشريد الذي يدور حولنا حيث يُتَخَطَف الناس من بيوتهم ويُلقى بهم في أصقاع الأرض وحيث يُدَمَّر العمران وتُسْفك الدماء ويُنتزَع المسلمون من بلادهم وقراهم ويُستبدلون بأصحاب بدعٍ وضلالات<sup>(١)</sup>. تلك عاقبة من لم يعرف للنعمة قدرها ولم يشكر المُنعم سبحانه واستكبر في الأرض بغير الحق.

(١) يُنْتزَع المسلمون من بلادهم وقراهم ويُستبدلون بأصحاب بدعٍ وضلالات: يُهَجَّر ويُطرد أهل السنة من بلادهم ويُلقى بهم خارج الحدود أو في البحر ليقضوا غرقاً أو يُسْتَتون في الدول الاسكندنافية ويُستبدلون بشيعة يضرِّبون صدورهم وظهورهم بالسلاسل حزناً على مقتل الحسين بزعمهم والحسين رضي الله عنه منهم براء.

زعم بعض الباحثين أنّ القرية التي ضُربَ بها المثل لمكة هي قرية خياليّة ليس لها واقع على الأرض أو بمعنى آخر هي رواية أسطوريّة<sup>(١)</sup>.

ونردّ على زعمهم فنقول إنّ عدد القرى والمدن التي كُفرت بأنعم الله فدمرها الله أكثر مما يُعدّ ويُحصى ولنا شواهد من مساكن الأقسام السابقة ولنا شواهد ممّا يحدث في عصرنا الحاضر مما ينتج عن الزلازل والبراكين والسونامي<sup>(٢)</sup> والحروب الأهليّة. فأين مساكن عاد وثمود؟ وأين قرى المؤتفكات<sup>(٣)</sup>؟ وأين أغادير في المغرب وأين الأصنام<sup>(٤)</sup> في الجزائر وأين بومبي في جنوب إيطاليا وأين فوكوشيميا في اليابان وأين مساكن الأنباط؟ وأين مئات المدن والقرى في فلسطين قبل الاحتلال؟ وأين حلب والغوطة وقد سُويت بالأرض؟ وأين وأين؟ ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مَهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ۗ ﴾<sup>(٥)</sup> مسطوراً ﴿ [الإسراء ٥٨].

(١) رواية أسطوريّة: رواية وَهْمِيّة مفرّقة.

(٢) السونامي: طوفان الأمواج التي تغرق كلّ شيء على السواحل في حال الزلازل البحريّة.

(٣) المؤتفكات: قرى ومدن قوم لوط عليه السلام في منطقة البحر الميت.

(٤) الأصنام: اسم مدينة جزائرية دمرها الزلزال في الستينيات من القرن الماضي.

(٥) في الكتاب: في كتاب القدر الذي كتبه الله قبل أن يخلق السماوات والأرض وكتب فيه تفاصيل ما هو كائن منذ ذلك اليوم وحتى تقوم الساعة.

ونختم بالقول إنّ القرآن كلّهُ حقّ وهو كلام الحقّ سبحانه نزل  
به الروح الأمين الحقّ على قلب الرسول الخاتم الحقّ ليبشّر به  
المتّقين الحقّ وينذر به يوم الفصل الحقّ. هذا القرآن ليس به  
حرف واحد ينتمي إلى الأساطير.



## من سورة الكهف (٢٩)

المعترُّ بدنياه .. والمعترُّ بدينه

يقول الحق سبحانه:-

١. ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحفناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نَهراً ﴿ وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً<sup>(١)</sup> ﴿ وما أظنّ الساعة قائمة<sup>(٢)</sup> ... ﴾

﴿ وأحيط بثمره<sup>(٣)</sup> فأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربيّ أحداً ﴿ [الكهف ٣٢-٤٢].

٢. ﴿ إنّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ﴿ ولا يستثنون<sup>(٤)</sup> ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴿ فأصبحت كالصريم<sup>(٥)</sup> ﴿ [القلم ١٧-٢٠].

(١) ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً: اغترّ ببستانه واعتقد أنّه يستحيل أن يهلك.  
(٢) وما أظنّ الساعة قائمة: أنكر البعث والحساب وهذا مصير من غرّته الحياة الدنيا.  
(٣) وأحيط بثمره: أرسل الله على بستانه آفة أهلكته جميعه أثناء الليل.  
(٤) ولا يستثنون: يقدّم مشيئته على مشيئة الله أي لا يقول "إن شاء الله".  
(٥) كالصريم: كالأرض المحروقة.

هذان مثلان مكّيان ضربهما الله لأناسٍ أنعم الله عليهم ووسّع عليهم أرزاقهم وبارك لهم فيها وجعل لهم أموالاً وجناناً وثماراً وأولاداً فماذا فعلوا بها؟ هل شكروا المنعم المتفضل؟ هل أدّوا حقوق هذه الجنان؟ هل أخرجوا زكاة الزروع؟ هل أعطوا الفقراء حقوقهم؟

الواضح من المثلين أنّهما لم يفعلوا شيئاً من ذلك. بل فعلوا نقيض<sup>(١)</sup> ذلك وأسوأ من ذلك. لم يكتفوا بحرمان الفقراء من حقوقهم بل افتخروا عليهم بأموالهم وأولادهم وتعالوا عليهم. فهم لم يشكروا الله على نعمه بل وأهانوا عباده ومنعوا حقوقهم وآذوهم ﴿ فقال لصاحبه أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً ﴾.

مثل هذه النفسيات المنتفخة بالكبر والغرور لابد أن يستدرجها الشيطان إلى الكفر وإلى الشرك وهذا ما حدث فعلاً. ﴿ قال ما أظنّ أن تبديد هذه أبداً ﴾. فهو يعتقد أنه سيخلد في هذه الدنيا أبد الدهر وأنه سيبقى ممسكاً بكلّ الخيوط في يده يحركها كيف يشاء. وما دفعه إلى قوله هذا إلا اعتقاده بأنّ بساتينه هي نتيجة كده وجهده وليست هبة من أحد أو رزقاً من الله. فهو يكرّر مقولة قارون ﴿ قال إنّما أوتيته على علمٍ عندي ﴾ [القصص ٧٨]. كما

(١) فعل نقيض ذلك: فعل عكس ما يتوجب عليه.

يكرّر مقولة الكافر في سورة فصّلت ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراءِ مسّته ليقولنّ هذا لي وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رُجعتُ إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ [فصّلت ٥٠].

لذلك جاء المثل ليقرّر أنّ الأموال دولة<sup>(١)</sup> بين الناس. فالناس بين ثريّ يفتقر وفقير يثرى.

﴿ وما أظنّ الساعة قائمة ﴾: فهو بين جحود نعمة المنعم وبين نكران البعث. فهو يتردد بين الكفر والشرك.

﴿ ولئن رُددتُ إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً ﴾: ويجادل أنّه على فرض صدقهم في مسألة البعث فإنّ ربّي كما أكرمني في الدنيا سيكرمني في الآخرة عملاً بمقولة مثل الجهلاء: "سعيد الدنيا سعيد الآخرة ومتعوس الدنيا متعوس الآخرة".

جاء المثل ليحلّل نفسيّة هؤلاء الأغنياء واعتدادهم بأنفسهم وافتخارهم على الفقراء بأموالهم ظناً منهم أنّهم قادرون على الاحتفاظ بها فلا زوال لها ولا نفاذ. ولا قدرة لأحدٍ فوق قدرتهم عليها ولا حكم أنفذ من حكمهم فيها. إنّهم يرون أنّ الفضيلة وليدة الثراء فلا فضيلة لمن لا مال له وأنّ الرجال إنّما تُقاسُ بما تملك من

(١) دولة بين الناس: الأموال وُجدتْ كي يتداولها الناس وتنتقل من يد إلى يد وليست لتُخبس وتُكنز في الصناديق أو في البنوك .

أموال. فجاء المثل ليقرّر أنّ التفاضل بين الناس إنّما يكون بالتّقوى والإيمان والعمل الصّالح والخُلُق الكريم وليس بالأعراض الزائلة.

أمّا في المثل الثاني (من سورة القلم) فيُقسم أبناء صاحب الجنّة بالله أن يجمعوا غلّة جنّتهم ليلاً حتّى لا يعطوا الفقراء والمساكين حقوقهم. والأدهى والأمر أنّهم يقدّموا مشيئتهم على مشيئة الرحمن ﴿ ولا يستثنون ﴾: أي لا يقولوا إن شاء الله.

ونعود للمثل:

**الطرف الأوّل: (المشبهه):** غنيّ منفوخ بأعراض الدنيا من مال وولد وجنّات يكفر بأنعم الله ويجحد فضل الله عليه وينكر البعث ويتميّ على الله الأمانيّ مع كفره وشركه.

**الطرف الثاني: (المشبهه به):** فقير مؤمن برّبّه يعتزّ بإيمانه وتقواه.

**أدوات التشبيه:** ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾.

**وجه الشبه:** صورتان متضادّتان إحداهما لغنيّ يفتخر بدنياه والأخرى لفقير يعتزّ بدينه وتقواه. والبقاء للأصحّ والدوام للأصلح.

والأصحّ والأصلح هو ما عبّر عنه القرآن: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [القَصَصُ ٨٣].

يتوسّع القرآن الكريم في رسم صورة ثراء الغنيّ تمهّد لما هو فيه من غطرسة وتعالٍ وطغيان. جنّتان واسعتان متّصلتان يفصل بينهما زرع وخضرة فلا تقع العين على غير الخيرات والنعم. أشجار الفاكهة مثقلة بالثمار والأنهار تجري فيها ممّا يزيد في شعوره بالغي. هذا الغنيّ في طريقه إلى جنّته يلتقي صاحبه الفقير المؤمن التقيّ فيزداد غطرسة عند رؤية فقير ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ [العلق ٦-٧].

هذا الغنيّ البطر يتمادى في ضلاله حتى يترأى له أنّ الفناء أعجز من أن ينال من جنّته ويعرب عن شكّه في قيام الساعة. فلقدنه الله درساً يتناسب ومداركه التي لا تتعدّى الظواهر المحسوسة ولا يتجاوز بصره طرف أنفه. فيفاجئه الله بفناء جنّته التي هي مصدر غطرسته وتعاليه ﴿ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾.

ويدرك الغنيّ أنّ الأموال إنّ هي إلا عرض زائل لا سلطان للمرء عليه ويوقن أنّ الله على كلّ شيء قدير ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ وأنّ سعيه سوف يرى ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم ٣٩-٤١].

ويندم ويتراجع عن خطئه ولكن بعد فوات الأوان ويقول ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ قالها بعدما رأى بأس الله وليست

مقبولة. لقوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ  
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لَمَّا رَأَوْا  
 بَأْسَنَا ﴿ [غافر ٨٤-٨٥].

نقل الإمام السُّهَيْلِيُّ عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْمَقْرِيِّ أَنَّ اسْمَ  
 الْمُؤْمِنِ كَانَ (تَمْلِيحًا) وَاسْمَ الْكَافِرِ كَانَ (فَوطيس). وَأَنْهُمَا كَانَا  
 شَرِيكَيْنِ ثُمَّ اقْتَسَمَا الْمَالَ فَصَارَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ.  
 فَاشْتَرَى الْمُؤْمِنُ عَبِيدًا بِأَلْفٍ وَأَعْتَقَهُمْ. وَبِالْأَلْفِ الثَّانِيَةِ ثِيَابًا وَكَسَا  
 الْعِرَاءَ. وَبِالْأَلْفِ الثَّلَاثَةِ طَعَامًا وَأَطْعَمَ الْجِيَاعَ. وَبَنَى مَسَاجِدَ وَفَعَلَ  
 خَيْرًا.

أَمَّا الْكَافِرُ فَنَكَحَ<sup>(١)</sup> بِمَالِهِ نِسَاءً ثَرِيَّاتٍ وَاشْتَرَى دَوَابًّا وَبَقْرًا  
 فَاسْتَنْتَجَهَا<sup>(٢)</sup> فَنَمَتَ نَمَاءً مُفْرَطًا<sup>(٣)</sup> وَاتَّجَرَ بِبَاقِي نَقُودِهِ فَرَبِحَ حَتَّى  
 فَاقَ أَهْلَ زَمَانِهِ غِنَى<sup>(٤)</sup>. وَأَذْرَكَتْ الْمُؤْمِنُ الْحَاجَةَ<sup>(٥)</sup> فَأَرَادَ أَنْ  
 يَسْتَأْجِرَ نَفْسَهُ فِي جَنَّةٍ يَخْدُمُهَا<sup>(٦)</sup>. فَذَهَبَ إِلَى صَاحِبِهِ وَشَرِيكِهِ

(١) نكح: أي تزوج.

(٢) فاستنتجها: عمل مزرعة بقر وبهائم لتتوالد وتتكاثر.

(٣) فَنَمَتَ نَمَاءً مُفْرَطًا: تكاثرت بسرعة وزاد عددها بفضل الله.

(٤) وَاتَّجَرَ بِبَاقِي نَقُودِهِ فَرَبِحَ حَتَّى فَاقَ أَهْلَ زَمَانِهِ غِنَى: أي تاجر بباقي نقوده فربح أرباحاً

طائلة حتى أصبح أغنى رجل في زمانه.

(٥) أَذْرَكَتْ الْمُؤْمِنُ الْحَاجَةَ: اشتدَّ به الفقر لأنَّه أنفق كلَّ نقوده في عمل الخير.

(٦) أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْجِرَ نَفْسَهُ فِي جَنَّةٍ يَخْدُمُهَا: لأنَّه مزارع أراد أن يعمل في بستان غيره بالأجرة.

الكافر كي يعمل أجيراً في جنّته. فلما عرفه الكافر وعرف مسألته<sup>(١)</sup> قال: ألم أكن قاسمك المال شطرين<sup>(٢)</sup>؟ فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريتُ به من الله ما هو خير منه وأبقى. قال الغنيّ الكافر: ما أراك إلاّ سفيهاً<sup>(٣)</sup>. أئنك لمن المصدّقين<sup>(٤)</sup>؟ ما أظنّ الساعة قائمة<sup>(٥)</sup>. وما جزاؤك على سفاهتك إلاّ الحرمان<sup>(٦)</sup>. أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المآل<sup>(٧)</sup>؟ ذلك أني كسبت. وسفّحت أنت<sup>(٨)</sup>. أخرج عنيّ.

ويبقى من القصة سؤال يدور في النفس. لقد رأينا مصير جنّة الكافر التي لم يشكر الله عليها وتغطرس بسببها على عباد الله وأنكر البعث والنشور.

ولكن أين جزاء الكفر والشرك الذي رأيناه في هذا المثل؟

وَيُكْمِلُ لَنَا الْإِمَامُ السُّدِّي الْقِصَّةَ فَيَقُولُ:

- 
- (١) عرف مسألته: أي عرف أنّه يطلب عملاً بالأجرة في بستانه.  
(٢) ألم أكن قاسمك المال شطرين: ألم نكن شركاء ثم أنهينا الشراكة وتقاسمنا المال بالنصف وبالتساوي.  
(٣) سفيهاً: مجنوناً ناقص عقل وحكمة.  
(٤) أئنك لمن المصدّقين؟: أئنصّدق أنّ هناك بعثاً بعد الموت وحساباً وجنةً وناراً؟  
(٥) ما أظنّ الساعة قائمة: هذا رأي الكافر. فهو يعتقد أن لا بعث ولا حساب.  
(٦) الحرمان: أي رفض أن يشغله في بستانه.  
(٧) آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المآل: ألم تتركيف صنعتُ بمالي حتى أصبح ثروة عظيمة لا يملك أحد مثلها.  
(٨) سفّحت أنت: تصرّفت في نقودك بغير حكمة فأضععتها.

"فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة فإذا هو بأرض  
ونخل وثمار وأنهار ثم إذا هو برقيق<sup>(١)</sup> لا تُحصى عدّتهم ثم إذا هو  
بقبة من ياقوتة حمراء مجوّفة<sup>(٢)</sup> فيها حوراء عيناء<sup>(٣)</sup> فيقول: لمن  
هذا كله؟ فيقال: هذا لك. فيقول: سبحان الله أوبلغ من فضل  
عملي أن أثنى بمثل هذا؟<sup>(٤)</sup>

ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر وهو يتسامر مع رفقائه في الجنة  
ويؤد أن يعرف مصيره. فيقول الله سبحانه: ﴿هل أنتم  
مُطَّلِعُونَ﴾<sup>(٥)</sup> فاطَّلَعَ هو وأصحابه من كوة<sup>(٦)</sup> إلى أهل النار ﴿فَرَأَاهُ  
فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ﴾<sup>(١)</sup> قال تالله إن كِدْتَ لَتُزْدِينَ ۝ ولولا نعمة  
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿<sup>(٢)</sup> [الصفات ٦٠-٦١].

- 
- (١) رقيق: خدم في خدمة المؤمن جزاء على عتقه العبيد في الدنيا.  
(٢) قبة من ياقوتة حمراء مجوّفة: أي قصر محفور داخل ياقوتة حمراء ضخمة.  
(٣) حوراء عيناء: زوجة من الحور العين فائقة الجمال.  
(٤) أوبلغ من فضل عملي أن أثنى بمثل هذا؟: هو يرى أنّ ثواب عمله أعظم بكثير مما أنفقه في سبيل الله في الدنيا. وهذا من باب الحمد والشكر لله.  
(٥) ﴿هل أنتم مُطَّلِعُونَ﴾: كلّ شخص يدخل الجنة عنده في قصره ما يشبه جهاز تليفزيون أحدهما لرؤية أهل النار وهم يُعدّون في الجحيم. والآخر لرؤية الله العزيز الكريم ليشكره أن نجّاه من العذاب. وأهل الجنة لا يشناقون لشيء اشتياقهم لرؤية وجه الكريم سبحانه.  
(٦) كوة: فتحة وهو ما يشبه جهاز تليفزيون.  
(١) سواء الجحيم: وسط النار.  
(٢) ﴿ولولا نعمة ربّي لكنت من المُحْضَرِينَ﴾: ولولا أن رحمني الله ونجّاني من العذاب لكنت سمعت كلامك في الدنيا فكنت الآن من المُعَدِّين.



ثمّ ينظر إلى ما هو فيه من نعيم مقيم وما حوله من مُلكٍ  
عظيم فيشكر الله:

﴿ إنّ هذا لهو الفوز العظيم ﴿٥٤﴾ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾  
[الصّافات ٥٤-٥٧].

وبهذا تمّت الإجابة على السؤال والحمد لله ربّ العالمين.

## من سورة الحجّ (٣٠)

﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَحْيِي الْمَوْتَى ﴾

١. قال الحقّ سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ... ﴾ [الحج ٥].

٢. وقال سبحانه: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الرّوم ٥٠].

٣. وقال سبحانه: ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فُصِّلَتْ ٣٩].

٤. وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعِنَبًا وَقَضْبًا<sup>(١)</sup> ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلْبًا<sup>(٢)</sup> ۚ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا<sup>(٣)</sup> ۚ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس ٢٤ - ٣٢].

هنا مثلان ضربهما الله للبعث وإحياء الموتى من القبور.

(١) قَضْبًا: طازجاً طرياً كالخيار والقثّة.

(٢) غُلْبًا: ضخمة متشابكة الأغصان.

(٣) أَبًّا: عشب ومرعى للبهائم كالبرسيم.

**الظرف الأول (المشبه):** البعث والنشور وإحياء الموتى. ﴿ ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ وأَنَّهُ يحيي الموتى وأَنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنَّ الله يبعث من في القبور ﴿ [الحجَّ ٦-٧].

**الظرف الثاني (المشبه به):**

١. أصل الخلق من تراب ثم من مراحل حتَّى يخرج طفلاً.

٢. الأرض الهامدة الميَّتة.

### أوجه الشبه:

١. الآية رقم (١) وهي من سورة الحج ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ... ﴾ ثم نخرجكم طفلاً ﴿. هذا مثل ضربه الله لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة. فضرب لهم مثل أصل الخلق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة. قال سبحانه: ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه ٥٥]. أي من الأرض مبدؤكم فإنَّ أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض<sup>(١)</sup>. وإلى الأرض تصيرون إذا مُتُّم وَبَلِّيتُمْ ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿ يوم يدعوكم فَتَسْتَجِيبُونَ بحمده وتظنون إنَّ لبثتم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء ٥٢].

(١) من أديم الأرض: من التراب الذى على سطح الأرض.

٢. ولكن لأنّ هذه المراحل لا تكون مشاهدة ومحسوسة لكلّ إنسان بل تحدث في رحم المرأة بعيداً عن أنظارنا لذلك ضرب الله لنا دليلاً آخرًا ومثلاً حاضراً على قدرته سبحانه على إحياء الموتى. [الآيات ٢ - ٣ - ٤] في بداية الموضوع.

ذلك مثل الأرض الميتة الهامدة المُجْدِبَة لا ينبت فيها شيء. فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وتحركت بالنبات وحييت بعد موتها. فأخرجت ما فيها من نبات وزروع وفواكه على اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها وأنبتت من كلّ زوج بهيج يسر الناظرين.

إنّ الذي أحيا هذه الأرض الميتة المُفْجِلَة<sup>(١)</sup> هو سبحانه محيي الموتى بعدما صاروا في قبورهم عظاماً وتراباً ورفاتاً وتفرقت أشلاؤهم ويوجدُهُم بعد العدم وبنفس الطريقة التي أحيا بها الأرض.

يأمر الله السماء فتمطر مطراً كثيفاً من تحت العرش كمني الرجال لأربعين يوماً. فتختلط بهذا المطر بذرة الإنسان وهي "عَجَبُ الدَّنْبِ" التي لا تبلى ولا تأكلها النار ولا تهضمها المعدة وتستعصي على الكسر والتلف. و"عجب الدَّنْبِ" هي الفقرة الأخيرة أسفل العمود الفقري للإنسان وبها كلّ الصفات الوراثية

(١) المُفْجِلَة: الهامدة المُجْدِبَة الميتة.

للشخص وبها كل أسرار الخلق. فهي الصندوق الأسود للإنسان  
فينبت جسم الإنسان من جديد من هذه البذرة ويشقّ سقف  
القبر برأسه كما يشقّ النبات الأرض ليخرج إلى النور. حتى إذا  
اكتمل النمو أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور. والصور هو قزْن  
يُنْفَخُ فيه مُحيط دائرته كما بين السماء والأرض. وفيه موضع  
أرواح العباد.

فإذا أمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث تخرج الأرواح من  
الصور مع النفخ وهي تتوهّج. فيقول الله سبحانه "وعزّتي وجلالي  
لترجعنّ كلّ روح إلى البدن الذي كانت تَعْمُرُهُ في الدنيا فتدخل على  
الأجساد فتدبّ فيها الحياة كما يدبّ السمّ في اللديغ." (١)

فتحيا الأجساد ويخرجون من الأجداث (٢) سراعاً. ﴿ وَنُفِخَ فِي  
الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون (٣) ﴾ قالوا يا ويلنا  
من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴿ إن  
كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ لدينا مُخَضَّرُونَ ﴾ [يس  
٥١-٥٣].

فأول ما يفعله الخارج من الموت أن يَنْفُضَ ما تبقي من تراب

(١) كما يدبّ السمّ في اللديغ: المعنى أنّ الحياة تصلّ إلى كلّ خلية في جسم الإنسان.

(٢) الأجداث: القبور.

(٣) ينسلون: يخرجون من القبور إلى ربّهم مسرعين.

القبر عن رأسه وهو في كامل خلخته وكامل وَعْيِهِ وكامل شعوره  
وكامل ذاكرته. وخير تشبيه لحالته كمن استفاق من سُباتٍ  
عميق<sup>(١)</sup> أو كشيخ عاد لوعيه بعد غيبوبة.  
قال الحقّ سبحانه:

﴿ ويوم تقوم الساعة يُقسِمُ المجرمون ما لبثوا غير ساعة  
كذلك كانوا يُؤفكون ﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لَبِئْتُمْ  
في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا  
تعلمون ﴾ [الرّوم ٥٥ - ٥٦].

ثمَّ يُصْغِي إلى مصدر الصوت من الصور فيتوجّه نحوه إلى أرض  
المحشر والجزاء. ﴿ فليُنظر الإنسان إلى طعامه ﴾ هنا استدلال  
بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما  
أصبحت عظاماً بالية وتراباً متفترقاً.

عن لقيط بن عامر أنّه قال: قُلْتُ يا رسول الله كيف يحيي الله  
الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: "أما  
مَرَرْتُ بوادي أهلك مُمَجَلًا؟<sup>(٢)</sup> قلت بلى: قال ثمَّ مَرَرْتُ به يهتَرُّ  
خَضِرًا؟ قلت بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في  
خلقه". [أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجّة]

(١) كمن استفاق من سبات عميق: كمن استيقظ من نوم طويل.  
(٢) مُمَجَلًا: قفراً خالياً من النبات.

وعن أبي سعيد الخُدريّ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:  
 "يَأْكُلُ التُّرَابَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ. قِيلَ وَمَا هُوَ يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْهُ تُنْشَأُونَ".<sup>(١)</sup> [أَخْرَجَهُ ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: "كُلَّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ  
 وَفِيهِ يُرَكَّبُ". [أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ].

وَيَقُولُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي حَدِيثٍ  
 مَوْقُوفٍ<sup>(٢)</sup> وَهَذَا جُزْءٌ مِنَ الْحَدِيثِ: "ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ مَا  
 شَاءَ اللَّهُ فَلَيْسَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ".  
 [الْمَقْصُودُ بِهَذَا الشَّيْءِ هُوَ بَذْرَةُ الْإِنْسَانِ أَوْ "عَجَبُ الذَّنْبِ" الَّذِي  
 بِهِ كُلُّ أَسْرَارِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَبِصِمَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الْوَرَاثِيَّةِ]. "ثُمَّ يَرْسِلُ  
 اللَّهُ مَاءً مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ كَمَنِي الرِّجَالِ فَتَنْبُتُ لُحْمَانِهِمْ  
 وَجُثْمَانِهِمْ<sup>(٣)</sup> كَمَا تَنْبُتُ الْأَرْضُ مِنَ الثَّرَى"<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ  
 ﷺ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ  
 فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﷻ [فَاطِرٌ ٩]. ثُمَّ يَقُومُ  
 مَلَكٌ بِالصُّورِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَيَنْفِخُ فِيهِ فَيَنْطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى

(١) تُنْشَأُونَ: يَتِمُّ إِعَادَةُ خَلْقِكُمْ مِنْ جَدِيدٍ.

(٢) الْحَدِيثُ الْمَوْقُوفُ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابِيِّ وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) تَنْبُتُ لُحْمَانِهِمْ وَجُثْمَانِهِمْ: تَنْبُتُ أَجْسَادُهُمْ.

(٤) كَمَا تَنْبُتُ الْأَرْضُ مِنَ الثَّرَى: كَمَا تُخْرَجُ الْأَرْضُ نَبَاتِهَا إِذَا أَصَابَهَا الْمَاءُ.

جسدها فتدخل فيه فيقومون فيجيئون مجيئة رجل واحد قياماً  
لرب العالمين". وهو جزء من حديث صحيح على شرط الشيخين  
ولم يخرجاه. والحديث يحمل الترقيم العالمي رقم ٨٨٩٣ وهو  
مأخوذ من موسوعة الحديث من على إسلام ويب دوت كوم  
كتاب المستدرک على الصّحيحين كتاب الأھوال.



## من سورة الحجّ (٣١) خاسر الدنيا والآخرة

قال الحقّ سبحانه:

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ <sup>(١)</sup> فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ  
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ  
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه ذلك  
هو الضلال البعيد ﴿ يدعو لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبئس المولى <sup>(٢)</sup>  
ولبئس العشير <sup>(٣)</sup> ﴾ [الحجّ ١١ - ١٣].

هذه الآيات تقدّم لنا أنموذجاً <sup>(٤)</sup> من الناس يطلب الدّنيا من  
الدين. فإنّ وجد في الدين غايته وهدفه إطمأنّ به. وإنّ أصابه ابتلاء  
ارتدّ عن الدين وعاد إلى كفره وشركه.

وانظر إلى الصورة البديعة التي تمّ بها وصف عمله ﴿ انقلب على  
وجهه ﴾ أي ارتدّ على عقبه كافرّاً ساخطاً على هذا الدّين. فهو يريد  
من وراء الدين يُسرّاً لا عُسر فيه ورخاء لا شدّة معه وراحة لا تعب  
بعدها. ينضمّ إلى حزب الله بشكل مؤقت تجرّبيّ فإنّ حصل على ما

(١) على حَرْفٍ: على شكّ وقلق وتردّد في الدين.

(٢) لبئس المولى: ساء مثل هذا المعبود.

(٣) لبئس العشير: ساء مثل هذا المصاحب المعاشر.

(٤) أنموذجاً: نوعاً أو فئة.

يرجوه من الدنيا وإلا انقلب ضائقاً بالدين صدره<sup>(١)</sup>. غير مطمئنة لهذا الدين نفسه. ألم يسمع قول الله عز وجل ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين ﴿ [العنكبوت ٢ - ٣].

قال ابن عباس: كان الرجل يقدم<sup>(٣)</sup> المدينة فيبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعود إلى أهله. فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله<sup>(٤)</sup> وتوالدت إبله قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله وأصاب إبله مرض قال: هذا دين سوء. [انتهى]

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قريباً من هذا فقال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون. فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث ورخاء وعام خصب وعام ولاد<sup>(٥)</sup> حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به. وإن وجدوا عام جذب وعام قحط<sup>(٦)</sup> قالوا: ما في ديننا هذا خير. فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ ... الآيات.

(١) انقلب ضائقاً بالدين صدره: ارتدّ كافرًا بالدين.

(٢) لا يُفْتَنُونَ: لا يُبْتَلُونَ ولا يُخْتَبَرُونَ.

(٣) يَاقِدُ: يَأْتِي.

(٤) نتجت خيله: تكاثرت بالتوالد.

(٥) عام ولاد: عام تتكاثر فيه أنعامهم بالتوالد.

(٦) جذب وقحط: فقر وحرمان.

وفي الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدريّ إضاءة إضافية على هذا النموذج من النفوس المذبذبة. قال رضي الله عنه: "أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام. فأتى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أَقْلِنِي<sup>(١)</sup>. فقال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُقَالُ<sup>(٢)</sup>. فقال الرجل: إِنِّي لَمْ أُصِبْ فِي دِينِي هَذَا خَيْرًا. ذهب بصري ومالي وولدي. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا يَهُودِيّ إِنَّ الْإِسْلَامَ يَسْبِكُ الرِّجَالَ<sup>(٣)</sup> كَمَا تَسْبِكُ النَّارُ خَبْثَ الْحَدِيدِ وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ". [أخرجه بن مَرْدَوِيهِ].

هذه الروايات والأحداث كانت أسباباً لنزول الآيات. إنّما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فالآيات مجالها بالتأكيد أرحب وأوسع من ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: المقصود بالآيات هو المنافق. إنّ صَلَحَتْ له دنياه أقام على العبادة<sup>(٤)</sup>. وإنّ فسدت عليه دنياه وتغيّرت انقلب وترك العبادة وارتدّ كافراً.

**ونعود للمثل:**

(١) أقلني: أعفني من هذا الدين. يريد أن يفسخ عهده مع النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.  
(٢) إنّ الإسلام لا يُقال: الإسلام له باب واحد فقط مخصّص للدخول ولا أبواب للخروج.  
(٣) يسبك الرجال: يصهرهم في بوتقة ليفصل عنهم الشكوك والأوهام والخبث ويبقى في قلوبهم الإيمان الخالص.  
(٤) أقام على العبادة: استمرّ في العبادة.

الطَّرْفِ الْأَوَّلِ (المشبهه): مَنْ طَلَبَ الدِّينَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا.

الطَّرْفِ الثَّانِي (المشبهه به): هُوَ كَالْقَائِمِ عَلَى طَرَفِ جَبَلٍ أَوْ حَاقَّةٍ هَاوِيَةٍ.

وهنا انطبق المشبه به على المشبهه تمام التطابق فحذف المشبهه واستُبدِلَ بالمشبهه به. وفي هذه الحالة لا حاجة لأدوات تشبيهه.

وجه الشبهه: أصل المثل هو: مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ طَلْبًا لِلدُّنْيَا فَهُوَ كَمَنْ يَقِفُ عَلَى حَاقَّةٍ جَبَلٍ غَيْرِ مَطْمَئِنٍّ وَغَيْرِ ثَابِتٍ. فَإِنْ وَجَدَ فِي الْعِبَادَةِ بُغْيَتَهُ<sup>(١)</sup> وَهَدَفَهُ وَأَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا خَيْرًا اطمأن وتشبث بيديه ليبقى قائماً على قمة الجبل. وإن لم يجد طلبه خاب أمله وارتدّ كافراً كمن سقط من علٍ<sup>(٢)</sup> إلى الهاوية فخرس كل شيء. خسر آخرته ولم يكسب دنياه. لأنّ أمر الدنيا والآخرة كلاهما بيد الله. ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ [النساء ١٣٤].

وكمثال على ما نقول أنّ شَيْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَدَايَةِ الْإِسْلَامِ وَقَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الدِّينَ<sup>(٣)</sup> فَقَالَ: أَدْعُ لِي

(١) بُغْيَتُهُ: مَطْلَبُهُ.

(٢) عَلٍ: مَكَانٌ مَرْتَفِعٌ.

(٣) يَظْهَرُ الدِّينَ: يَنْتَشِرُ.

رَبِّكَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا وَإِبْلًا وَخِيَلًا وَوَلَدًا حَتَّى أُوْمِنَ بِكَ وَأَعْدِلَ إِلَى دِينِكَ<sup>(١)</sup>. فدعا له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَزَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَمَنَّى. ثُمَّ أَرَادَ اللهُ فَتْنَتَهُ وَاجْتِبَارَهُ وَهُوَ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مَا كَانَ رِزْقَهُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ فَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ.

هذه الآيات تكشف نفوساً خبيثة قلقة مضطربة. عقائدهم ليست خالصة لله. يعبدون الله على حرف في شك وارتياب وفي غير ثبات ولا طمأنينة فكأنه واقف على حرف جبل أو على شفا حفرة هاوية<sup>(٢)</sup>. جرى لسانه بالإسلام في حالة غفلة من قلبه. لم يذق قلبه حلاوة اليقين. فهو مذذب بين حزب الله وحزب الشيطان. متردد بين التصديق والتكذيب وبين الإيمان والكفر. فتكون عاقبتهم ﴿ الخسران المبين ﴾ ولا يكتفون بذلك فيدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم فيضيفون إلى الخسران المبين ﴿ الضلال البعيد ﴾. فهم أناس محرومون من نعمة العقل لا يفرقون بين الضار والنافع ولا بين الخير والشر ولا بين الفضيلة والرديلة.

وهل هناك خسران بعد هذا الخسران؟ وهل هناك ضلال أبعد من هذا الضلال؟ الجواب نعم. ما زال في كأس الخسران قطرات

(١) أعدل إلى دينك: أتحوّل إلى الإسلام.  
(٢) على شفا حفرة هاوية: على حافة حفرة عميقة.

وما زال في مشوار الضلال خطوات. فالآيات تصوّر لنا شخصاً قليلاً  
التدبّر سيء التقدير ناقص العقل ناقص الإيمان ﴿ يدعو لمن صرّه  
أقرب من نفعه ﴾: فهو يدعو من دون الله صنماً أو قبراً أو صاحب  
قبرٍ أو شيطاناً مريداً لا يملك له نفعاً في الدنيا ويكون سبباً في ضياع  
آخرته وخلوده في النار. فبئس هذا الوثن وبئس هذا المعبود  
الباطل. ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾.

وهذا يُدكّرنا بكلام الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿ وقال  
إنّما اتّخذتُم من دون الله أوثاناً مودةً بينكم <sup>(١)</sup> في الحياة الدنيا ثمّ  
يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم  
النار <sup>(٢)</sup> وما لكم من ناصرين ﴾ [العنكبوت ٢٥].

فكيف يُؤثر <sup>(٣)</sup> عاقل ما يفنى <sup>(٤)</sup> على ما يبقى <sup>(٥)</sup> ويهتّم بما هو

زائل عمّا هو باقٍ وخالد؟ وكيف يُؤثر الدنيا على الآخرة؟

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "الدنيا دارٌ مَنْ لا دارَ له  
ومالٌ مَنْ لا مالَ له ولها يجمع مَنْ لا عقلَ له". [أخرجه الإمام  
أحمد عن عائشة مرفوعاً].

(١) مودة بينكم: للود والتواصل بينكم.

(٢) مأواكم النار: منزلكم ومصيركم إلى النار.

(٣) يُؤثر: يختار ويفضّل.

(٤) ما يفنى: الحياة الدنيا.

(٥) ما يبقى: الآخرة.

وفي الحديث: "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ  
أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى". [أخرجه الإمام أحمد عن  
أبي موسى الأشعري مرفوعاً].

لقد صوّر لنا هذا المثل صورة ذات أبعاد وألوان لخاسر الدّنيا  
والآخرة. صورة يُدركها العقل وتراها العين ونقابها كلّ يوم في  
طريق الحياة.

## من سورة الحجّ

(٣٢)

مصيرُ المشرك بالله

قال الحقّ سبحانه:

﴿ فاجتنبوا الرّجس<sup>(١)</sup> من الأوثان واجتنبوا قول الزّور ﴿ حنفاء<sup>(٢)</sup> لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ<sup>(٣)</sup> من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح<sup>(٤)</sup> في مكان سحيق<sup>(٥)</sup> ﴾ [الحجّ ١١ - ١٣].

أمّرتنا الحقّ سبحانه بطاعات في أداء مناسك الحجّ ونهانا عن معاصي ومحارم. فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل كذلك على ترك المحرّمات واجتناب المحظورات.

قال مجاهد: الحرماتُ هي مكّة والحجّ والعمرة وما نهى الله عنه من معاصي. وقوله: ﴿ فاجتنبوا الرّجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور ﴾ أي اجتنبوا الأوثان فإنّها رجس ونجاسة وقرن بين الشّرك بالله وقول الزّور. وفي الصّحيحين عن أبي بكرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله

(١) الرّجس: القذارة والنّجاسة.

(٢) حنفاء: مبتعدين عن الباطل إلى الدين الحقّ.

(٣) خرّ: سقط.

(٤) تهوي به الرّيح: تسقطه الريح وتقذفه.

(٥) مكان سحيق: قاع واد عميق مُهلك.



قال: " الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَكَانَ مَتَكْنَأً فَجَلَسَ - فَقَالَ: " أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ " فَمَا زَالَ يَكْرَرُهَا حَتَّى قَلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ ". [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

وَعَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّبْحَ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِمًا فَقَالَ: "عَدَلْتُ" <sup>(١)</sup> شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ". [أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ].

وَنَعُودُ إِلَى الْمَثَلِ. فَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ لِلْمَشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى فَقَالَ: ﴿ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .  
هَذَا مِثْلُ مَدَنِيٍّ مَعَ أَنَّ سُورَةَ الْحَجِّ فِيهَا الْمَكِّيُّ وَفِيهَا الْمَدَنِيُّ.

وَيُمْكِنُ التَّعَامُلُ مَعَ الْمَثَلِ بِطَرِيقَتَيْنِ:

أ- نَجْعَلُهُ تَشْبِيهًا عَامًّا شَامِلًا: أَي نَأْخُذُ كَلًّا مِنَ الْمَشْبَهَةِ وَالْمَشْبَهِ بِهِ جُمْلَةً دُونَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى التَّفَاصِيلِ.

ب- أَوْ نَجْعَلُهُ تَشْبِيهًا مُفَرَّقًا: أَي كُلَّ تَفْصِيلٍ مِنَ الْمَشْبَهَةِ مَعَ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ تَفْصِيلٍ مِنَ الْمَشْبَهِ بِهِ.

وَنَبْدَأُ بِالطَّرِيقَةِ الْأُولَى: التَّشْبِيهِ الْعَامِّ الشَّامِلِ:

(١) عَدَلْتُ: تَسَاوَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ مَعَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ فِي الْإِثْمِ وَالْجَرِيمَةِ وَالْعِقَابِ.

**الطَّرْفُ الأوَّل (المشَبَّه):** شخص أشرك بالله وَعَبَدَ معه غيره فتسبَّب في هلاك نفسه هلاكاً لا يُرْجى معه نِجاة<sup>(١)</sup>.

**الطَّرْفُ الثاني (المشَبَّه به):** شخص خرَّ من السماء<sup>(٢)</sup> فاخْتَطَفَتْهُ الطيرُ الجوارح<sup>(٣)</sup> أثناء سقوطه فمزقته مِرْعاً وإرباً<sup>(٤)</sup> في حواصلها<sup>(٥)</sup> أو عَصَفَتْ به الرِّيحُ حتَّى أَلْقَتْ به في قاع وادٍ عميقٍ مُهْلِكٌ.

**أداة التشبيه " كَلمة فكأنما.**

**وجه الشَّبه:** شَبَّه الله من يشرك به غيره كشخص سقط من السماء إلى الأرض وأثناء السَّقُوط تناوشته النَّسُور والصَّقُور وباقي الطيور الجارحة فقطعته قطعاً إلتَهَمَتْها في حواصلها وبطونها. أو جاءته ريح عاصفة شديدة فحملته بعيداً ورمته في قاع وادٍ بعيد من يسقط فيه فلا ينجو أبداً. هذا تشبيه لحاله ومصيره في الدنيا. أمَّا في الآخرة فهو في الدَّرْكِ الأسفل<sup>(٦)</sup> من النار وأشدَّ العذاب في انتظاره.

(١) هلاكاً لا يُرْجى معه نِجاة: هلاكاً لا ينجو منه أبداً.

(٢) خرَّ من السماء: سقط من السماء إلى الأرض.

(٣) الطيرُ الجوارح: الطيور الضخمة آكلة اللحوم كالنسور والصقور والغربان.

(٤) مِرْعاً وإرباً: قطعاً صغيرة.

(٥) حواصلها: جمع "حَوْصلة" وهي مِعْدَةُ الطائر.

(٦) الدَّرْكِ الأسفل: الطبقة السفلى من النَّار والأشدَّ عذاباً.

الطريقة الثانية: التشبيه المفروق:

في هذا المثل شبه الإيمان والتوحيد في علوه وشرفه وسعته  
بالسماء التي نزل منها الوحي والتنزيل وإليها يصعد العمل الصالح.  
فالسماء مهبط الإيمان ومصعد ثمرة الإيمان.

وشبه تارك الإيمان والتوحيد (أي المشرك أو الكافر) بالساقط  
من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضيق الشديد والآلام  
المتراكمة والضلال البعيد. فلا إيمان عنده يُقبل ولا عملة يُرفع.

وشبه الشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى تؤزّه أراً<sup>(١)</sup>  
وتزعجه وتقلقه ويكونوا له قرناء شبههم بالطير الجوارح التي  
تخطف أعضائه وتمزق لحمه كل ممزق. فلكل شيطان قطعة من  
دينه وقلبه كذلك لكل طير قطعة من لحمه وأعضائه. ﴿ ألم تر أنّا  
أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم ٨٣]. ﴿ ومن  
يَعِشْ<sup>(٢)</sup> عن ذكر الرحمن نقيض له<sup>(٣)</sup> شيطاناً فهو له قرين<sup>(٤)</sup> ﴾  
[الزخرف ٣٦].

أمّا الريح التي تهوي به في مكان سحيق فهي تمثيل لهواه الذي

(١) تؤزّه أراً: تدفعه دفعاً إلى ارتكاب المعاصي.

(٢) من يَعِشْ: من يتعامى ويتغافل.

(٣) نقيض له: نوكلّ به.

(٤) قرين: مُصاحب لا يفارقه.

يعبده من دون الله. فكان مصيره السقوط المَدَوِّي<sup>(١)</sup> إلى أسفل مكان وأبعده عن رحمة الله. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ<sup>(٢)</sup> وكذلك نجزي المجرمين ﴿ [الأعراف ٤٠].

وعمل المشرك باطل مردود عليه فالله أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل عملاً أُشْرِكَ معه فيه غيره. والمشرك يخيب سَعْيِهِ في الآخرة ولا ينفعه من أشرك مع الله في الدنيا ويندم ويتحسّر يوم لا ينفع الندم.

عن أنس بن مالك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يقول الله تبارك وتعالى لِأَهْوَنٍ<sup>(٣)</sup> أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول [الله]: قد أَرَدْتُ منك<sup>(٤)</sup> أَهْوَنَ من هذا وأنت في صُلْبِ آدَمَ أن لا تشرك فأَبَيْتَ إِلَّا الشرك" [أخرجه الإمام مسلم].

الشُّرْكُ عمل كَرِيه مُقَرَّر فهو من صنف الظُّلْم والجور<sup>(٥)</sup>.

(١) مَدَوِّي: مُؤَلَم ومُهْلِك.

(٢) يَلِجُ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ: يَمُرُّ الْجَمَلُ مِنْ ثَقْبٍ أَوْ فَتْحَةِ الْإِبْرَةِ. وَهَذَا تَعْلِيقٌ مُسْتَحِيلٌ عَلَى مُسْتَحِيلٍ فَلَا الْجَمَلُ سَيَدْخُلُ مِنْ ثَقْبِ الْإِبْرَةِ وَلَا الْكَافِرُ سَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

(٣) لِأَهْوَنٍ: لِأَخْفَى / لِأَقْلَى.

(٤) أَرَدْتُ مِنْكَ: طَلَبْتُ مِنْكَ.

(٥) الْجَوْرُ: الظلم.

وضدّ العدل والقسط. ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنَيَّ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان ١٣]. ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً<sup>(١)</sup> ﴾ [الفرقان ٣].

فَمَنْ يَخْلُقُ وَمَنْ يَرْزُقُ وَمَنْ يَمْلِكُ وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأَمْرَ وَمَنْ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَنْ يَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ الْجَمِيعِ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَمَنْ هُوَ بِعِبَادِهِ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ أَحَقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَأَنْ يُحْمَدَ وَأَنْ يُشْكَرَ وَأَنْ يُسَبَّحَ وَأَنْ يُتَّقَى وَأَنْ يُدْعَى وَحْدَهُ بِلاِ أَيِّ شِرْكَاءٍ أَوْ أُنْدَادٍ.

وَمَنْ نِعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا أَنْ يَسِّرَ لَنَا الدِّينَ وَخَفَّفَ عَنَّا التَّكْلِيفَ<sup>(٢)</sup> وَضَاعَفَ لَنَا الْأَجْرَ وَجَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ أَبِيئِنِّ مُسْلِمِينَ وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى صَاحِبِ رَايَةِ الْحَمْدِ وَأَوَّلِ مَنْ تُفْتَحُ لَهُ الْجَنَّةُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَنَا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَرَمًا مِنْهُ وَفَضْلًا. رَوَى النَّسَائِيُّ عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِئِيَّ جَهَنَّمَ<sup>(٣)</sup>. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: "نَعَمْ وَإِنْ صَامَ

(١) نشوراً: بعثاً بعد الموت في الآخرة.

(٢) التكليف: العبادات.

(٣) جئِيَّ جهنّم: ممّن يُلقَى بهم على ركبهم في جهنّم.

وصلّى. فادعو بدعوة الله التي سمّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله". [أخرجه النَّسَائِي في سننه].

فالحمد لله الذي جعلنا أُمَّةً وَسَطًا<sup>(١)</sup> عُدُولًا خَيْرًا مَشْهُودًا بعدالتهم عند جميع الأمم لنكون يوم القيامة شهداء على الناس، وجميع الأمم معترفةً يومئذٍ بسيادة وفضل الأُمَّة المحمّدية على كلّ أُمَّة سواها. فلهذا يقبل الله شهادتهم يوم القيامة أنّ الرسل بلّغت أقوامهم رسالة الله والرسول صلّى الله عليه وسلّم يشهد على هذه الأُمَّة أنّه بلّغها ذلك.

أمّا من أشرك بالله وكفر وكذّب فهو يسير على خُطى أمم قد أهلكتها الله بسبب شركهم وكفرهم وتكذيبهم للرسول. فأين العقل؟ وأين الحكمة؟ ومن أين يأتي الفلاح وقد أخبرنا الله بعاقبة المشركين المكذّبين في الدنيا والآخرة.

---

(١) وَسَطًا: خَيْرًا.

## من سورة الحجّ (٣٣)

عجز المعبودات من دون الله

قال الحقّ سبحانه:

﴿ يا أيّها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإنّ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعْفَ الطّالب والمطلوب ﴿ ما قدروا الله حقّ قدره <sup>(١)</sup> إنّ الله لقويّ عزيز ﴾ [الحجّ ٧٣ - ٧٤].

يقول الحقّ سبحانه وتعالى: يا أيّها الناس جَعَلَ المشركون لي شَبَهاً ومَثَلاً. نحتوا أصناماً وأوثاناً وأسموها آلهة وجعلوها شركائي في العبادة. وربّما عبدوها وتقرّبوا إليها من دوني.

يا أيّها الناس هلّمّ فاستمعوا مَثَلٌ ما جعلوهم لي شركاء. إنّ هؤلاء الأوثان والأصنام وجميع ما تعبدون من دون الله لو جُمِعَتْ وطُلبَ منها أن تخلق ذباباً على صِغَرِهِ وهوانه لَعَجَزَتْ ولم تقدر على ذلك. إنّهم لن يقدروا على خلق ذباب ولو اجتمعوا له. والأذهى والأمرّ من ذلك - وما يكشف ما هم فيه من الضعف والعجز والهوان - أنّه لو سلبهم الذباب شيئاً فاجتمعوا جميعاً كي يستنقذوه منه لم يقدرُوا <sup>(٢)</sup>

(١) ما قدروا الله حقّ قدره: ما عَظّموه ما يستحقّه من التعظيم وما عرفوا مقدار قوّته.  
(٢) كي يستنقذوه منه لم يقدرُوا: لن يستطيعوا استرداد ما أخذه الذباب.

على ذلك. فكيف يضربوا مثلاً لربّ السماوات والأرض وربّ كلّ شيء؟ كيف يضربوا مثلاً للواحد القهار خالق كلّ شيء وليس كمثله شيء وهو مع كلّ شيء وأقرب من كلّ شيء قادر على كلّ شيء وهو العليّ العظيم.

هذا بلاغٌ قرآنيٌّ حازم. فبعد أن تحدّى ربّ العزّة والجلال الكفار والمشركين أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن وهُمْ مِنْهُمْ أهل الفصاحة والبيان والشُّعر. ويبيّن عجزهم وهزمهم وأخزاهم. بعد ذلك جاء التحدّي لآلهتهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله وأقاموا لها دور عبادة وقدموا لها النذور والقرايين. تحدّاهم الله أن يخلقوا كأضعف ما خلق: ذبابة. وأباح لهم أن يجتمعوا لتحقيق ذلك. وأنى لهم ذلك؟

ثمّ كان التحدّي الأكبر: أن يستنقذوا ويستردّوا ما سلبهم الذباب من الطيب والعسل الذي كان المشركون يضعونه على رؤوس أوثانهم. والنتيجة الفشل الذريع فهم أضعف من الذباب وهو أضعف خلق الله.

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النحل ٧٤].  
 ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾  
 [الإسراء ٤٨].



قال الأخفش في معاني القرآن ج ٢ / ص ٤٥٢:

"فإن قيل: فأين المثل؟ قلت: ليس هاهنا مثل".

وأنا أقول: بل هاهنا مثل ضربه الله في الثلاث كلمات الأخيرة من الآية:

### ﴿ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾

فَالطَّرْفِ الْأَوَّلِ (المشبهه): هو الطالب وهو هاهنا الوثن أو الصنم أو الند أو ما يعبدون من دون الله. فهو يطلب الذباب ليستنقذ منه ما سلبه من الطيب أو العسل.

وَالطَّرْفِ الثَّانِي (المشبهه به): هو المطلوب وهو هنا الذباب الذي ينتصر على طالبه.

أدوات التشبيه: محذوفة لأنها واضحة جلية من الآية ومن الكلام الذي سبق المثل. وعلى ذلك يكون التشبيه: "ضَعْفَ الطَّالِبِ كَمَا ضَعْفَ الْمَطْلُوبِ".

وجه الشبه: كلمة ضَعْفَ. فكلاهما ضعيف. فالذباب من أضعف خلق الله وأحقرها. ومع ذلك فالصنم مهزومٌ أمامه عاجز عن استرداد ما سلب فالصنم أضعف من الذباب.

﴿ ما قدروا الله حقَّ قدره ﴾ : يقول ابن كثير في شرحه للجمله:

ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه - أو من دونه - غيره  
من هذه الأنداد التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها وهوانها.  
[انتهى]

وَيَسْرُدُ لَنَا ابْنَ كَثِيرٍ قِصَّةَ أَبِي ذَرِّ الْغَفَارِيِّ حَيْثُ كَانَ لَهُ صِنْمٌ  
يَعْبُدُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ لِيَقْدِمَ لَهُ مَرَامِسِيمَ الطَّاعَةَ.  
فَوَجَدَ بِرَأْسِهِ بِلَالاً وَوَجَدَ ثَعْلَباً قَرِيباً مِنْهُ. فَعَلِمَ أَنَّ الثَّعْلَبَ قَدْ بَالَ  
عَلَى الصَّنَمِ. فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ مَتَعَجِّباً:

رَبُّ يَبُولِ الثُّعْلَبَانِ بِرَأْسِهِ      لَقَدْ ذَلَّ مِنْ بَالَتِ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ  
فَلَوْ كَانَ رَبًّا كَانَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ      فَلَا خَيْرَ فِي رَبِّ نَأْتُهُ<sup>(١)</sup> الْمَطَالِبُ

بَرِئْتُ مِنَ الْأَصْنَامِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا      وَأَمَنْتُ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ غَالِبُ  
يَبِينُ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَثَلِ حَقَارَةَ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةَ عُقُولِ  
عَابِدِيهَا. يَقُولُ اللَّهُ لِلْمَشْرِكِينَ بِهِ: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. كَمَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ  
ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة" [أخرجاه في  
الصَّحِيحَيْنِ وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ].

(١) نَأْتُهُ الْمَطَالِبُ: لَا يَطْلُبُ أَحَدٌ مِنْهُ أَيْ شَيْءٌ فَهُوَ حَجْرٌ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَلْبِيَّ وَلَوْ طَلَباً وَاحِداً.

هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك هم  
عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئاً ممّا على  
رؤوسهم من الطيب والعسل.

هؤلاء فعلاً ما عرفوا قدر الله وعظمته وعظيم قوّته وجبروته  
حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها  
وعجزها وهوانها. ويبقى الله القويّ العزيز الذي لا يُغلب ولا يُقهر  
الذي يبدأ الخلق ثم يعيده الرّزاق ذو القوّة المتين. سبحانه  
صاحب العزّة القائمة والمملكة الدائمة.

## من سورة النور (٣٤)

أعمال الكافرين ... سراب وظلمات

قال الحق سبحانه:

﴿ والذين كفروا أعمالُهُمْ كسرابٍ بَقِيعَةٍ <sup>(١)</sup> يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ <sup>(٢)</sup> يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور ٣٩ - ٤٠].

قسّم الله عباده في كتابه الكريم وبالتحديد في بداية سورة البقرة إلى ثلاث فئات: مؤمنون وكافرون وصنف ثالث بينهما وهم المنافقون. ولكلّ من هذه الفئات ضرب الله مثلين: مثل نارٍ وآخر مائيّ.

أمّا مثلاً المنافقين ففي سورة البقرة ﴿ مَثَلُهُم (المنافقون) كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ [البقرة ١٧]. كان هذا هو المثل الناريّ للمنافقين. ولهم مثل مائيّ آخر في نفس السورة

(١) بَقِيعَةٌ: أرض صحراوية منبسطة مقفرة.

(٢) لُجِّيٌّ: عميق.

﴿ أو كصَيِّب <sup>(١)</sup> من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ [البقرة ١٩].

كما ضرب الله للمؤمنين مثلاً مائياً وآخر نارياً في آية واحدة من سورة الرعد. ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيّل زبدًا رابياً <sup>(٢)</sup> ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية <sup>(٣)</sup> أو متاع <sup>(٤)</sup> زيد مثله كذلك يضرب الله الحقّ والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً <sup>(٥)</sup> وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [الرعد ١٧].

والآن جاء دور الكافرين الصنف الثالث من الناس وقد ضرب الله لهم مثلين نبدأ بأولهما:-

**المثل الأول:** أعمالهم كالسراب لا حقيقة له ولا وجود له. إنّما هو إنكسار أشعة الشمس على الأرض وخداعُ بصريّ.

قال الحقّ سبحانه:

(١) كصَيِّب: مطر.  
 (٢) زبدًا رابياً: ما يكون على سطح السيّل من رغاوي وورق وفلين وبلاستيك.  
 (٣) حلية: ما تلبسه النساء من حليّ ذهب أو فضّة.  
 (٤) متاع: صناعة سكين أو فأس أو إناء طبخ.  
 (٥) يذهب جفاءً: يطرحه السيّل جانباً فتبعثره الرّيح.

﴿ والذين كفروا أعمالُهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

هذا المثل ضربه الله لمن أعرض عن نور الهداية الربّانية وذهب في صحراء الحياة يلتمس سعادته بعيداً عن الدّين الحقّ فخاب سَعْيُهُ وباء بالخسران.

**الطَّرْف الأول: (المشبهه):** أعمال الكافر التي عملها في الدنيا على خطأ وفساد وضلالة وحيّرة وجهالة وهو يُعَوِّل عليها في النّجاة يوم الحساب ﴿ ونضع الموازين القِسْطَ ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء ٤٧].

**الطَّرْف الثاني (المشبهه به):** مسافر في الصحراء القاحلة وسط النهار قد نفذ منه الماء ويكاد يقتله العطش وهو يرى أمامه من على بُعد ماء فيسرع نحوه حتى إذا وصل المكان لم يجد شيئاً سوى الصحراء الملتهبة المُهْلِكَة وأشعة الشمس الحارقة والإجهاد والتعب وخيبة الأمل وانقطاع الرجاء.

**أداة التشبيه: حرف الكاف في كلمة "كسراب".**

وجه الشبه: طرفا التشبيه هنا متطابقان تماماً يجسّمان لنا صورةً حيّةً ذات أبعاد مكانية. صورة متكاملة تنبض بالحياة والحركة. فهذا حال مخذول<sup>(١)</sup> لم يؤمن بالدين الحقّ ولم يدرِ ما منهج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وسلك مسالك بعيدة عن الهدى ونور الوحي يعمل الصّالحات يرجو بها ثناء الناس واللّقاءات الإعلاميّة وأوسمة الأمم المتّحدة وقد خلا العمل من النية الصّحيحة والإخلاص لله الواحد القهار. من هؤلاء من يبزّ والديه ويصل رحمه ويُحسِن إلى الفقير والمسكين. ومنهم من يُغيث اللّاجئين والمحتاجين. ومنهم من يقوم بأعمال الإنقاذ والإسعاف والعلاج في حالات الكوارث والحروب. ومنهم من يرصد الملايين لأبحاث الأمراض والدّواء. تصدر عنهم هذه الصّالحات ومنهم من يعتقد أنّ لله ولداً ويترهب ويتزهد<sup>(٢)</sup>. ومنهم من يؤمن بأوثان وأصنام كبوذا وغيره.

هؤلاء يَسعون في الحياة الدّنيا على هذا التّحو وقد تعلّقت آمالهم أن يجدوا ثواب أعمالهم في ميزان الحسنات يوم يشتد الكرب وَيَعْظُمُ الهول وتُنصَبُ الموازين وتتطاير الصحف يوم

(١) مخذول: ضالّ / تائه.

(٢) يترهب ويتزهد: يلبس مسوح الرهبان ويعيش في صومعة معزولاً عن النّاس وأصل العقيدة عنده فاسد. فهو كمن يزرع شوفاً ويتأمّل أن يجني منه العنب.

تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. فإذا ما جاءوا لم يجدوا شيئاً بالكليّة إمّا لعدم الإخلاص وإمّا لعدم متابعة الشّرع الصحيح وإمّا لفساد النّيّة كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان ٢٣]. ووجدوا الله فوقّاهم حسابهم.

قال الضحّاك: من عمل من أهل الشّرك عملاً صالحاً كأنّ يصل رحماً أو يُعطي سائلاً أو يُغيثُ ملهوفاً أو يُجيرُ أحداً أو غيره من أعمال البرّ في غير تقوى أو نيّة صحيحة أُعطيَ على ذلك أجراً في الدنيا يُوسّع عليه في المعيشة والرزق ويُقرّ عينه فيما حوله ويدفع عنه المكاره في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب. قال الحقّ سبحانه: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ [الشورى ٢٠].

هؤلاء مثلهم كمثل الذي خدعه السراب وضيّع عمره يجري وراء الوهم حتى إذا جدّ الجدّ لم يجد ماء بل وجد حساباً عسيراً فعظمت حسرته واشتدّ ندمه بعد فوات الأوان. وتأمل المثل: فقد جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات. فمحلّ السراب أرض قفر خالية والسراب لا حقيقة له فذلك مطابق لأعمالهم ضاعت هباءً منثوراً. فهي سراب لا وجود له ولا حقيقة له.



وأما ما وراء المثل: فالله سبحانه يدعو عباده إلى الدخول في الإسلام وهو الدين الذي ارتضاه لعباده ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم<sup>(١)</sup> كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة ٢٠٨]. كما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وإخلاص النية والعمل لله وأن تكون أعمالنا على منهج وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكون أعمالنا مقبولة والحسنات مضاعفة. كما يدعوهم إلى العمل للباقية<sup>(٢)</sup> وعدم الالتفات إلى الفانية<sup>(٣)</sup> وإلى مدح الناس والمراعاة والتطّلع إلى المناصب من وراء أعمالنا. ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [القصاص ٨٣].

### المثل الثاني للكافرين: مثل الظلمات المتراكمة:

قال الحق سبحانه: ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ وهذا مثل آخر ضربه الله لمن عرف الحق والهدى وآثر عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليه ظلمة الطبع وفساد الفطرة

(١) السلم: الإسلام.

(٢) الباقية: هي الدار الآخرة.

(٣) الفانية: هي الدنيا.

وظلمةُ النَّفسِ وظلمةُ الجهلِ وظلمةُ اتِّباعِ الغيِّ والهوى. فحالُه كحال من كان في بحرٍ لجيٍّ عميقٍ لا ساحلَ له وقد غشيه موجٌ ومن فوق ذلك الموج موجٌ آخرٌ ومن فوق الموجين سحابٌ مظلمٌ. فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب وظلمة الليل.

**الطَّرْفُ الأوَّلُ (المشبهه):** الكافر الذي أبصر النور ثم استحبَّ الظلمات وعرف الحقَّ فاختر الباطل وتفكَّر في الهدى فاستحبَّ عليه الضلالة. فهم خفافيش الدنيا.

**الطَّرْفُ الثاني (المشبهه به):** كمن اختار أن يعيش في بحرٍ لجيٍّ شديد الأمواج بعضها فوق بعض وفوق الأمواج سحابٌ مظلم في ليلة ظلماء إذا أخرج يده لم يكد يراها.

**أداة التشبيه:** حرف الكاف في كلمة "كظلمات".

**وجه الشبه:** كلا الطرفين فضَّل الظلمات على النور واستحبَّ ظلام الباطل على نور الحقِّ. وتلاطَّم أمواج البحر يعني تلاطَّم أمواج الشُّكوك والشُّبهات في قلوبهم وتلاطَّم العلوم الفاسدة والمعتقدات الفاسدة والأعمال الفاسدة في عقولهم. أمَّا السحاب فهو سُحُبُ الغيِّ والهوى والباطل والبدع في نفوسهم. ﴿الله وليُّ الذين آمنوا يُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ والذين كفروا أولياؤهم

الطاغوت<sup>(١)</sup> يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب  
النار هم فيها خالدون ﴿ [البقرة ٢٥٧].

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَوْرٍ ﴾

قال ابن عباس: أي من لم يجعل الله له ديناً فما له من دين. ومن  
لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة فلن يهتدي إلى الجنة.

تأمل المثل وأبعاد الصورة المكانية وما فيها من صدقٍ ودقّةٍ  
تصوير وحركة وحياة. فهو يبيّن صدق المماثلة بين المشبّه  
والمشبّه به مع تصوير متحرّك حيّ بما فيه من الخطوط والألوان  
والأصوات والأبعاد التي تبرز لنا المشاعر النفسية والأمور المعنوية  
وتجعلها ظاهرة جليّة كأننا نلمسها ونراها. هذا مع الإيجاز والإعجاز  
في المثل القرآني.

(١) الطّاغوت: كلّ ما يُغوي ويُظني من صنمٍ أو شيطان.

## من سورة النور (٣٥)

نور الإيمان في قلب المؤمن

قال الحق سبحانه:

﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ (١) فِيهَا مِصْبَاحٌ (٢)  
 الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ  
 زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ (٣) يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ  
 عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ  
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [النور ٣٥].

قال بن كثير: هذا مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور. شبهه الله بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب دري. والمصباح هنا هو قلب المؤمن المفطور على الإيمان والفطرة السليمة. ثم يزداد نوره عندما يستمد نوراً وهدى من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من الوحي والذكر الحكيم. [انتهى].

وقال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن فهو كالزيت الصافي في نقائه يكاد يضيء قبل أن تمسه النار فإذا مسته

(١) مشكاة: كلمة حبشية تعني كوة أو فجوة غير نافذة في الجدار كانوا يضعونها فيها المصباح.

(٢) مصباح: سراج ضخم شديد النور.

(٣) زيتونة لا شرقية ولا غربية: شجرة زيتون تنمو في أرض مستوية أو على رأس جبل بحيث تتعرض لأشعة الشمس طول النهار وهذا ما يجعل زيتها صافياً نقياً يكاد يضيء من شدة الصفاء.

النار زاد ضَوْؤُه. كذلك قلب المؤمن تنيره الفطرة السليمة والهدى قبل أن يأتيه العلم. فإذا جاءه العلم القرآني زاده هدى على هدى ونوراً على نور. فهذا مثل فيه تشبيهه عجيب مُرَكَّب لنور الله في قلب المؤمن. [انتهى].

وقال السُّديّ: نور النَّار ونور الزَّيْت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء أحدهما بغير صاحبه. كذلك نور الإيمان ونور القرآن حين اجتمعا في قلب المؤمن أضاءا ولا يكون واحد منهما إلّا بصاحبه. [انتهى].

### والآن إلى المثل:

**الطَّرْف الأوَّل: (المشبهه):** قلب المؤمن الموحد تضيئه فطرته السليمة وهدى الله الذي ينشره في السماوات والأرض يهدي به من يشاء. وقد جاء في تفسير ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ أنّها تعني أنّ الله هادي أهل السماوات والأرض وهو مدبّر الأمر فيهما. نوره هدى ونور العرش من نور وجهه سبحانه. فنور الفطرة ونور الهدى ونور الإسلام ونور آيات الله في كتابه الحكيم ونور الإيمان يملأ قلب العبد المؤمن. هذا الهدى والأنوار المتراكمة كلّها أشياء معنويّة. فكيف السبيل إلى جعلها محسوسة ملموسة مرئيّة مجسّمة؟ هذا هو دور المثل الذي بين أيدينا.

**الطرف الثاني (المشبه به):** مصباح مُضاء في كوة في الحائط. هذا المصباح له زجاجة تركّز ضوؤه وتصلقه فيصبح نوره كالدر في صفائه ولون نوره. وإنّ أهدأ النور وأجمله هو اللون الدرّي. أمّا زيت المصباح فيأتي من زيتونة لا شرقية ولا غربية فهي خصرة نضرة صافية الزيت. فترى الزيت لشدة صفائه ونقائه من الشوائب يُعطي نوراً صافياً خالياً من كل كدر<sup>(١)</sup>.

**أدوات التشبيه:** كلمة مثل وحرف الكاف في كلمة "كمشكاة" وكلمة "كأنها".

**وجه الشبه:** إذا أردت أن تطلع على قلب المؤمن وتراه مجسماً بالألوان رؤيا العين فانظر إلى هذه الصورة التمثيلية الرائعة التي أسميناها "نور على نور": فهناك صفاء نور المصباح و صفاء الزجاجة الدرّية التي تزيد النور وتركزه وتضاعفه وتصلقه بانعكاساتها ثم صفاء الزيت. هذه الأنوار كلّها متجمعة في الكوة التي فيها المصباح والتي هي قلب المؤمن.

فقلب المؤمن مُضاء بنور الفطرة السليمة ونور هداية الإسلام ونور التوحيد واتباع النبيّ النور صلى الله عليه وسلّم ثم جاء القرآن الكريم بالعلم النافع والنور المبين. فاجتمع كل ذلك في قلب المؤمن الموحد. فكلامه نور وعمله نور وعقله نور وبصيرته نور

(١) كدر: شوائب وعكر.

وَمُدْخَلَهُ نَورٌ وَمُخْرَجَهُ نَورٌ وَمَصِيرُهُ يَومُ القِيامَةِ إلى النَورِ إلى جَنَّةِ الخلدِ ونعم المَصرير.

وفي إطار هذه الصورة التمثيلية الرائعة والتَّصوير الدقيق وألوان الأنوار وجدنا أنَّ المشبَّه به انطبق تمام الانطباق على المشبَّه فأصبحنا نرى الأشياء المعنوية محسوسة ملموسة مرئية مُجسَّمة وكأنَّنا أمام عملية قلب مفتوح وكاميرا تحوّل المعنويات إلى محسوسات.

اللهم لك الحمد جعلت صدور عبادك الأتقياء مستودعات لنور الإسلام ونور الوحي ونور العلم النافع. فالنور مرتبط دائماً بالإيمان. والمؤمن دائماً في نور ولو كان في أحلك الليالي وأظلم الزنازين. ذلك لأنَّ نوره بين جنبَيْه. نوره في قلبه وفي بصيرته ينير له ظلمات البرِّ والبحر وظلمات ظلم الظالمين وظلمات حَنقِ الحانقين<sup>(١)</sup> وظلمات جهل الجاهلين وظلمة القبر وظلمات يوم القيامة. ﴿بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ [العنكبوت ٤٩].

والمؤمن ينمي نوره ويصقله بتجديد إيمانه ومتابعة الطاعات وراء الطاعات. والإيمان يزيد بالمداومة على كتاب الله تلاوة وتدبراً

(١) ظلمات حنق الحانقين: الحنق هو الغضب والرفض. هؤلاء يتهمون الإسلام بالإرهاب وفي الحقيقة هم أساس الإرهاب وهم من غرس بذوره.

وحفظاً وفهماً وعملاً وتعليماً. فالمؤمن يرى بعين بصيرته وحكمته ما لا يراه الشَّخصُ العاديُّ بناظره. ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً <sup>(١)</sup> عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [التحریم ٨].

اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ وما فيهنّ. سبحانك ضربت لنا مثلاً لنور هُداك في قلوب أوليائك بالنور الصّافي غاية الصّفاء يصدر من مصباح. هذا المصباح في زجاجة هي غاية في النّقاء كأنّها كوكب دريٍّ في صفائه ولون نوره. يستمدّ المصباح زيتاً نقيّاً صافياً من شجرة مباركة زيتونة لا يواريتها <sup>(٢)</sup> عن أشعة الشمس شيء لا في أوّل النهار ولا في آخره يكاد زيتها يضيء لحسنه وجودته وشدة صفائه ولو لم تمسه نار.

فالمؤمن الموحد يمشي في الناس بنور إيمانه ونور علمه وحكمته وهداه ونور ما يحفظ من آيات القرآن ونور ما ترسخ في

(١) التوبة النصوح: شروطها: (١) الإقلاع عن الذنب (٢) الندم على ارتكابه (٣) العزم ألا تعود إليه. هذا إذا كان الذنب يتعلّق بالشخص التائب وحده. أمّا إذا كان الذنب يتعلّق بشخص آخر ظلّمته فالشرط الرابع أن تردّ المظالم إلى أهلها أو تطلب السماح منهم وأن تستغفر الله وتتوب إليه.  
(٢) لا يواريتها: لا يحجبها.



صدره من يقين. وكما يستمدّ المصباح حياته وقوّة نوره وصفائه من الزيت المبارك كذلك قلب المؤمن يزداد إيمانه ويقوى يقينه بكثرة تلاوة الآيات والحجج وبالنظر والتفكر في خلق الله وبتدبر آيات الله. فهكذا يزداد القلب حكمة ويقيناً وإقبالاً على أداء الفرائض والمسارعة في الخيرات والمسابقة في الخطوات والمنافسة في عمل الصالحات.

## من سورة الفرقان (٣٦)

تَعَسَّ وَخَابَ .. عَابِدَ هَوَاهُ

قال الحقّ سبحانه:

(١) ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ۖ أَمْ  
تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ  
أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان ٤٣-٤٤].

(٢) ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ  
سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ٢٣].

هذان مثلان مكّيان يتحدّثان عن موضوع واحد وهو اتّباع  
الهوى ويرسمان لنا صورة ساقطة خائبة عمّن اتّخذ إلَهه هواه.  
والمثلان يدفعانا إلى التعجّب من حال هؤلاء الذين اتّخذوا الهوى  
إلَهًا. فساروا وراء الشُّبُهَات والشَّهَوَات واستبدلوا نور الوحي  
والصراط المستقيم بالضلال والظلمات.

المثل الأوّل [الآيتان من سورة الفرقان]:

الظَّرْفُ الأوّل (المشبهه): هوى النفس وشهواتها وشبهاتها  
ورغباتها.

**الطَّرْف الثاني (المشبه به):** من اتَّخذ إلهه هواه وَرَضِيَهُ إِلَهًا  
لنفسه فأطاعه وبنى عليه أمر دينه مُعْرِضًا عن الهدى ناكبًا عن  
الطريق المستقيم<sup>(١)</sup> غير مُبالٍ بالوحي والتنزيل<sup>(٢)</sup>.

**أداة التشبيه:** أداة التشبيه محذوفة وتقديرها حرف الكاف. أي  
جعل هواه كالإله. ولأنه لم يجعل هواه كالإله بل جعله إلهًا فعلاً  
فتطابق المشبه به مع المشبه فلم يعد هناك حاجة لأداة التشبيه.  
وحذف أداة التشبيه هنا يبيّن حجم شناعة جُرم هؤلاء الناس<sup>(٣)</sup>.  
إذ هم جعلوا الهوى والشهوات أشدَّ استحقاقاً للطاعة وأولى  
للإتباع والعبادة من الإله الحقّ سبحانه وتعالى.

**وجه الشبه:** يأمرنا الله أن ننظر ونعجب من حال هذا الذي ركب  
رأسه وترك الرّشاد وأطاع الهوى فجعله إلهاً يعبده من دون الله.  
فهو لا يهوى شيئاً إلا اقترفه<sup>(٤)</sup> لا يخاف ربّاً ولا يخشى عقاباً. مهما  
استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه,  
كما قال الله تعالى ﴿ أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً فإنّ الله  
يُضِلّ من يشاء ﴾ [فاطر ٨].

(١) ناكباً عن الطريق المستقيم: مبتعداً عن الهدى والنور والإيمان والاستقامة.

(٢) غير مُبالٍ بالوحي والتنزيل: لا يهتم بتعليمات الكتاب والسنة.

(٣) شناعة جُرم: عِظَمُ جريمة هؤلاء.

(٤) اقترفه: عمله رغم أنّ العمل محرّم ومعصية.

قال ابن عباس: كان الرَّجُل في الجاهليَّة يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى حجراً غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأوَّل. أفأنت يا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تكون وكيلاً على مثل هؤلاء؟! هؤلاء كالأنعام بل هم أضلُّ وأسوأ حالاً من الأنعام السارحة. فالأنعام تفعل ما خُلِقَتْ له. وهؤلاء خُلِقوا لعبادة الله وحده فعبدوا غيره وأشركوا به رغم قيام الحجَّة عليهم وإرسال الرُّسُل إليهم. يقول الحقُّ سبحانه: ﴿بل اتَّبِع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من ناصرين﴾ [الرُّوم ٢٩].

### المثل الثاني [الآية من سورة الجاثية]:

وهو كالمثل الأوَّل وهنا زيادة أنَّ الله عز وجلَّ قد علم أنَّه لا يهتدي ولو جاءته كلَّ آية لما في نفسه الخبيثة من الميل إلى الفساد ومتابعة الشهوات وارتكاب القبيح دون زاجرٍ ولا وازع<sup>(١)</sup>. فهو ممَّن ختم الله على سمعه وقلبه<sup>(٢)</sup> فلا يقبل موعظة ولا يلتفت إلى نصيحة ولا يَأْبَهُ<sup>(٣)</sup> لأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر في قلبه مرض فلا تزيده آيات الله إلا رجساً على رجس<sup>(٤)</sup> فلا يخاف

(١) دون زاجرٍ ولا وازع: بلا خوف من عقاب أو تأنيب ضمير.

(٢) ختم الله على سمعه وقلبه: أي طبع عليهما فلا يسمع موعظة ولا يدخل نور الإيمان إلى قلبه.

(٣) لا يَأْبَهُ: لا يهتم.

(٤) رجساً على رجس: كفرًا على كفر وبُغْدًا عن معيَّة الله ورحمته سبحانه.

عقاباً. وجعل على بصره غشاوة<sup>(١)</sup> فمن يهديه من بعد الله؟ ومن يخرج من ظلمات هواه إلى نور هدى الهادي سبحانه؟

قال مقاتل: نزلت آيتا المثل من سورة الفرقان في شأن أبي جهل عمرو بن هشام. وذلك أنه طاف بالبيت الحرام ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم. فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه لصادق. فقال له الوليد: مه - أي اسكت - وما ذلك على ذلك؟ قال يا أبا عبد شمس كئنا نسّميه في صباه الصادق الأمين. فلما تمّ عقله وكَمُلَ رشدُه نسّميه الكذاب الخائن؟ والله إنني لأعلم أنه لصادق. قال الوليد: فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال أبو جهل: تتحدّث عني بنات قريش أني قد اتبعتُ يتيماً أبي طالب من أجل كسرة<sup>(٢)</sup>. واللّات والعزى إن اتبعتّه أبداً<sup>(٣)</sup>.

فنزلت آيتا الفرقان في أبي جهل. وهما عامتان في أرباب الهوى المنصرفين عن هداية الدين الحقّ وفي الملحدين والمشرّكين. والآيتان تذكّرانا بآيتي سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على

(١) جعل على بصره غشاوة: جعل على بصره غطاء فهو لا يبصر آيات الله في كتابه ولا عجائب خلقه في الكون.

(٢) من أجل كسرة: من أجل قليل من الطعام.

(٣) واللّات والعزى إن اتبعتّه أبداً: أقسم بأصنامهم وطواغيتهم أن لن يتبعه أبداً.

قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿  
[البقرة ٦-٧].

وهذا أيضاً يذكرنا بقول الحق سبحانه في سورة القصص  
مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ  
فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ  
بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص ٥٠].

## من سورة العنكبوت (٣٧)

مُهْتَرئة .. واهنة .. كخيوط بيت العنكبوت

قال الحق سبحانه:

﴿ مثل الذين اتَّخَذُوا من دون الله أولياء<sup>(١)</sup> كمثل العنكبوت  
 اتَّخَذَتْ بيتاً وإنَّ أوْهَنَ<sup>(٢)</sup> البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون  
 ○ إنَّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم  
 ○ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤١﴾  
 [العنكبوت ٤١-٤٣].

هذا مثل مكِّي ضربه الله تعالى للمشركين في اتِّخاذهم آلهة من  
 دون الله يرجون نصرهم ويطلبون رزقهم ويتمسكون بهم في  
 الشدائد. والله يعلم أنَّهم ما يدعون إِلَّا وَهْمًا وظنًّا والله لا شريك له  
 في ملكه. والله يَسْخَرُ من هؤلاء المشركين ويسفِّه معتقداتهم  
 ويشبِّههم ويشبِّه آلهتهم بخيوط بيت العنكبوت ولا يخطر ببال  
 المرء شيء أوْهَنَ وأضعفَ من خيوط بيت العنكبوت. فهم في ذلك  
 كبيت العنكبوت في ضعفه وعجزه وَوَهْنِهِ. فليس في أيدي هؤلاء  
 من آلهتهم إِلَّا كمن يمسك بخيطٍ من خيوط العنكبوت. فإنَّه لا

(١) الأولياء والأنداد: آلهة أرضية مزعومة يعتقد المشركون أنَّها تقربهم إلى الله زُلْفَى بأنَّ  
 تتوسَّط بينهم وبينه وتشفع لهم عنده وتزكِّيهم له وتوصي عليهم. وهذا شرك وضلال  
 فالله لا يحتاج إلى وساطات.

(٢) أوهن البيوت: أشدَّها ضعفاً وعجزاً. فلو هبَّت نسمة هواء تدمر بيت العنكبوت.

يُجدي ولا يُغني عنه شيئاً. ولو علم هؤلاء باطل ما يفعلون وزيف ما يصنعون وأنّ اتخاذهم الآلهة من دون الله لا يزيدهم إلا ضعفاً على ضعف وحُمقاً على حُمق لما اتخذوهم أولياء. مَنْ هم هؤلاء الأولياء؟ هم إمّا بشر أو حجر أو كواكب أو شجر. وفي كلّ هذه الحالات وفي كلّ الأحوال هم خلق من خلق الله. فماذا يملك المخلوق من أمر نفسه فضلاً عن أن يملك من أمر غيره؟

يقول المولى سبحانه ﴿ أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف ١٩١-١٩٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأعراف ١٩٤].

إِنَّهُ حَقًّا قَدْ ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج ٧٣].

هذا هو حال المشرك بالله المتخذ من دون الله أنداداً. أبيتغي العزة والقوة والمنعة والتأييد عند هذه المخلوقات الضعيفة؟ فإنّ العزة والقوة لله جميعاً يفيض بها ويهب منها عزة وقوة لرسوله صلى الله عليه وسلّم وللمؤمنين.

فالمؤمن قلبه مع الله متعلق ببيت الله على الأرض متمسك بحبل الله. كلّ عمله ونيّته وخطواته وحياته وعبادته لله مخلصاً



له العمل يرجو رحمته ويخاف عذابه. لا يرجو إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يدعو إلا الله مُسْتَمْسِكٌ بالعروة الوثقى<sup>(١)</sup> لا انفصام لها<sup>(٢)</sup> طاعته لله ومراقبته لله ووليّه الله.

﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيّي فاعبدون ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُبَوِّئَنَّهُمْ<sup>(٣)</sup> من الجنة عُرفاً<sup>(٤)</sup> تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نِعَمَ أَجْرِ الْعَامِلِينَ ﴿ الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون ﴾ [العنكبوت ٥٦ - ٥٩].

يقول ابن القيم: هذا المثل دلّ على أنّ من اتّخذ من دون الله ولياً يتعزّز به ويتكثّر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضدّ مقصوده. [انتهى].

لقد انصبّ جُلّ اعتراض المشركين ليس إلى فساد فطرتهم وسوء اختيارهم فيصلحوها ولا إلى ضلالهم ليقوموه ويعودوا إلى الطريق المستقيم. بل إلى المشبه به لماذا يختار الحقّ سبحانه صغار الحشرات ومخلوقات حقيرة يشبه بها أوضاعهم وآلهتهم. فردّ الله عليهم أنّه سبحانه لا يستحي أن يضرب مثلاً بخلقه

(١) العروة الوثقى: الإسلام.

(٢) لا انفصام لها: لا انفكك من الإسلام ولا ردة عنه.

(٣) لنُبَوِّئَنَّهُمْ: لنهيّء لهم بقصد الإقامة والخلود.

(٤) عُرفاً: قصوراً فخمة رفيعة عالية.

صغيراً كان أم كبيراً حقيراً كان أم عظيماً طالما أنّ المشبّه به ينطبق على المشبّه تمام الانطباق ولم يلتفت إلى اعتراضاتهم فشعروا بالغیظ والحنق أن تُشَبَّه آلهتهم في وَهَنها بخيوط نسجتها أنثى العنكبوت بلعابها والأذى من ذلك عجزهم عن نقض هذا المثل أو الرد عليه بطريقة مُقْنِعة. يقول الدكتور الفيّاض: لقد هال المشركين<sup>(١)</sup> أن يُمَثَّلَ القرآن آلهتهم التي يَعْكُفون عليها وينكَبون على عبادتها [وطلب المدد والقوّة منها] ببيت العنكبوت ضِعْفاً وَوَهْناً. وهم لا يرون شيئاً أوهن من بيت العنكبوت. وأشدّ ما ألمهم أنّهم لا يستطيعون ردّ ذلك عنها [بالحجّة] أو نقضه. فليس لديهم ما يروونه مُقْنِعا لهم فضلاً عن إقناع [غيرهم]. [انتهى بتصرّف].

هذا المثل من الأمثال الظاهرة حيث طرفا التشبيه واضحان:

**الطَّرْف الأوّل (المشبّه):** الآلهة المزعومة التي اتّخذها المشركون ليكونوا لهم أنداداً وأولياء ومصدر عزّة وقوّة وَسَنَدٌ لهم من دون الله.

**الطَّرْف الثاني (المشبّه به):** بيت العنكبوت التي تنسجه بلعابها وخيوطه المهترئة الواهنة التي لا حول لها ولا قوّة.

(١) هال المشركين: فاجأهم ونزل عليهم كالصّاعقة.

أدوات التشبيه: تكرار كلمة مثل وإضافة حرف الكاف إلى الثانية.

وجه الشبه: هذه الآلهة وهذه الخيوط العنكبوتية كلاهما ضعيف كلاهما واهن كلاهما مهترىء. وقد بين الله هذا الضعف بصريح الكلمات في مواضع شتى من كتابه الكريم:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ واتّخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً ۝ كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ [مريم ٨١ - ٨٢].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ واتّخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصّرون ۝ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جندٌ مُحضرون ﴾ [يس ٧٤ - ٧٥].

وهناك وجه آخر للشبه غير وجه الضعف والهوان بين هذه الأنداد والحجارة وبين بيت العنكبوت. فالعنكبوت لا تنسج بيتها ليكون بيتاً بالمعنى المتعارف عليه للبيت حيث يحمي ساكنيه من تقلبات الجوّ ويهييء لهم أسباب الإقامة والراحة. بل تستخدمه كَشْرَكٍ لصيد الفرائس<sup>(١)</sup> والحشرات. كذلك الآلهة الحجرية فأصحابها يعرفون أنها حجارة لا تضرّ ولا تنفع ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ولكنّ قصدهم من اتّخاذها الزعامة في القبيلة والرياسة على الآخرين والصدّ عن سبيل الله وإضلال خلق الله

(١) الفرائس: جمع فريسة وهو ما تمّ صيده.

وإهلاكهم في نار جهنم كما يُهلك بيت العنكبوت الفرائس التي  
قَصَدَتْهُ.

وهذا ما يجعل المثل غاية في الإتقان والدقة وفي منتهى  
الإحكام وإصابة الغرض الذي ضُرب من أجله. وبهذا يكون المثل  
قد أدّى وظيفته وأبرز لنا جهل المشركين وبطلان معتقداتهم  
وسوء اختيارهم لأنفسهم. وهذا هو فساد الرأي والجهل المُركَّب.

## من سورة الرّوم (٣٨) الشُّركُ ... جريمةٌ عَظْمَى

قال الحقّ سبحانه:

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهونُ عليه <sup>(١)</sup> وله المثل الأعلى <sup>(٢)</sup> في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم <sup>(٣)</sup> من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الرّوم ٢٧ - ٢٨].

الشُّركُ عمل ظالم شنيع <sup>(٤)</sup> وجريمة عظيمة لا يفلح مقترفها أبداً. والشُّركُ هو إشراك من لا يخلق مع من يخلق ومن لا يرزق مع من يرزق بغير حساب ومن لا يحيي ولا يميت مع من يحيي ويميت. وهذا افتراء <sup>(٥)</sup> وظلم لا حدود له. فكيف يستوي هذا وذاك؟ كيف يستوي من لا يملك مع من له مُلكُ السماوات والأرض وما بينهما؟ أين العقل؟ وأين العدل وما هو الميزان؟ كيف

(١) وهو أهون عليه: لا شيء صعب على الله. ولكنّ الله يخاطبنا على قدر عقولنا وبنفس منطقتنا البشريّة.

(٢) له المثل الأعلى: له سبحانه وتعالى الوصف الأعلى في الكمال والجلال.

(٣) من ما ملكت أيمانكم: من عبيدكم وخدمكم وأجرائكم ومن هم تحت أيديكم.

(٤) شنيع: بشع وكريه.

(٥) افتراء: كذب على الله.

يَخْلُقنا الله ونشكر غيره ويرزقنا ونحمد غيره وهو بنا رؤوف رحيم  
ثم ندعو غيره؟! شرع لنا أحسن الدين وأيسر الدين ووعده بأعظم  
الأجر والثواب ثم نجعل له ندّاً أو وليّاً من خَلْقِه؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ  
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا  
إِنثَاءً<sup>(١)</sup> وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء ١١٦ - ١١٧].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا<sup>(٢)</sup> فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ  
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ  
وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً<sup>(٣)</sup> انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ  
إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا  
فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء ١٧١].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال  
الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك  
فيه معي غيري تركته وشركه". [أخرجه الإمام مسلم].

(١) إِنثَاءً: أصناماً يزيّنونها كالنساء.

(٢) لَا تَغْلُوا: لَا تَشَدَّدُوا وَلَا تَجَاوِزُوا الْحَدَّ.

(٣) لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً: بعض النصارى يعتقد بالتثليث ويشرك مع الله سبحانه عيسى ومريم كآلهة.

ومعناه أنا غنيّ عن المشاركة وغيرها. فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير. والمراد أنّ عمل المشرك والمرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به وغير مقبول.

### ونعود إلى المثل:

أمامنا هنا مثل قياسيّ استفزازيّ ضربه الله للمشركين الذين يجعلون لله شركاء من عباده وخلقه. ضرب لهم سبحانه مثلاً مُعجزاً يسألهم فيه. أنتم تعتبرون أنفسكم سادة وعِليّة القوم وزعماء القبائل وعندكم خدم تحت أيديكم. هل تقبلون أن يكون خدمكم شركاء لكم في زوجاتكم وأولادكم وأموالكم وممتلكاتكم تخافون منهم فلا تتصرّفوا في أملاككم إلا بعلمهم وموافقتهم؟ هل تقبلون أن يكونوا شركاء معكم في كلّ شيء ولهم حقّ الشركاء كاملاً؟

**الطّرف الأوّل (المشبهه):** الخدم والعبيد والأجراء وما ملكت أيماهم.

**الطّرف الثاني (المشبهه به):** من هم تحت أيديهم يصبحوا شركاء لأسيادهم من السادة وعِليّة القوم والزعماء لهم ما لهم. كما لهم حقّ التصرف كاملاً في كلّ ما يملك أسيادهم من زوجاتٍ وأولادٍ وأموالٍ وعقارات كحقّ الشركاء الفعليين.

أدوات التشبيه: كلمة مثل وحرف الكاف في كلمة "كخيفتكم".

وجه الشبه: إذا كان هذا المثل يستفزكم<sup>(١)</sup> ولا يرضيكم أيها السادة ويحطّ من كرامتكم ويضع من اعتباركم<sup>(٢)</sup> ويسلب حقوقكم وفيه ظلم لكم إذاً لماذا تفعلونه مع الله؟ لماذا ترفضونه لأنفسكم وترضونه لله سبحانه المالك الحقيقي للكون وما فيه؟ وهو سبحانه السيّد الحقيقي وما عداه خلقه وعباده؟ وهو سبحانه العزيز الكريم لا يقبل الضيم<sup>(٣)</sup> ولا يجوز في حقّه النقص والدّل؟ وهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد لا يقبل شريكاً ولا ولداً ولا يجوز في حقّه صاحبة ولا ندّاً ولا ولياً<sup>(٤)</sup>. وهو سبحانه المتفرد<sup>(٥)</sup> الذي ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى ١١]. وهو سبحانه الباقي وكلّ ما عداه هالك<sup>(٦)</sup> فاني ﴿ كلّ شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه تُرجعون ﴾ [القصاص ٨٨].

هذا مثل قياسيّ مُعجز مُفحم أقامه الله على هؤلاء المشركين حجة يعرفون صحّتها في نفوسهم ولا يحتاجون فيها إلى دليل أو برهان ولا جواب ولا اعتراض عليها. إذا كنتم لا ترضون ذلك لأنفسكم فلم ترضوه لله عزّ وجلّ؟ لم أشركتم بالله من خلقه من

(١) يستفزكم: يزعجكم.

(٢) يضع من اعتباركم: يُنقص من احترامكم وكبريائكم.

(٣) لا يقبل الضيم: يرفض الظلم كمبدأ ومهما قلّ.

(٤) وليّاً: رئيساً / صاحب فضل.

(٥) المتفرد: ليس له شبيهه ولا مثيل.

(٦) هالك: ميّت.



هو مملوك له؟ فإن كان هذا المثل يستفزكم ويزعجكم وهو حُكْمٌ باطل ظالم في نظركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حُكْمِكُمْ إذ ليس عبيدكم من خلقكم وليسوا ملكاً لكم في الحقيقة. إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم جميعاً عباد الله. فكيف تُجيزون هذا الحكم في حق الله مع أن من جعلتموهم له شركاء هم عبيده ومَلِكُهُ وخلقه حقيقة؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي الألباب وأصحاب الفكر والعقول. والله المثل الأعلى سبحانه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله: " كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أي لا أقدر أن أعيده كما كان<sup>(١)</sup> وأما شتمه إياي فقله لي ولد<sup>(٢)</sup>. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولد". [أخرجه الإمام البخاري].

يأيها الإنسان الكفّار الظّلم ﴿ ما غرّك برّبك الكريم<sup>(٣)</sup> ﴾ الذي

(١) زعم أي لا أقدر أن أعيده كما كان: هؤلاء من أنكر البعث من العرب وغيرهم من عبّاد الأوثان والذهريّة.

(٢) وأما شتمه إياي فقله لي ولد: سمّاه الله شتماً لما فيه من التنقيص. لأنّ الولد إنّما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح. والنكاح يستدعي باعثاً له وسبباً لذلك. والبشر إنّما يطلبون الولد ليساعدهم في فترة شيخوختهم وعجزهم وضعفهم. والله سبحانه وتعالى منزّه عن جميع ذلك.

(٣) ما غرّك برّبك الكريم: ما جرّأك على عصيان ربك!؟

خلقك فسوّاك<sup>(١)</sup> فعدلك<sup>(٢)</sup> ◌ في أيّ صورة ما شاء ركبك ◌ كلاً  
 بل تكذّبون بالدين ◌ وإنّ عليكم لحافظين ◌ كراماً كاتبين ◌  
 يعلمون ما تفعلون ﴿ [الانفطار ٦ - ١٢].

---

(١) فسوّاك: خلق أعضائك سوياً سليمة.  
 (٢) فعدلك: خلقك معتدلاً متناسب الخلق.

كذلك نجزي كلّ كفور

قال الحقّ سبحانه:

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿١٣﴾ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴿١٤﴾ قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلّا تكذبون ﴾ [يس ١٣-١٥].

هذه آيات مكيّة يأمر الله فيها رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يضرب لقومه الذين كذبوه مثلاً أصحاب القرية. هذه القرية كان يحكمها ملك يعبد الأصنام وشعب كافر. بعث الله إليهم ثلاثة من الرّسل لهدايتهم فبادروهم إلى التكذيب ورفضوا عبادة الله وحده واستحبّوا العمى على الهدى. وكان جدالهم للرّسل يدور حول نقاط ثلاثة:

إن أنتم إلّا بشر مثلنا فلم أوحى إليكم دوننا؟ ﴿ قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا ﴾ وكيف يهدي بشرٌ بشراً! ﴿ ذلك بأنّه كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات فقالوا أبشّر يهدوننا ﴾ [التغابن ٦]. ﴿ وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشراً

رسولا ﴿ [الإسراء ٩٤]. ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا  
لخاسرون ﴿ [المؤمنون ٣٤].

وكانوا يجادلون بآئه لو شاء الله أن يرسل رسلاً لأرسل ملائكة  
أي من غير جنس البشر حتى يتيقن الناس أنهم مُرسلون من عند  
الله ﴿ فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد  
أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ﴿ [المؤمنون ٢٤].  
﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله  
قالوا لو شاء ربنا لآنزل ملائكة فإننا بما أرسلتكم به كافرون ﴿  
[فُصِّلَتْ ١٤].

كما أنهم طلبوا الآيات التي تدلّ على صدق المرسلين. فلما  
جاءتهم الآيات قالوا هذا سحر وألصقوا ظهورهم إلى جدار آبائهم  
تقوية لمنطقهم الباطل وليدحضوا به الحق. ﴿ فلما جاءهم موسى  
بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مُفْتَرى ﴿ [القصص ٣٦].  
﴿ قالوا إنما أنت من المُسَحَّرِينَ ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن  
نظنك من الكاذبين ﴿ [الشعراء ١٨٥ - ١٨٦].

تلك شبهة الأمم المكذبة. وقد كانت سنة الله في خلقه أنه  
سبحانه إذا كذبت أمة رسولها فإنه يهلكهم عن آخرهم بعذاب  
يبعثه عليهم. ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴿

[النساء ٦٤]. كان ذلك قبل نزول التوراة. وقد رأينا كيف أهلك الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وأصحاب الأيكة والمؤتفكات (قري قوم لوط) وقوم تُبَّع وأغرق الله فرعون وهامان وجنودهما. ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴾ وعاداً وثموداً وقرونأً بين ذلك كثيراً ﴿ [الفرقان ٣٧ - ٣٨].

أما بعد نزول التوراة فلم يهلك الله سبحانه أمة عن بكرة أبيها<sup>(١)</sup> بسبب كفرهم بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين. ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص ٤٣].

أما هذه القرية المثل في سورة يس فقد أمر الله جبريل بأن يُهْلِكَهَا بصيحة واحدة جزاء على تكذيبهم للرسل وقتلهم ولياً من أولياء الله الصالحين<sup>(٢)</sup> كان كثير الصدقة مستقيم الفطرة جاءهم يسعى من أقصى المدينة ينصحهم ويُخْلِصُ لهم في النصيحة ويضمُّ صوته إلى أصوات الرسل ويضرب لقومه الأمثال ويبين لهم الحجج والمنطق. فكان مثله كمثله مؤمن قوم فرعون

(١) عن بكرة أبيها: عن آخرها.

(٢) وقتلهم ولياً من أولياء الله الصالحين: هو حبيب النجار رضي الله عنه.

ولكنّه تفوّق عليه أن أعلن إيمانه ولم يكتّمه ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ [يس ٢٥]. أعلن إيمانه أمام الرّسل ليشهدوا له أمام ربّه. فما كان من قومه إلّا أن وطئوه بأقدامهم<sup>(١)</sup> حتى استشهد فأدخله الله الجنّة وانتقم من قومه. ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جَنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿ [يس ٢٨ - ٢٩].

**الطّرف الأوّل (المشبه):** مكّة وأهلها ممّن كذب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ورفضوا دعوته وتأمروا على قتله أو إخراجهم من بلده.

**الطّرف الثّاني (المشبه به):** قرية ضربها الله مثلاً لمكّة أرسل إليها ثلاثة رسل كما انضمّ إليهم رجل صالح جاء من أقصى المدينة يسعى ليعلن إيمانه على الملأ وليدافع عن الرّسل حتى لا تصل أذية قومه إليهم. فكفر أهل القرية وملكهم عابد الأصنام وكذبوا الرّسل وقتلوا وليّ الله الذي أعلن إيمانه على رؤوس الأشهاد.

**أداة التشبيه: ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾.**

**وجه الشّبه:** كلا الطرفين كذبوا الرّسل ورفضوا الإيمان بالله وحده ورفضوا هداية الرّسل وفرحوا بما عندهم من علم ضالّ منحرف وتقوؤوا بموقف آبائهم وجهلهم وضلالهم وتمسّكوا بما أتاحتهم لهم

(١) وطئوه بأقدامهم: داسوا بأرجلهم على بطنه حتى خرجت أمعاؤه من دبره.

عبادة الأصنام من مراكز ورياسة. وقدّموا الدنيا على الآخرة  
واستحبّوا العمى على الهدى فحقّ عليهم القول<sup>(١)</sup>.

أمّا القرية المثل فكانت قبل نزول التوراة فكان الإهلاك هو  
السنة. فأمر الله جبريل عيه السلام أن يصيح فيهم صيحة واحدة  
فإذا هم خامدون. ومضت سنة الله في خلقه. وأمّا أهل مكة فلم  
يكونوا معجزين في الأرض. ﴿ وكأين من قرية هي أشدّ قوّة من  
قريتك التي أخرجتك أهلكتهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد ١٣]. وهذا  
تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة الذين كذبوا رسول الله صلّى  
الله عليه وسلّم وهو سيد الرّسل وخاتم الأنبياء. فإذا كان الله عزّ  
وجلّ قد أهلك الذين كذبوا الرّسل من قبل فما ظنّ كفّار مكة أن  
يفعل الله بهم في الدّنيا والآخرة.

ولمّا غلب أهل مكة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واستعصوا  
عليه دعا ربّه "اللهمّ أعني عليهم بسبع كسبع يوسف"<sup>(٢)</sup>.  
فأخذتهم سنة<sup>(٣)</sup> أكلوا فيها جلود الأنعام والعظام والميّة من  
الجهد<sup>(٤)</sup> والجذب والقحط حتى كان أحدهم يرى ما بينه وبين

(١) فحقّ عليهم القول: حقّت عليهم مشيئة الله أنّهم من أصحاب النار.

(٢) رواه مسروق وأخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) سنة: قحط وجذب.

(٤) الجهد: شدة الجوع والهزال.

السَّماءَ كَهَيْئَةِ الدَّخَانِ مِنَ الْجُوعِ. قَالُوا: ﴿ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ  
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾. فَقِيلَ لِلرَّسُولِ: إِنَّ كُشْفَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابِ عَادُوا. فَدَعَا  
الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ فَكُشِفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ.  
فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَلَقَدْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالشَّدَّةِ وَالسَّنِينِ وَالْهَزَائِمِ وَالْقَتْلِ أَمَامَ سَرَايَا  
الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَمَّ فَتْحُ مَكَّةَ  
وَالنَّصْرَ الْمُبِينِ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.



## من سورة الزُّمَر (٤٠)

المشرك ... والموحد المُخلص

قال الحقّ سبحانه:

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون<sup>(١)</sup> ورجلاً سَلماً<sup>(٢)</sup> ﴾  
 لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿  
 [الزُّمَر ٢٩].

هنا مثلان مكّيان في آية واحدة. المثان في غاية الحُسن  
 والصّدق والبلاغة. ضرب الله أوّلهما لتقبيح الشرك وتصوير معاناة  
 المشركين في عبادتهم الباطلة.

**المثل الأوّل:** ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾:-

**الطرف الأوّل (المشبه):** كلّ مشرك يُثبِت ويعبد آلهة شتى  
 ويجعل لكلّ شيءٍ إلهاً وهذا ما ابتدعه اليونان في حضارتهم  
 الشُّركيّة ثم انتقل إلى الهند وما زال معمولاً به هناك في بعض  
 المناطق. ولكنّ المقصود هنا هم عبدة الأصنام والملائكة  
 والكواكب من مشركي الجزيرة العربية. ويثبت المؤرّخون أنّ رسول  
 الله صلّى الله عليه وسلّم عندما فتح مكّة وجد ثلاثمائة وستين

(١) متشاكسون: كلُّ هواه غير الآخر. لا إتّفاق بينهم ولا وفاق.

(٢) سَلماً: سالماً خالصاً.

صنماً داخل الكعبة فأخذ يكسرها ويقول: ﴿ جاء الحقّ وَزَهَقَ  
الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً ﴾ [الإسراء ٨١].

فهذا إله الحرب وهذه إلهة الحبّ وذاك إله المطر ورابع إله  
البحر وخامس إله الربيع وسادس إله الفأل الحسن... إلخ.

**الطرف الثاني (المشبه به):** شبه الله هؤلاء المشركين برجلٍ  
مملوكٍ لأسيادٍ كثيرين. هؤلاء الأسياد مختلفون متشاكسون يعاند  
بعضهم بعضاً أخلاقهم سيئة يتنازعون في ذلك العبد المشترك  
بينهم.

**وجه الشبه:** المشرك والعبد المملوك كلاهما في حيرة من أمره وفي  
عذاب دائم. كلما عبد المشرك إلهاً وتقرب إليه وأخلص له غصبت  
عليه باقي الآلهة ولعنته. وكلما أرضى العبد سيّداً من أسياده غضب  
عليه الباقون. وإذا احتاج المشرك شيئاً من آلهته رده كل إله إلى  
الآخر. وهو نفس شأن العبد المملوك مع أسياده. كلاهما في تعب  
دائم وعذاب مقيم لا يدري أيّهم أولى أن يطلب رضاه فما يُرضي  
أحدهم لا يُرضي الآخرين ومجرّد رضاه أحدهم هو إغضاب  
للآخرين لأنّ شيمتهم<sup>(١)</sup> الحقد والحسد والمشاكسة والعناد.

(١) شيمتهم: طبعهم وأخلاقهم.

ولا يدري مَنْ أَيُّهم يطلب حاجاته. ولا يدري ما السبيل إلى إرضائهم جميعاً وإن كان ذلك ضرب من المستحيل.

**أمّا المثل الثاني في نفس الآية ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ :-**

فقد ضربه الله في مدح التوحيد وأنّ عبادة ربّ العالمين الواحد الأحد تُرضي الربّ وتريح العبد وتُحقّق له ما يحتاجه من رزق وسعادة وذريرة وحياة طيبة في الدّنيا والآخرة.

**الطرف الأوّل (المشبه):** المؤمن الموحّد المخلص الذي يعبد ربّاً واحداً الله لا إله إلا هو ربّ العالمين ويُخلص له العبادة وحده بلا شركاء أو أنداداً أو أشباهاً أو أمثالاً أو أولياء.

**الطرف الثاني (المشبه به):** شبه الله هذا المؤمن الموحّد المخلص برجلٍ عبدٍ مملوكٍ لسيدٍ واحدٍ خالصاً له لا ينازعه في ملكيته شريك أو منازع.

**وجه الشبه:** كلاهما عَلِمَ ما يُرضي سيّده وما يُغضبه. وسيّده يرفق به ولا يكلفه ما لا يطيق من أعمال أو تكاليف ويُحسن إليه وييسّر له عمله ويتكفل بجميع ما يلزمه.

قال ابن عبّاس ومجاهد: هذه الآية ضُربت مثلاً للمشرك والمخلص. ولمّا كان هذا المثل ظاهراً بيّناً جليّاً قال سبحانه

﴿ الحمد لله ﴾ أي على إقامة الحُجَّة عليهم. قال ابن القيم: هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والمؤحد. فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة من الناس متنازعون متشاحنون متشاكسون فهو يتردد بينهم لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين. أمّا المؤحد فإنه يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد رجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه. فهو في راحة من تشاحن<sup>(١)</sup> الخُطاء<sup>(٢)</sup> فيه بل هو سالم لسيدّه من غير منازع فيه مع رافة مالكة به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتكفله بمصالح العبد. فهل يستوي هذان العبدان؟؟!

قال الشيخ كشك: هذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لإثبات وحدانيّته ونفي ألوهيّة من سواه وما سواه. ولا ينظر في هذا المثل إلا من كان له قلبٌ واعي وسمعٌ صاغي لكلّ عظة ولكلّ عبرة. وهذا من أبلغ الأمثال. فالله يريد أن يبيّن لنا نعمة وحدانيّة الألوهيّة. وهي في الحقيقة نعمة عظيمة لا يعى عنها إلا أعمى البصيرة. فنحن - ولله الحمد والمِنَّة - نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ونحن - وهذا من فضل الله ورحمته - في منتهى السعادة والراحة والطُمأنينة. قد وَضَحَ أماننا طريق شرع الله وما افترضه

(١) تشاحن: تنازع واختلاف.

(٢) الخُطاء: الشركاء الذين يجمعهم شيء ويفرّقهم أشياء.

علينا ونحن على تواصل دائم مع ربنا ابتعدنا عما نهانا عنه وعمّا يُغضبُه ونعيش في جنّة القرب من الله نتمتع بحياة طيبة في الدنيا ونرجو رحمة الله ورضوانه في الآخرة. وهذه من نعم الله التي قلّ من يشكر الله عليها.

يقول الله سبحانه لرسوله صلّى الله عليه وسلّم: اضرب لقومك هذا المثل حتّى إذا استوعبوه وفهموه إسألهم: هل يستوي هذان المملوكان؟ فإن كانا لا يستويان فالحمد لله المُنعم المتفرّد بالخلق والأمر والتدبير والعبادة. واسألهم: إذا كيف تستوي عبادة آلهة شتى مع عبادة الله الواحد القهار الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة ولا شريكاً ولا نداً ولا ولياً؟

ولقد سأل يوسف عليه السلام مَنْ حوله هذا السؤال قبل بعثة محمّد صلّى الله عليه وسلّم بمئات السنين: ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار﴾ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إنّ الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴿ [يوسف ٣٩ - ٤٠].

﴿لو كان فيهما<sup>(١)</sup> آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربّ

(١) فيهما: الكلام عن السماوات والأرض.

العرش عمّا يصفون ﴿ [الأنبياء ٢٢]. ﴿ ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالى عمّا يشركون ﴿ [المؤمنون ٩١ - ٩٢].

ونجيب ربّنا كما أجابه جميع الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فنقول: سبحانك ربّنا تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام. سبحانك لا يستويان<sup>(١)</sup> إلّا كما يستوي الأعمى والبصير وكما يستوي العلقم والعسل والثرى والثريا وكما تستوي الظلمات والنور والظلّ والحرور وكما يستوي الأحياء والأموات. ربّنا سبحانك وضحّت لنا الأمور وضرّبت لنا في هذه الدنيا الأمثال وخاطبت منا العقل فصدّقناك واتّبعتنا أمرك. وإنّ كان هؤلاء لا يعلمون اليوم في هذه الدّنيا فغداً في الآخرة شأن آخر وسيعلمون علم اليقين.

(١) لا يستويان: الحديث عن المملوكين المذكورين في المثال.

## من سورة فُصِّلَتْ (٤١)

نفوس غير مطمئنة ... وغير قانعة

١. قال الحق سبحانه:

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط  
 ٥ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي وما  
 أظنّ الساعة قائمة ولئن رُجِعْتُ إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى  
 فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ ٥ وإذا  
 أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاءٍ  
 عريض ﴾ [فُصِّلَتْ ٤٩ - ٥١].

٢. قال الحق سبحانه:

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ٥  
 ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيئات عني إنه  
 لفرحٌ فخور ٥ إلا الذين صبروا وعملوا الصّالحات أولئك لهم  
 مغفرة وأجر كبير ﴾ [هود ٩ - ١١].

هذان مثلان مكّيان متشابهان في المضمون مع اختلاف  
 طفيف في الألفاظ. ضربهما الله سبحانه لفئة من الناس نفوسهم  
 غير مطمئنة لا تشبع ولا تقنع تكثر الدعاء في الموضوع الواحد  
 وتطيل المسألة في الشيء الواحد ودائماً في طلب المزيد.

ويضرب الله عزّ وجلّ الأمثال في كتابه العزيز للعتة والاعتبار وللهداية والإرشاد ولتوجيه النفوس نحو الخير والتنفير من السوء والشّر. والمثل القرآني من أفضل أساليب التربية وأعظمها تأثيراً في النفس وأقواها في توضيح المعنى وتقريبه. وغاية المثل القرآني إصلاح النفوس وصقل الضمائر وتهذيب الأخلاق وتقويم المسالك وتصحيح العقائد وتنوير البصائر والهداية إلى ما فيه خير الفرد والأسرة والمجتمع.

في هذين المثلين يعرض الحقّ سبحانه نموذجاً بشرياً ويحلّل نفسيّته ويكشف عن خبايا داخله. هذا النموذج له نفسيّة أنانيّة تنطوي على الشّر والسوء في معتقداته وفي مسلكه وخصاله وفي عدم صحّة نظره إلى الحياة ومتاعها وفي انحرافه عن الصراط المستقيم. إذا أصابته شدّة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط بالنسبة إلى المستقبل وكفرٌ وجحود لماضي الحال. كأنّه لم ير خيراً قطّ ولا يرجو بعد ذلك فرجاً أبداً. أمّا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ليقولنّ ذهب السيئات عنيّ إنّهُ لفرحٌ فخور﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيّم<sup>(١)</sup> ولا سوء فهو فرح بما في يده بَطْرٌ فخور على غيره.

(١) ضيّم: لا يصيبني شرّ بعد اليوم.



**الطرف الأول (المشبه):** شخص مطلبه الدنيا ونعيمها. لا تخطر الآخرة بباله وليست جزءاً من دعائه وليس لها موضع قدم في عمله.

**الطرف الثاني (المشبه به):** كمن يعبد الله على حرف. يريد لنفسه كلَّ الخير. فإنَّ جُعِلَ له الخير بَطِرَ وكفر وإنَّ مسَّه الشرُّ يئس وقنط وإنَّ أنعم الله عليه جحد وأنكر وادّعى الفضل لنفسه.

**أدوات التشبيه:** يصوّر الله لنا في آيات هذين المثلين إنساناً مركباً معقداً متفرعاً له في كلِّ فرع أخطاءً وآثاماً. ولذلك تكرر في الآيات استخدام أدوات الشرط مثل: "وإنَّ" و "لئنُ" و "إذا" وتكرارها مرّات حتى يتمكّن المثل من احتواء جميع جوانب نفسيّة هكذا إنسان.

**وجه الشبه:** كلا المثلين وكلا الطرفين يصوّر لنا نفسيّة شخص أنانيّ يريد لنفسه كل ملذّات وشهوات الدّنيا ولا يعبأ بالآخرة ولا تهّمه في شيء ولا يدعو لها وليست ضمن مطالبه ولا ضمن أولويّاته.

**ونتدبّر الآيات:-**

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ لا يملّ ولا يكلّ في طلب خير الدنيا. والخير هنا المال والصّحة والسلطان والأزّيدة والزّوجة

الجميلة والولد والقصور الفارهة والسيارات المُتْرَفَة والرفاهيّات الزائدة.

نفسه نفس شرهة طامعة جشعة لا تعرف القناعة ولا سقف لمطالبها ولا حدّ لمطامحها. يكرّر طلب الخير في كلّ وقتٍ بإلحاح بلسانه ويسعى إليه بعمله وهو ليل نهار في طلب المزيد من نعيم الدنيا. فمهما أوتي من خير لا يقنع ولا يشكر المُنعم كما جاء في الأثر الذي أخرجه البخاري "منهومان" <sup>(١)</sup> لا يشبعان: طالب علم وطالب مال". وفي الحديث الذي رواه ابن عبّاس وأنس بن مالك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لو أنّ لابن آدم وادياً من ذهب أحبّ أن يكون له واديان". <sup>(٢)</sup>

يعيش مثل هذا الشخص تحت تأثير الغرائز الفرديّة من حبّ النفس وحبّ التسلّط وحبّ الغلّبة والاستئثار بالمنافع. فهو يطلب ويطلب ولا يعرف فضل المُنعم عليه ولا يشكر الله ولا ينفع الآخرين ولا ينظر لعمل الآخرة ولا يخطر بباله أبداً أنّ هذه الدنيا فانية.

﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّ قَنُوطٌ ﴾ وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبِ اللَّهُ دَعَاءَهُ

(١) منهومان: طمّاعان جشعان.  
(٢) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم.

ولم يلبي طلباته التي لا تنتهي يئأس ويقنط. واليأس والقنوط سبيلان إلى الكفر. وما هذه النفسية بنفسية مؤمن. فالمؤمن يتقلب بين السراء والضراء وبين الشكر والصبر وبين الخوف والرجاء وبين الخير والشر وبين الصحة والمرض وبين الغنى والفقر. إن أصابه ما يحب شكر الله المنعم المتفضل وردّ الفضل إليه. وإن أصابه ما يكره صبر وأناب واستغفر وعلم أنّ هذا هو قدر الله. وما شاء الله كان ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رُجعتُ إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى ﴾  
 مثل هذا الشخص محبّ للذات مفرط في الإقبال على متع الحياة. لا يريد من الدنيا إلا وجهاً واحداً مبتسماً أبداً وإلا قنط ويئس. وهذا من ضيق الفكر إذ الحياة خشونة ونعومة وبؤس ونعيم.

فإذا أنعم الله عليه وأجاب دعاءه الذي لا ينتهي جحد وكفر وقال: ﴿ هذا لي ﴾ أي أنّ هذه النعم نتيجة جدّي وكدّي وعملي وهي حقّي وأنا أستحقّها. وهذا هو نفس قول قارون ﴿ إنّما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص ٧٨]. فهذا المغرور يقول هذا ما

استحقَّه على الله نتيجة عملي. فهو مخذول يرى النعمة حقاً واجباً له على الله. ولم يعلم أنَّه ابتلاء بالنعمة والمحنة ليميز الله الخبيث من الطيب. يقول الحق سبحانه: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرجعون ﴾ [الأنبياء ٣٥].

هذا الغرور يدفع صاحبه إلى أحد أمرين أو ربّما إلى الأمرين جميعاً:

أ- إمّا إنكار البعث فيطلب لدنياه ويعيش دنياه كأنه يعيش أبداً ظاناً أنَّه لا حساب ولا عقاب.

ب- أو يتمنى على الله الأمانى بلا عقيدة صحيحة ولا عمل صالح مقبول ولا صراطٍ مستقيم. ﴿ وما أظنّ الساعة قائمة ﴾: فهو هنا يُنكر البعث والنشور والحساب ويُنكر وجود الثواب والعقاب والجنّة والنّار. وقد قالها صاحب الجنّتين في سورة الكهف: ﴿ وما أظنّ الساعة قائمة ﴾ [الكهف ٣٦]. ﴿ ولئن رُجعتُ إلى ربّي إنّ لى عنده للحسنى ﴾ وهذا أيضاً يذكّرنا بقول صاحب الجنّتين: ﴿ ولئن رُددتُ إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً ﴾ [الكهف ٣٦]. إنّه يتمنى على الله الأمانى مع أنّه في الآية السابقة قدّم الكفر وإنكار البعث وإنكار الحساب. فهو يعتقد أنّ الأمر هو كما تقول أمثال الجهلاء:

"سعيد الدنيا سعيد الآخرة ومحروم الدنيا محروم الآخرة".  
وهذا من سوء الاعتقاد وفساد التفكير.

وقد توعدّ العزيز الجبّار أمثال هؤلاء بعذابٍ غليظٍ<sup>(١)</sup> تشتدّ  
آلامه لفساد اعتقادهم ﴿ فلننبئّ الذين كفروا بما عملوا  
ولنذيقنّهم من عذاب غليظ ﴾. وقد نسي هؤلاء أنّ الله قادرٌ  
عليهم في الدّنيا ولكنه سبحانه يُملي لهم ليزدادوا إثماً ويؤخّرهم  
ليوم تشخص فيه الأبصار<sup>(٢)</sup> حيث العذاب الشّديد في انتظارهم لا  
محيص لهم عنه<sup>(٣)</sup>.

﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصّالحات أولئك لهم مغفرة وأجر  
كبير ﴾: أمّا المؤمنون الصابرون على المكاره والابتلاءات يعملون  
الصّالحات وقت الرّخاء والعافية فلهم مغفرة بما صبروا على  
الضّرّاء ولهم أجر كبير بما أسلفوا<sup>(٤)</sup> زمن الرّخاء. كما في الحديث  
الذي رواه أبو سعيد الخدريّ وأبو هريرة قالاً: قال رسول الله صلّى  
الله عليه وسلّم: "والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ

(١) عذاب غليظ: عذاب شديد القسوة.

(٢) تشخص فيه الأبصار: ترتفع الأبصار ولا تطرف من شدّة الهول.

(٣) لا محيص لهم عنه: لا مهرب ولا ملجأ لهم.

(٤) أسلفوا: قدّموا من طاعات في الدنيا.

ولا نَصَبٌ<sup>(١)</sup> ولا وَصَبٌ<sup>(٢)</sup> ولا حَزَنٌ<sup>(٣)</sup> حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر  
الله عنه بها من خطاياها" [متفق عليه]<sup>(٤)</sup>

وفي الصحيحين من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم: "ما من مسلم يُصيبُه أذى شوكة فما فوقها إلا  
كفر الله بها سيئاته وحطّ عنه ذنوبه كما تحطّ الشجرة ورقها"  
[متفق عليه]<sup>(٥)</sup>

---

(١) نَصَبٌ: تعب.

(٢) وَصَبٌ: مرض.

(٣) حَزَنٌ: كلّ ما يُحزن ويغمّ.

(٤) أخرجه الشيخان البخاريّ ومسلم.

(٥) أخرجه الشيخان البخاريّ ومسلم.

## من سورة الزُّخْرُفِ (٤٢)

### قياس باطلٍ باطلٍ

يقول الحقّ سبحانه:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا  
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝  
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ  
لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزُّخْرُفِ ٥٧ - ٦٠].

### سبب نزول الآيات:

سورة الزُّخْرُفِ مكيّة. ولَمَّا نزلت سورة مريم وقصّتها مع البشارة  
بعيسى ثم مولده قال بعض مشركي العرب الذين يعبدون الملائكة  
على أنّهم بنات الله: "نحن أهدى من النصارى لأنّهم عبدوا آدمياً  
من سكّان الأرض ونحن نعبد ملائكة وهم من سكّان السماء".

لقد أراد هؤلاء المجادلون من مشركي العرب أن يقولوا: إنّهم  
أصحّ نظراً وأسلم عقيدة وأصوب إتّجهاً ومنطقاً من النصارى  
الذين يعبدون عيسى بن مريم وهو بشر أمّا هم فيعبدون الملائكة.

ولَمَّا نزلت آية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ  
أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء ٩٨] فسّر هؤلاء القوم هذه الآية على  
أنّها لا تعنيهم ولا تعني آلهتهم لأنّها تذكر كلمة "ما" الموصولة

وهي عندهم للجمادات. فقالوا إنّ المقصود بالآية هي الأصنام وما نحوها ممّا لا يَعقل. ولو كان الله يريد آلهتنا من الملائكة أو المسيح أو عُزَيْر الذي عبده اليهود لكانت الآية تنصّ على "إنّكم ومن تعبدون". وقالوا: "على كلّ حال فنحن نرضى أن تكون آلهتنا من الملائكة مع عيسى وعُزَيْر".

ولمّا ذهب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو هؤلاء القوم إلى ترك الشُّرك والدخول في الإسلام ضربوا له مثل عيسى بن مريم ﴿ وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلّا جدلاً ﴾ أي لمّا بين الله سبحانه حال عيسى العجيبة في كتابه الكريم اتّخذة قومك يا محمّد ذريعة لترويج وتسويق ما هم فيه من الباطل: بأنّ عيسى مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبُد. فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهّرين مكرّمين. هذا ما قصدوه بسؤالهم ﴿ آلهتنا خير أم هو ﴾. فأبطل الله سبحانه ذلك بأنّه مقايسة باطل بباطل. وأنّ النصرى باتّخاذهم عيسى إلهاً أو ابن الله أو ثالث ثلاثة هم مبطلون مثلكم في اتّخاذكم الملائكة آلهة. وأنّ الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثل عيسى عليه السلام. وأنّه لا فرق في ذلك بين المخلوق توالداً كعيسى عليه السلام والمخلوق إبداعاً كالملائكة. ولا فرق في ذلك بين مخلوق من تراب وآخر من نور فلا يصلح القسمان للألوهيّة.



فكلّ مخلوق هو عَبْدٌ لمن خلقه ولا يصلح المخلوق للألوهيّة.  
﴿ ما ضربه لك إلا جدلاً ﴾.

إنّ أهل الباطل يتّخذون من الجدل وسيلة لإثارة الشُّبهات  
وتأييد ظنونهم ومزاعمهم دون استناد إلى برهان أو دليل أو منطق  
سديد أو الإستنارة برأي رشيد. هذا هو دأب الملحدين وأهل البدع  
والضلال في كلّ عصر. هؤلاء المشركون يجادلون بالباطل  
ليدحضوا به الحقّ وليزيّنوا الباطل وليبرّروا شركهم وضلالهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض  
يخْلُفون ﴾. بيّن الله لهم أنّه سبحانه قادر على أن يخلق أعجب  
من خلق عيسى. فقد خلق الله آدم من غير أبٍ أو أمّ وهذا أعجب  
من خلق عيسى الذي خُلِق من أمّ بلا أب. ويبيّن سبحانه أنّ  
الملائكة أيضاً مخلوقون ولو شاء أن يسكنهم في الأرض بدل  
السماء لفعل وأنّه ليس في إسكانهم السماء شرف حتى يُعبدوا أو  
يُقَالُ عنهم أنّهم بنات الله. ولو شاء الله أن يجعلهم خلفاً عنّا  
يَعْمُرُونَ الأرض بدلاً منّا لفعل.

إنّ عيسى ابن مريم ما هو إلا عبد من عباد الله  
أنعم الله عليه بالنبوّة والرّسالة وجعله من أولي  
العزم من الرسل وجعله مثلاً ودليلاً لبني إسرائيل

وغيرهم على قدرة الله تعالى في الخلق. وقد أيده الله في رسالته بآيات منها إحياء الموتى وإبراء الأكمه. (١) والأبرص (٢) وسائر الأسقام (٣) ما لم يكن لغيره في زمانه. فما يليق بعقل أن يجعله إلهاً أو ابناً لله أو ثالث ثلاثة كما يقولون. فإن الله إله واحد. ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ۝ لن يستنكف (٤) المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ [النساء ١٧١ - ١٧٢].

﴿ وإنه لعلمٌ للساعة (٥) فلا تمترن بها ﴾ (٦).

(١) الأكمه: الذي خُلق أعمى.

(٢) البرص: مرض جلديّ يغيّر لون أجزاء من الجلد. وكان "الكمه" و "البرص" عاهتان لا علاج لهما في ذلك الوقت.

(٣) الأسقام: الأمراض والعاهات المستعصية على العلاج.

(٤) يستنكف: يأنف ويرفّع ويستكبر.

(٥) وإنه لعلمٌ للساعة: نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض هو أحد العلامات الكبرى على قرب الساعة.

(٦) فلا تمترن بها: أى لا ترتابوا ولا تشكّوا ولا تجادلوا في أمر الساعة.

إنّ نزول عيسى من السماء إلى الأرض قبيل قيام الساعة شرط من أشراتها الكبرى تُعرف به. وإنّ ظهور عيسى أمانة ودليل على قيام الساعة. وقد تواترت الأحاديث بأنّ المسيح عيسى ابن مريم سينزل قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مُقسِطاً وصحابياً جليلاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعلى دين الإسلام وسيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويحجّ إلى مكة ويتزوج وينجب تحقيقاً لقول الله سبحانه في سورة الرعد ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [الرعد ٣٨].

وكما أخذنا فكرة عن المسيح ابن مريم عليه السلام فلنأخذ فكرة عن الملائكة: الملائكة عليهم السلام هم خلق من خلق الله. خلقهم الله من نور وخلقهم إبداعاً بكلمة "كن فيكون". لا هم ذكور ولا هم إناث. من قال إنهم إناث فقد كفر ومن قال إنهم ذكور فقد فسق. ومن قال إنهم بنات الله فقد افتري على الله إثماً عظيماً. ومن عبدهم مع الله أو من دون الله فقد أشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس له به علم ومأواه جهنّم وبئس المصير.

لهم أجنحة أقلها اثنان وأكثرها ستمائة جناح. كلّ جناح يملأ ما بين المشرق والمغرب. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبولون ولا يتغوطون ولا

يتزاجون ولا ينامون ولا يتعبون ولا يمرضون ولا يكبرون في السن  
ولا يموتون إلا عندما يشاء الله بعد نفخة الصّعق حين تموت كلّ  
الخلائق ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام والمُلك يومئذٍ  
لله الواحد القهار.

لهم وظائف ومهمّات خُلِقُوا من أجلها. يستعملهم الله في تدبير  
الكَوْن وفي مصالح وأرزاق العباد. يؤدّون واجباتهم بكلّ أمانة وبكلّ  
دقّة وبكلّ طاعة. ﴿ وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد  
مُكْرَمُونَ ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴿ يعلم ما بين  
أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته  
مشفقون ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم  
كذلك نجزي الظالمين ﴿ [الأنبياء ٢٦ - ٢٩].

يتفاوتون في الخِلْقَةِ وفي الشكل وفي الحُسْن وفي الكرامات وفي  
قربهم من الله سبحانه. منهم حملة العرش ومنهم من هم حول  
العرش ومنهم الملائكة المقرّبون وعلى رأسهم جبريل وميكائيل  
وإسرافيل نافخ الصور وملائكة الموت وحفظة الخلق والكتّابون  
الكرام. هم سكّان السّماوات السّبع. وظائفهم قد تكون في السّماء  
وقد تكون على الأرض وقد تكون بين السّماء والأرض. قد يتشكّلون  
في غير هيّاتهم التي خُلِقوا عليها ولكن لا يتشكّلون إلا على أحسن

صورة وعلى أحسن هيئة بشر. وقد كان جبريل عليه السلام أحياناً يأتي النبي صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبي أجمل رجل في الجزيرة العربية آنذاك. هم شهود على الناس يوم القيامة. وهم يستغفرون للمؤمنين خاصة ولمن في الأرض عامة. هم مُسَخَّرُونَ ليس لهم حق الاختيار. وهم في طاعة تامة دائمة. ليس عليهم حساب في الآخرة. جعل الله الإيمان بوجودهم - وهم غيب لا نراهم - ركناً من أركان الإيمان.

وبعد أن طوّفنا بعيسى والملائكة نعود إلى المثل:

**الطرف الأول: (المشبهه):** مشركو العرب يعبدون الملائكة وهم خَلَقُ من خَلْقِ الله.

**الطرف الثاني: (المشبهه به):** النصارى يعبدون عيسى ابن مريم وهو خَلَقُ من خَلْقِ الله.

**وجه الشبه:** هنا ينطبق المشبه به على المشبه تمام التّطابق لأنّ كليهما باطل. فهو قياس باطلٍ بباطلٍ وضلالٍ بضلالٍ وشركٍ بشركٍ وإفكٍ بإفكٍ.

قال الله تعالى: ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتّخذوا عبادي من دوني أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نُزُلًا ﴾ [الكهف ١٠٢].

وقال عيسى ابن مريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الزُخْرَفُ ٦٤].

﴿ وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾: هذا كلام رب العالمين موجّه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ذهب يدعو القوم إلى توحيد الله وَنَبَذِ الشُّرْكَ وَالِدَّخُولِ فِي الإِسْلَامِ. قل لهم يا محمّد ﴿ اتَّبِعُونِ ﴾: أي استجيبوا لما أدعوكم إليه من الإسلام. فالإسلام هو الطّريق المستقيم الذي يوصل إلى رضا الخالق المعبود الواحد القهّار. وهو الطّريق القويم إلى جنّة الله التي أعدّها لأهل التوحيد الخالص والطّاعة والإخلاص. وصلى الله وسلم على الحبيب المصطفى الهادي إلى صراط الله المستقيم.

أنهار الجنة

قال الحق سبحانه:

﴿ مثل الجنة التي وَعِدَ المتّقون فيها أنهارٌ من ماء غير آسن<sup>(١)</sup> وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لَذَّةٍ للشّارين وأنهار من عسل مصقّى ولهم فيها من كلّ الثمرات ومغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار وسُقُوا ماء حَمِيمًا فقطع أمعاءهم ﴾ [محمد ١٥].

هذا مثل مدنيّ. في شقّه الثاني (المشبه به) حذف تقديره "جنة في الدنيا". ففي الوقت الذي لا تنصرف فيه الأذهان إلى مثلي آخر كان حذف الممثل به وهو "جنة الدنيا". أبلغ من ذكره.

والآن إلى المثل:

الطرف الأوّل: (المشبه به): جنة الآخرة التي وَعِدَ المتّقون.

الطرف الثاني: (المشبه به): جنة في الدنيا.

أداة التشبيه: كلمة "مثل" في بداية الآية.

وجه الشبه: كلاهما يسمّى جنة مع التأكيد على ما بين الجنّتين من فَرْقٍ وَتَمَازٍ<sup>(٢)</sup>. والمثل يؤكّد على هذا التمايز بأن يذكره وهو هنا أنهارٌ من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من

(١) ماء غير آسن: ماء غير راكد وليس له رائحة. بل ماء جارٍ طازج مخلوط بالكافور والتسنيم.

(٢) تمايز: اختلاف كبير فجنة الآخرة لا تشبه جنان الدنيا إلّا في الاسم.

خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصَفَّى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربّهم.

هذه الأشياء والنعم بالتأكيد لا تتوفر في جنان الدنيا. وهي بالتأكيد من ميزات جنّة الآخرة حصراً. وهذا ما يجعل جنّة الآخرة سلعة الله الغالية.

ويرى كثير من المفسرين أنّ (مثل الجنّة) في سورتي الرعد ومحمّد ليستا من الأمثال القرآنيّة وإنّ احتويتا على كلمة "مثل". ذلك لأنّهم لم يتوصّلوا إلى أنّ هناك مشبّهاً به محذوفاً. ومن توصّل إلى ذلك لم يتوصّل إلى تقدير هذا المحذوف.

فكانت تفاسيرهم أنّ الآيتين هما وصف للجنّة وليست أمثالا. وأنّ ذكر كلمة "مثل" في بداية الآيتين ما هو إلّا لأنّ وصف الجنّة فيه من الغرابة ما يشبه غرابة الأمثال.

والحقيقة أنّ الآيتين في سورتي الرعد ومحمّد ليستا مجرد وصفين للجنّة من غير تمثيل لها بجنّة الدنيا. فهما وصفان لها عن طريق تمثيلها بجنّة الدنيا مع النصّ على ما بين الجنّتين من فارق. وجنّة الدنيا لها دور في المثل أبعد من مجرد اشتراك في الاسم. فهي الإطار لصورة جنّة الآخرة وبدون هذا الإطار تكون الأنهار كأنّها في صحراء أو في فراغ يصعب على العقل استحضاره. إذاً فجنّة الدنيا



وضعت الأنهار في الآية داخل إطار أمّا المحتوى فشيء آخر لا يتوفّر إلا في جنّة الآخرة. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حين ربط بين جنّة الدنيا وجنّة الآخرة ﴿ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار كلّما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطّهرة وهم فيها خالدون ﴾ [البقرة ٢٥].

وهنا في هذه الآية تمّ الربط بين جنّة الآخرة وثمارها وبين جنان الدنيا. فالفاكهة والثمرات تشبه ثمار الدنيا في الاسم فقط. أمّا في الطعم والشكل والرائحة فشيء آخر يخصّ جنّة الآخرة حصراً.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن<sup>(١)</sup> هو لماذا كرّر الله مثليّ الجنّة مرّتين في القرآن؟ يجيب عن هذا السؤال الدكتور الفيّاض بأنّ آية الرّعد مكّيّة وأهل مكّة وإن كانوا يعرفون الجنان إلاّ إنّهم محرومون منها وفي أشدّ الحاجة إليها. فيكفي لحثّهم على الإيمان والتّوحيد وصف الجنّة من غير ما تفصيل. فكيف وقد وُصفت بجريان أنهارها ودوام أكلها وظلّها؟ لذلك كان في الإيجاز كفاية.

أمّا آية سورة محمّد التي بين أيدينا فمدنيّة. وأهل المدينة كانت لهم جنانهم بما حوّث من أنهار وثمار وظلال فلا يكفي في

(١) يتبادر إلى الذهن: يخطر على البال.

إغرائهم مجرد الوعد بالجنة من غير ما إظهار لكثير مما فيها مما تفتقر إليه جناتهم كيما<sup>(١)</sup> تهون عليهم التّضحية بما عندهم. ولهذا فالأنهار ذُكرت بأنواعها: فأنهار من ماء وأنهار من لبن وأنهار من خمر وأنهار من عسل وجميعها خالصة مما يشوب مثيلاتها في الدّنيا هذا على فرض لو وُجدت في الدّنيا. وما قيل في الأنهار يمكن أن يُقال في الأكل والثّمرات. فكان الوصف يمرّ على تنوع النّعم وتوفّر مالذ وطاب.<sup>(٢)</sup> [انتهى]

وبهذا الجواب يكون المثل الثاني في سورة محمّد والذي بين أيدينا الآن ليس صورة مكرّرة من المثل الأوّل في سورة الرّعد. وذُكر أحدهما لا يُغني عن الآخر. والجنة سلعة الله الغالية<sup>(٣)</sup> فكيف يتم حصر أوصافها في آية أو آيتين؟ إنّما الأمثال عبارة عن منظر مقرب يقرب لنا صورة الجنة دون أن نراها حقيقة أو نرى تفاصيلها فهي من الغيبيات. وما فيها من تفاصيل فيجب أن تكون مفاجأة مخبّأة لساكنيها جعلنا الله منهم بفضلهم وجميع المسلمين. والله إنّ ذلك لهو الفوز العظيم.

(١) كيما = حتّى - لأجل أن.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم محمّد جابر الفيّاض ص ٢٢١ بتصرّف.

(٣) والجنة سلعة الله الغالية: التي يعمل لها العاملون ويشمّر لها المشمّرون. فالنّاس يقضوا أعمارهم في هذه الدّنيا صلاة وصياماً وحجّاً وعمرة وأضاحي وجهاداً في سبيل الله وينفقون أموالهم كلّ ذلك وغيره يُقدّم ثمناً لهذه السلعة الغالية. والفوز بها يُعتبر هو الفوز المبين. جعلنا الله ووالدينا وجميع المسلمين من أهل الجنة.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن بعض ما في الجنة من التّعيم من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمفارش والمناكح والمساكن. فأخبرنا سبحانه أنّ فيها لبناً وعسلاً وخمراً ولحماً وفاكهة وذهباً وفضّة وحوراً وقصوراً وياقوتاً ومَرْجاناً وَسُنْدُساً واستَبْرَقاً ولؤلؤاً وكافوراً وزنجبيلاً وخدماً وفُرْشاً وأنهاراً وأرائك وظلالاً.

أمّا ما هو أجمل وأروع من هذا كلّه فسنعرفه من خلال هذين الحديثين القُدسيّين:-

أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنّ النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى ياربّ وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ياربّ وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: "أجلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً".

وأخرج الإمام مسلم عن صهيب عن النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنا؟ ألم

تدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فما أُعْطُوا شيئاً أَحَبَّ إِلَيْهِم من النَّظَرِ إلى رَبِّهِم عَزَّ وَجَلَّ".

وفي رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس ٢٦].

ويبقى في هذا المثل أن نشرحه ونوضح تقاطعاته:-

فالجنة بها أنهار ليس كأنهار الدنيا. ماء أنهارها صافي نقي لا كدر فيه ولا شوائب ولا زبد ولا طحالب.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك. وأنهار من لبن في غاية البياض والدُّسُومَة. وفي حديث مرفوع أن هذا اللبن "لم يخرج من ضروع الماشية".

وأنهار من خمر ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا. بل حسنة الطعم والمنظر والرائحة ما بها من صداع ولا ندامة. وفي حديث مرفوع "لم يعصرها الرجال بأقدامهم" ﴿ لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنْزَفُونَ ﴾ [الصافات ٤٧]. لا صداع فيها ولا ذهاب للعقل.

وأنهار من عسل مصفى في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح. وفي حديث مرفوع "لم يخرج من بطون النحل".

عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد".<sup>(١)</sup> وفي الصحيح: "إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن".<sup>(٢)</sup>

وعن أنس بن مالك قال: "لعلكم تظنون أنّ أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض. والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر".<sup>(٣)</sup>

اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت ... خَلَقْتَنِي وأنا عبدك  
وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت...

أعوذ بك من شرّ ما صنعت...

أبوء لك بنعمك عليّ .. وأبوء بذنبي ...

فاغفر لي ... فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.<sup>(٤)</sup>

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) رواه أبو هريرة وأخرجه ابن خزيمة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أنس. ورواه ابن مردويه مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٤) هذا سيّد الاستغفار. وكلمة "أبوء": تعني أقرّ وأعترف.

## من سورة الفتح (٤٤)

أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في  
الكتب السماوية

يقول الحق سبحانه:

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح ٢٩].

هذه الآية الكريمة من سورة الفتح وهي من السور المدنية نزلت لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة. كان المشركون قد حالوا بينه صلى الله عليه وسلم وبين الوصول<sup>(١)</sup> إلى المسجد الحرام لأداء العمرة. ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة<sup>(٢)</sup> وأن يرجع صلى الله عليه وسلم عامه هذا ثم يأتي من قابل<sup>(٣)</sup> فأجابهم صلى الله عليه

(١) حالوا بينه وبين الوصول: أي منعه من الوصول إلى البيت الحرام.  
(٢) مالوا إلى المصالحة والمهادنة: رغبوا في الصلح والهدنة بين الطرفين.  
(٣) يأتي من قابل: أي يرجع إلى المدينة هذا العام ثم يعود للعمرة العام المقبل.

وسلّم إلى ذلك فيما عُرف بصلح الحُدَيْبِيَّة. نزلت سورة الفتح لتجعل الحُدَيْبِيَّة فتحاً مبيناً: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح ١].

قال جابر: "ما كنّا نعدّ الفتح إلّا يوم الحديبية". وقد كان كذلك. فلما وقع الصّحح تحرّك النَّاس بحريّة وعلموا وسمعوا عن الله وعن الإسلام ما أرادوا. فما أراد أحد الإسلام إلّا تمكّن منه. كان المسلمون في الحديبية ألفاً وأربعمائة. وبعد سنتين فتح النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّة في عشرة آلاف.

وآية المثل التي بين أيدينا في خاتمة سورة الفتح تصف النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رضوان الله عليهم. ذلك بأنّ الكتابيين<sup>(١)</sup> قد زعموا<sup>(٢)</sup> أنّ وصف الرسول الذي كانوا يترقّبونه<sup>(٣)</sup> لا ينطبق على محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ولأنّ اليهود والنّصارى زعموا كذباً وافتراءً أنّ أوصاف الرسول الذي بشرتهم به التّوراة والإنجيل لا تشبه أوصاف محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم جميعاً. لذلك أعاد

(١) الكتابيين: أصحاب الكتب السّماوية قبل الإسلام وهم هنا اليهود والنّصارى.

(٢) زعموا: قالوا كذباً وبهتاناً.

(٣) يترقّبونه: ينتظرونه بفارغ الصّبر.

الله ذكر هذه الأوصاف في القرآن كما وردت في الكتابين السابقين التّوراة والإنجيل ليؤمن منهم من يؤمن عن بيّنة ويُنكر من يُنكر عن بيّنة. فهذا هو وصف محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وهو الذي ذُكر في الكتابين التّوراة والإنجيل. وإذا لم يكن هذا هو وصف الرّسول الذي وُعدتم به فما هو وصفه؟ فردّ هذا المثل ما تعللّ به الكتابيون في تكذيب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وثبتّ المؤمنين وزادهم إيماناً على إيمانهم.

وتفسير الآية أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم هو رسول الله حقّاً بلا شكّ ولا ريب. وهذا التأكيد مشتمل على ما للرّسول من أخلاق عظيمة ورحمة ونور وهداية وكلّ صفة جميلة صلّى الله عليه وسلّم. ثم ذكر أصحابه رضوان الله عليهم أشدّاء على الكفّار رحماً بينهم. وهذه صفة المؤمنين. ثم وصفهم بالصّلاة وهي خير الأعمال وعمود الدّين ووصفهم بالإخلاص لله. ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ أي سمّتهم الحسن<sup>(١)</sup> ودليل خشوعهم وتواضعهم وهديتهم وطول مناجاتهم لرّبهم في السجود فهم بمثابة الحواريين في هذه الأمّة. فرسانٌ بالنّهار يوصلون نور الله إلى كلّ الأصقاع رهبانٌ بالليل يبكون من الخوف من الله. ذلك مثلهم في التّوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فشده

(١) سمّتهم الحسن: إذا نظرت إلى وجه أحدهم ترى نوراً يَشع من وجهه.



فشبّ وطال<sup>(١)</sup>. والمقصود من هذا الجزء من المثل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين استجابوا لدعوة الحبيب ودخلوا في دين الله فأزروه وأيدوه ونصروه وقوّوه فزاد عود الإسلام قوّة وصلابة ونُموّاً فهم معه وحوله كالشطاء مع الزرع.

يقول القرطبي: "هذا أصح مثل وأقوى بيان". [انتهى].

والحقيقة أنك لو طُفّت أقطار الأرض شرقها وغربها بحثاً عن مثل يوازي هذا المثل أو يفوقه صحّة وجمالاً وصدقاً لما وجدت. فلا يمكن تشبيهه وضع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأجمل من هذا المثل.

والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم كثيرة ويكفيهم فخراً أنهم من أوصل إلينا هذا الدين غضّاً طريّاً قوياً عزيزاً نديّاً وكأننا كنّا نشهد نزول الوحي من السماء. فلا يجوز سبهم أو بغضهم أو ذكر ما حدث بينهم من اختلافات. ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ووعدده لهم بالثواب الجزيل والرّزق الكريم ووعد الله حقّ وصدق. ويكفيهم تزكية الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ورضاه عنهم ووصفهم بالنجوم والهدى والنهي عن أذيتهم أو سبهم.

(١) أخرج شطاء: أي التّبنة الرئيسية تُخرج أولادها وفراخها من جنسها حولها. وتلاحظ ذلك في شجر النخيل والموز والخيزران وفي نبات الخس. هذه النباتات الجديدة تساند النبات الأصلي وتقويه.

عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم:  
 "لا تُسبّوا أصحابي فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدْ ذهباً ما بلغ مدّ  
 أحدهم ولا نصيفه" [أخرجه الشيخان].

وكلّ من اقتفى أثر الصّحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم  
 ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه  
 الأُمَّة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنّات الفردوس مأواهم.  
 وقد سمّاهم الله السّابقين السّابقين ﴿ والسّابقون السّابقون ﴿  
 أولئك المقرّبون ﴿ في جنّات النّعيم ﴿ ثلّة من الأوّلين ﴿ وقليل  
 من الآخريّن ﴿ [الواقعة ١٠ - ١٤].

ونعود للمثل:

**الظرف الأوّل: (المشبّه):** النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه  
 الكرام.

**الظرف الثّاني: (المشبّه به):** الزرع وشطّاه.

**أداة التشبيه:** تكرار كلمة "مثل" وحرف الكاف في كلمة "كزرع".

**وجه الشّبّه:** هذا المثل ضربه الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم  
 وأصحابه. فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم بدأ وحيداً ضعيفاً ثم بدأ  
 يجيبه الواحد بعد الواحد حتى قوّي أمره مثلهم في ذلك مثل الزرع  
 يبدو بعد نباته ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى تمتدّ جذوره في

الأرض فيغلظ ساقه ويُخْرِجُ أفراخه. فالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الزَّرْعُ وَأَصْحَابُهُ هُمُ الشَّطَاءُ الَّذِينَ آزَرُوهُ<sup>(١)</sup> وَأَعَانُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ فَكَانَ هَذَا مِثْلًا لِبَدءِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَتَرْقِيهِ فِي الزِّيَادَةِ إِلَى أَنْ قَوِيَ وَاسْتَحْكَمَ. ذَلِكَ وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ الصَّحَابَةِ فِي التَّوْرَةِ بِأَنَّهُمْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ يُكْثِرُونَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ. خَلَصَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ فَكُلٌّ مِنْ نَظَرٍ إِلَيْهِمْ أَعْجَبَ بِسَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ.

يقول الأستاذ طاحون: فتأمل - يا ذا اللب - أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها وانظر إلى هذه الصورة الرائعة الواضحة الخطوط والمعالم. صورة الزرع النامي المبهج بخضرته وكثافته وتحوله من الضعف إلى القوة واستقامته على أصوله وقد آتى أكله وسر جمال قلوب أصحابه. وتأمل أمة قوي إيمان أهلها واستقامت أخلاقهم والتحمت صفوفهم وأطاعوا قائدهم وأوفوا بعهودهم وتعاونوا على البر والتقوى وتعلموا وعلموا وثبتت أقدامهم في ساحات الشرف وميادين الوغى<sup>(٢)</sup> وكانوا زهباناً بالليل فُرساناً بالنهار. همهم تخليص الناس من الزَّيْغِ<sup>(٣)</sup> والضلال والكفر

(١) آزره: أي ساعده وساندوه.

(٢) ميادين الوغى: أي ساحات المعارك والقتال.

(٣) الزَّيْغُ: الاعوجاج والابتعاد عن الطريق المستقيم.

والجهل والإلحاد والفساد. أمة تأدّبت بأدب القرآن واقتدت بالنبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم. <sup>(١)</sup> [انتهى].

قال قتادة: مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر. [انتهى].

وليتدبر قادة هذه الأمة ونخبها ومفكروها وأولوا الأمر فيها والمخلصون منها والغيورون على مجدها ورفعتها. وليتدبروا حال أمة الإسلام في عزّها ومجدها وتألقها. ثم ليتأملوا ما أصابها من تخاذل ووهن <sup>(٢)</sup> وجهل وخمول وقد صارت كزرع هشيم <sup>(٣)</sup> تذرّوه الرّيح بسبب بُعْدِهَا عن مصادر قوّتها وبُعْدِهَا عن كتاب الله وسنة الحبيب الهادي صلى الله عليه وسلم. تأملوا وادعوا الله أن يبدّل الحال إلى أحسن حال. وإن يهيئ لهذه الأمة من يُعلي شأنها ويعيد إليها مجدها وأيام عزّها. فأمتنا أمة ولادة خلاقة لن تعجز أن تلد عُمرًا ولا خالدًا ولا أبا عبيدة جديدًا ولن تعجز أن تقف على ساقها وتشمخ برأسها فوق السُّحُب. ادعوا الله أن يخضر الزرع بعد ذبوله لتعود للأمة الإسلامية سيرتها الأولى قويّة في الحقّ مرهوبة الجانب

(١) أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم لأحمد محمد طاحون ج ٢ ص ١٩٦.

(٢) تخاذل ووهن: ضعف وتراجع.

(٣) كزرع هشيم: كنبات يابس جاف مهشّم.

تقود مسيرة الحضارة وتحمل مشاعل الهداية والعلم النَّافع إلى كلِّ النَّاس وتحمل العدل والسلام والإخاء إلى كلِّ الآفاق. آمين.

لقد كان هذا المثل الرائع المُحكّم موكباً إيمانياً عظيماً اشْرأبت إليه أنظار العالم<sup>(١)</sup> وأعناقهم في مشارق الأرض ومغاربها.

انتهى الحديث عن المثل القرآني وقد وَصَفْنَا أصحاب رسول الله الكرام ببعض ما هم أَهْلٌ له ونعلن هنا عن عجزنا عن كامل وصفهم ولكننا نعاهد الله ثم نعاهدهم أننا على دربهم سائرون حتّى يجمعنا الله بهم في مستقرِّ رحمته.

ويأتي الآن دور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير بني آدم وقائد البشريّة وخاتم النبيّين ورسولُ ربِّ العالمين ورحمة الله للخلق أجمعين. ونعترف هنا أنّه لكي نصف بعض ما هو أَهْلٌ له فسنسطر أسفاراً ومجلّدات ولكن رحمة بالقارىء فسنختار من كلِّ باقة زهرة أو زهرتين كذكرى والذكرى تنفع المؤمنين ليتدبّر من كان له قلب أو ألقى السَّمْع وهو شهيد.

### أولاً: جمال الخلق:

قالت أمّ معبد الخُزاعيّة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصفه لزوجها حين مرّ بخيمتها مهاجراً:

(١) اشْرأبت إليه أنظار العالم: تعلّقت به أنظار العالم.

ظاهر الوضاعة<sup>(١)</sup> - أبلج الوجه<sup>(٢)</sup> - حسن الخلق - وسيم  
 قسيم<sup>(٣)</sup> - في عينيه دعج<sup>(٤)</sup> - وفي أشفاره وطف<sup>(٥)</sup> - شديد  
 سواد الشَّعر - إذا صمت علاه الوقار- وإن تكلم علاه البهاء -  
 أجمل الناس وأبهاهم من بعيد - وأحسنه وأحلاه من قريب- حلو  
 المنطق - له رفقاء يحفون به - إذا قال استمعوا لقوله - وإذا أمر  
 تبادروا إلى أمره.

وقال عليّ بن أبي طالب يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم:  
 كان رَبْعَةً<sup>(٦)</sup> من القوم - بين كتفيه خاتم النبوة وهو خاتم النبيين  
 - أجود الناس كفاً - وأجراً الناس صدراً<sup>(٧)</sup> - وأصدق الناس لهجة  
 - وأوفى الناس ذمّة - وألينهم عريكة<sup>(٨)</sup> - وأكرمهم عشرة - من رآه  
 بديهة هابه<sup>(٩)</sup> - ومن خالطه معرفة أحبّه - لم أر قبله ولا بعده  
 مثله.

وقال البراء: كان أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً.

(١) ظاهر الوضاعة: الجمال.  
 (٢) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.  
 (٣) وسيم قسيم: حسن جميل.  
 (٤) دعج: شديد سواد الحدقة.  
 (٥) في أشفاره وطف: في رموش عينيه طول.  
 (٦) رَبْعَةٌ: متوسط الطول.  
 (٧) أجراً الناس صدراً: أكثرهم شجاعة في الحرب.  
 (٨) ألينهم عريكة: اجتماعي يختلط بالناس.  
 (٩) من رآه بديهة هابه: من رآه لأول مرّة احترمه ووقره.

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة.

وقال جابر بن سمرة: رأيت في ليلة مضيئة مُقْمرة. فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى القمر - وعليه حلة حمراء- فإذا هو أحسن عندي من القمر.

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. كأن الشمس تجري في وجهه. وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. كأنما الأرض تُطوى له. وإنا لنُجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث. (١)

وقال كعب بن مالك: كان إذا سُر استنار وجهه (٢) حتى كأنه قطعة قمر.

وكان أبو بكر إذا رآه يقول:

أمينٌ مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زائله الظلام (٣)

وكان عمر إذا رآه ينشد قول زهير:

لو كنت في شيء سوى البشر كنت المضيء لليلة البدر

ثم يقول: كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث: يتعبنا المشي السريع ولا يتعبه.  
(٢) كان إذا سُر استنار وجهه: في حالة السرور يكاد وجهه يضيء نوراً وإشراقاً.  
(٣) زائله الظلام: أي كضوء البدر في الليلة الصافية لا سحُب فيها.

وقال أنس: ما مَسَسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا شَمَمْتُ عِنْبَرًا قَطُّ وَلَا مِسْكًَ وَلَا شَيْئًا أَطِيبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال أبو حُجَيْفَةَ: أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَوَضَعْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا هِيَ أَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَطِيبُ رَائِحَةً مِنَ الْمِسْكِ.

وقال جابر بن سَمُرَةَ - وَكَانَ صَبِيًّا: مَسَحَ خَدِّي فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا <sup>(١)</sup> كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُودَةِ عِطَّارٍ. <sup>(٢)</sup>

وقال أنس: كَانَ عِرْقُهُ اللَّوْلُؤُ. وَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هُوَ مِنْ أَطِيبِ الطَّيِّبِ. وَكَانَ بَيْنَ كَتْفَيْهِ خَاتَمُ النَّبُوَّةِ مِثْلَ بَيْضَةِ الْحَمَامِ يَشْبَهُ جَسَدَهُ <sup>(٣)</sup> وَكَانَ عِنْدَ أَعْلَى كَتْفِهِ الْيَسْرَى.

### ثَانِيًا: كَمَالُ النَّفْسِ وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ:

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْتَازُ بِفَصَاحَةِ اللِّسَانِ وَبِإِلَافَةِ الْقَوْلِ وَسَلَامَةِ الطَّبَعِ وَنِصَاعَةِ اللَّفْظِ وَجِزَالَةِ الْقَوْلِ وَصِحَّةِ الْمَعَانِ وَقَلَّةِ التَّكَلُّفِ. أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخُصَّ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ وَعِلْمِ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ يَخَاطِبُ كُلَّ قَبِيلَةٍ بِلِسَانِهَا وَيَحَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا. اجْتَمَعَتْ لَهُ

(١) رِيحًا: عِطْرًا.

(٢) جُودَةُ عِطَّارٍ: إِثَارَةُ تَخْزِينِ الْعِطْرِ فِي مَحَلِّ الْعِطَّارِ.

(٣) يَشْبَهُ جَسَدَهُ: أَيُّ أَنَّ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ كَانَ بِنَفْسِ لَوْنِ بَاقِي الْجَسَدِ وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّوْنِ.



جزالة لفظ البادية ونصاعة ألفاظ الحاضرة وَرَوْنَقُ كلامها ثم أَكْمِلَ ذلك بتأييد الوحي والتّزليل.

وكان الحِلْمُ والاحتمال والعفو عند المقدرة والصّبر على المكاره صفات أدبه بها ربّه. **وقالت عائشة:** ما خيّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلّا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها. وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى.

أمّا صفة الجود والكرم فكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. **قال ابن عباس:** كان النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم أجود الناس وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجود بالخير من الريح المرسلّة. **وقال جابر:** ما سئل شيئاً قطّ فقال: لا.

وكان من الشّجاعة والنّجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل. كان أشجع الناس حضر المواقف الصّعبة وفرّ منه المحاربون الأشدّاء غير مرّة وهو ثابت لا يبرح ومُقبِلٌ لا يُدبر ولا يتزحزح. وكان أشدّ الناس حياءً. **قال أبو سعيد الخدري:** كان أشدّ حياءً

من العذراء في خدرها. كان لا يُثبَّت نظره في وجه أحد - خافض  
الظرف - نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء.

وكان أعدل الناس وأعفهم وأصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة  
وكان يُسمَّى قبل نبوته "الأمين". وكان أشدَّ الناس تواضعاً وأبعدهم  
عن الكبر. وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة  
العبيد ويجلس في أصحابه كأحداهم.

وكان أوفى الناس بالعهود وأوصلهم للرحم وأعظمهم شفقة  
ورأفة ورحمة بالناس. لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا  
صخباً في الأسواق. وكان أبعد الناس من سوء الأخلاق لا يجزي  
بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح. لا يذمَّ شيئاً. جُلَّ ضحكه  
التبسم. وعلى الجملة فقد كان النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما  
خاطبه رَبُّهُ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤]. اللَّهُمَّ كما  
أحببناه واتبعناه وصدقناه ولم نره اللهم اجمعنا به على حوضه  
واسقنا من يده الشريفة شربة ماء وادخلنا الجنة في فَوْجِهِ واجعلنا  
من جيرانه في الفردوس الأعلى من الجنة. اللَّهُمَّ آمين.

## من سورة الحجرات (٤٥)

المغتَاب يَأْكُل لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

قال الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾  
[الحجرات ١٢].

لقد نهى الله عز وجل في هذه الآية عن كثير من الظن وهو التُّهْمَة والتَّخْوِين للأهل والنَّاس في غير محلِّه وبلا أمانة صحيحة أو سبب ظاهر.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:  
" إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَجَسَّسُوا <sup>(١)</sup> وَلَا تَحَسَّسُوا <sup>(٢)</sup> وَلَا تَنَافَسُوا <sup>(٣)</sup> وَلَا تَحَاسَدُوا <sup>(٤)</sup> وَلَا تَبَاغَضُوا <sup>(٥)</sup> وَلَا تَدَابَرُوا <sup>(٦)</sup> وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا " [أخرجه البخاري ومسلم].

﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾: كما حرّم الإسلام الاستهزاء بالنَّاس

(١) التَّجَسَّس: الاستماع إلى حديث الآخرين أو التنصت على أبواب منازلهم ومجالسهم.

(٢) التَّحَسُّس: البحث والتقصي عن أسرار النَّاس ونقاط ضعفهم.

(٣) وَلَا تَنَافَسُوا: لَا يَتَحَدَّى بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

(٤) وَلَا تَحَاسَدُوا: لَا يَحْسَدُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلَا يَتَمَتَّى زَوَالِ التَّعَمَّةِ عَنْ أَخِيهِ. بل يسأل الله من فضله.

(٥) وَلَا تَبَاغَضُوا: لَا يَحْقِدُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَا يَكْرَهُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

(٦) وَلَا تَدَابَرُوا: التَّدَابُرُ هُوَ الْقَطِيعَةُ وَالْجَفَاءُ وَهُمَا بَعْدَ عَكْسِ الْإِقْبَالِ وَالْبِشَاشَةِ.

والظن فيهم ومناداتهم بألقابٍ تُؤذيهم وحرّم سوء الظن بالمؤمن دون دليل أو برهان وحرّم البحث عن عيوب الناس وتتبّع مساوئهم. فإنّه أيضاً حرّم الغيبة والنّهش في أعراض الناس وقبح هذا العمل وضرب له المثل لبيان بشاعته وسوئه.

ولقد فسّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغيبة كما جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم "ذكرك أخاك بما يكره". قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتّه وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته". (١)

والغيبة محرّمة بالإجماع ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الحروب وكما في النصيحة أو الإصلاح بين الناس. وقد جاء في الغيبة التحريم الشديد والتنفير منها<sup>(٢)</sup> والتحذير الأكيد.

﴿أحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾:-  
يقول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين: أحبّ أحدكم أن يأكل لحم

(١) بهتته: قذفه بالباطل وجمعت في حقّه مُهلكتان: الغيبة والكذب.  
(٢) التنفير منها: يُمنع مجرّد الاقتراب من الغيبة أو التفكير في ذلك.

أخيه بعد مماته؟ فإن لم تحبوا ذلك وتكرهوه وتعافوه<sup>(١)</sup> لأن الله حرّمه عليكم ولأنه شيء مُسْتَقْدَر<sup>(٢)</sup> فكذلك لا يحلّ لكم أن تغتابوه في حياته. فاكروهوا غيبته حياً كما كرهتم أكل لحمه ميتاً. فإن الله حرّم غيبته حياً كما حرّم أكل لحمه ميتاً. وقد ضرب الله للغيبة المثل لبيان بشاعة هذه الآفة وتقبيحها.

**الطَّرْفُ الأوَّلُ: (المشبه):** الغيبة وذكر أخاك بما يكره وهو غائب.  
**الطَّرْفُ الثاني: (المشبه به):** شبهها الحقّ سبحانه بأكل لحم الميت. بل أكثر من ذلك ليزيد صورة الغيبة بشاعة على بشاعتها جعلها كمن يأكل لحم أخيه الميت.

**أداة التشبيه:** هنا تمّ حذف المشبه واستُخدم المشبه به بدلاً منه فلم يعد هناك حاجة لأدوات تشبيه وأصبح طرفا التشبيه منطبقان على بعضهما تمام الانطباق فكأنها صورة واقعية بالألوان لشخص يَنْهَشُ لحم أخيه ميتاً.

**وجه الشبه:** هذا المثل قدّم لنا صورة ثلاثية الأبعاد. صورة حيّة نابضة مستقرّة في رؤوسنا وذاكرتنا ووجداننا. صورة في غاية البربريّة والبشاعة نستدعيها كلّما سمعنا شخصاً أو جماعة يغتابون آخرين من المسلمين.

(١) تعافوه: تكرهوا مجرد استحضار صورة من يأكل لحم أخيه ميتاً.  
(٢) شيء مُسْتَقْدَر: عمل بزيّريّ بشع وقدر لا يليق بآدميّة الإنسان.

وهذا النص دلّ على أنّ الاغتياب المحرّم الممنوع إنّما هو اغتياب المؤمن دون الكافر.

عن ابن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفِضِ الإيمان إلى قلبه<sup>(١)</sup> لا تغتابوا المسلمين ولا تتبّعوا عوراتهم. فإنّ من يتبّع عورات المسلمين يتبّع الله عورته. ومن يتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله".  
[رواه الحافظ أبو يعلى وأبو داود].

والإسلام يوجّه أبناءه إلى أحسن الأقوال والأفعال ويحذّرهم من أمورٍ عظامٍ هي سبب الفرقة والتّباعد بين أفراد الأسرة والمجتمع. ولا شكّ أنّ إساءة الظّنون بالنّاس إذا شاعت بين أفراد الأسرة أو القرية أو الأمّة فإنّ ذلك يؤدّي إلى النّفور والتّباعد وتقطيع الأواصر<sup>(٢)</sup> ويمنع من التّعاون والتّكافل ويؤدّي إلى شرّ عظيم. وإنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينصح فيقول: "ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلّا خيراً وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً". ذلك لأنّ المسلمين إخوة وانتماء المسلم إلى الإسلام أقوى من انتمائه لجنسٍ أو وطنٍ أو قبيلةٍ أو أسرة. وأخوة

(١) لم يُفِضِ الإيمان إلى قلبه: لم يصل الإيمان إلى قلبه ولم يستقرّ فيه.  
(٢) تقطيع الأواصر: يؤدّي إلى التدابر والتقاطع وقطع الصّلات بالنّاس والأرحام.

الإسلام لا تُساميها<sup>(١)</sup> أي أخوة ولا حتى أخوة الدّم والنّسب.  
والإسلام أبٌ لجميع أبنائه:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبسٍ أو تميم.<sup>(٢)</sup>

والإسلام دين الحكمة والأدب والاحترام والشفافية فهو يؤاخي بين  
أبنائه ويساوي بينهم مساواة قلبية في التّقدير والاحترام. والإسلام  
يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه ويحفظ لكلّ كرامته. فالمسلم لا يحطّ من  
قدر أخيه ولا يحتقره ولا يظلمه ولا يعيبه بقول ولا فعل ولا إشارة  
ولا يناديه باسمٍ يكرهه أو صفة تُنقص من قدره.

فالعلاقة بين المسلمين قائمة على دعائم نقيّة شفافة متينة  
وفضائل عالية رفيعة. فالصغير يوقّر الكبير<sup>(٣)</sup> والكبير يرحم  
الصغير والقويّ يحنو على الضعيف<sup>(٤)</sup> والغنيّ يواسي المحتاج.  
والمسلم يحبّ لإخوانه ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.  
وفي الحديث الصّحيح الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول  
الله صلّى الله عليه وسلّم: "من كان عنده لأخيه مظلّمة<sup>(٥)</sup> في دمٍ

(١) لا تُساميها: لا تعادلها ولا تساويها.

(٢) قبسٍ و تميم: أسماء قبائل عربيّة كان لها شأن ومكانة في الجاهليّة.

(٣) الصغير يوقّر الكبير: أي يحترمه ويسمع كلامه.

(٤) القويّ يحنو على الضّعيف: أي يساعده ويواسيه.

(٥) مظلّمة: أي حقّ بسبب سفك دم أو إهدار مال أو شتم عِرض.

أو مالٍ أو عِرْضٍ فليأته فليستحلَّ منه<sup>(١)</sup> قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار<sup>(٢)</sup> إلا الحسنات والسيئات. فإن كان له حسنات وإلا أخذ من سيئات صاحبه فطُرِحَتْ عليه ثم يُلقى في النار".  
[أخرجه البخاري في الصحيح].

هذا فيما عَلِمَهُ المظلوم من العَوْضِ. فأما إذا اغتابه أو قذفه أو شتمه أو ظلمه ولم يعلم بذلك فقد قيل: من شرط توبته إعلامه. وقيل لا يشترط ذلك وهذا هو الصحيح وهذا هو قول أكثر العلماء. لأنَّ في إعلام المظلوم من المفسدة والمشاحنة وتَحْمِيَةِ الرؤوس ما فيها. وفي الفقه "دَرْءُ المفسادِ مقدَّمٌ علي جَلْبِ المصالح"<sup>(٣)</sup>. فتعيّن على الظالم أن يفعل مع المظلوم حسنات بقدر مظلمته دون أن يشعره بذلك كالدعاء له بظهر الغيب وفي السجود وأوقات الإجابة والاستغفار له وعملِ صالحٍ يُهدى إليه يقوم مقام اغتيابه وَقَدْفِهِ.

قال الحسن البصري: كَفَّارَةُ الغيبة أن تَسْتَغْفِرَ لمن اغتابته بقدر مظلمته.

(١) فليستحلَّ منه: يعتذر إليه ويسأله عما يرضيه مقابل مظلمته ويطلب منه العفو.

(٢) يوم ليس فيه درهم ولا دينار: هو يوم الحساب في الآخرة.

(٣) دَرْءُ المفسادِ مقدَّمٌ علي جَلْبِ المصالح: هذه قاعدة فقهية ذهبية تعني أنّ المفتي يجب أن يضع أمام عينيه في المرتبة الأولى تجنّب المفساد ثم بعد ذلك تأتي أولوية جلب المصالح إذا تيسّرت.



## من سورة الحديد (٤٦)

القرآن حياة القلوب وشفاء لما في الصدور

قال الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد ١٦ - ١٧].

هذه آيات مدنيّة تعاتب فريقاً من المؤمنين فَتُرَّتْ هِمَمُهُمْ<sup>(١)</sup> عن القيام بما نُدبوا له من الخشوع<sup>(٢)</sup> ورقّة القلوب وسماع المواعظ وتدبر القرآن وأحاديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. ﴿ أَلَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْنٍ ﴾: ألم يحن وقت ..... ألم يأت وقت .....

﴿ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أن تذلل وتلين. أما آن للمؤمنين أن ترقّ قلوبهم لذكر الله؟ وتخشع وتلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن والأحاديث فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

(١) فَتُرَّتْ هِمَمُهُمْ: قلّ نشاطهم في أداء التّوافل وقيام اللّيل وصيام التّطوّع.

(٢) بما نُدبوا له من الخشوع: عمّا تعوّدوا عليه وبما هم مطالبين به كصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وقد جاء عن قتادة أنّ ابن عباس قال: إنّ الله استبطن قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وروى أنّ المزاح والضحك كثر<sup>(١)</sup> في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم لما ترقّوهوا في المدينة فنزلت هذه الآية. ولما نزلت قال الرسول صلى الله عليه وسلّم: "إنّ الله يستبطنكم بالخشوع"<sup>(٢)</sup> فقالوا عند ذلك: خشعنا. [تفسير القرطبي]. [انتهى].

وروى أنّ ابن مسعود قال: لما قدّم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد<sup>(٣)</sup> فكأنّهم فترّوا عن بعض ما كانوا عليه فعوتّبوا. [تفسير المراغي]. [انتهى].

وقال محمّد بن كعب: كان الصّحابة بمكة مُجدّبين<sup>(٤)</sup> فلمّا هاجروا أصابوا الريف<sup>(٥)</sup> والنعمة ففتروا عمّا كانوا فيه فقست قلوبهم فوعظهم الله فأفاقوا. [القرطبي]. [انتهى].

وقد جاء عن عيسى عليه السلام قوله: "لا تُكثروا الكلام بغير

(١) المزاح والضحك كثر: من المعروف أنّ كثرة المزاح والضحك تُميت القلب وتورث قسوة القلب لأنّهما عكس التدبّر والخشوع.  
 (٢) إنّ الله يستبطنكم بالخشوع: خشوعكم لما نزل من القرآن تأخّر والله يستعجلكم بالخشوع.  
 (٣) جهد جهيد: في جوع وفقير وحرمان.  
 (٤) مجدّبين: كانوا بمكة في بيئة صحراوية لا زراعة فيها.  
 (٥) الريف: يعني الزراعة وتربية المواشي وتربية النحل فتنوّعت مصادر الرزق.

ذكر الله تعالى فتفسو قلوبكم فإنّ القلب القاسي بعيد من الله  
ولكن لا تعلمون".<sup>(١)</sup> [انتهى].

﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد  
فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾

حذر سبحانه عباده المؤمنين من التشبه بالذين حملوا الكتاب  
من قبلهم من اليهود والنصارى. فإنهم لما طال الزمن بينهم وبين  
أنبيائهم وغرتهم الشهوات وفتنتهم الشبهات بدّلوا كتاب الله الذي  
بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوا تعاليمه وراء ظهورهم<sup>(٢)</sup>  
وأقبلوا علي الآراء المختلفة والأقوال المُبتدعة.<sup>(٣)</sup> ثم كان من  
شأنهم أن قلدوا زعماء الضلال في الدين واتخذوا أحبارهم  
ورهبانهم أرباباً من دون الله فأطاعوهم في معصية الله. وبذلك  
خرجوا عن أوامر الله في الأقوال والأفعال فقست قلوبهم فلا  
يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعيدٍ ولا وعيد. إذ ران على  
قلوبهم من آثار الدُّنوب والمعاصي والمخالفات ما صرفها عن  
الخير وجراًها على الشرّ.

(١) من حديث لأنس بن مالك ذكره ابن المبارك وتم نقله عن القرطبي.  
(٢) نبذوا تعاليمه وراء ظهورهم: أهملوا تعاليم الكتب السماوية ولم يعملوا بها.  
(٣) أقبلوا علي الآراء المختلفة والأقوال المُبتدعة: أخذوا بالنظريات الوضعية وكتب الفلسفة  
والكهانة والتفاسير الضالة وكتب "الميتا فيزيقيا": أي عالم الغيب وما وراء الطبيعة كما  
تمليه عليهم الشياطين.

﴿ فقسّت قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾

أي تحجرت قلوبهم فهي في قسوتها كالحجارة أو أشدّ قسوة. وخرجوا عن حدود دينهم ورفضوا ما جاء فيه من الأوامر والنواهي. فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة. كما قال الله فيهم: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ [المائدة ١٣].

فكانت النتيجة أن فسدت قلوب أكثر أهل الكتاب الذين من قبلنا فقسّت فصار من سجيّتهم<sup>(١)</sup> تحريف كلام الله الذي بين أيديهم واخراجه عن مواضعه ومقاصده ومعانيه. وتركوا الأعمال التي أمروا بها وارتكبوا ما نهوا عنه. ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصليّة أو الفرعيّة. [طاحون ج ٢ ص ١٨] [انتهى].

والآن نصل إلى المثل الذي ضربه الله لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن في القلوب وكيف يلين الله به القلوب بعد قسوتها ويوقظها بعد غفلتها.

﴿ اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾

(١) صار من سجيّتهم: أي أصبح من عادة أهل الكتاب وطبعهم.

وقد رأينا في أمثلة سابقة كيف يحيي الله الأرض بعد موتها.  
فتأمل الأرض المُجْدِبَةَ القاحلة لا خضرة فيها ولا زرع ولا حياة  
يُساق إليها الماء وينزل عليها الغيث فتهتّزّ خَضِرَةً نَضِرَةً بالزّرع  
والثّمار.

وبذلك يكون **الطّرف الأول (المشبهه):** القلب القاسي البعيد من  
الله يحييه الله بالذكر وتلاوة آيات القرآن الكريم وبالاستماع  
للمواعظ والنّصائح وتدبّر آيات الله في الكون والمسح على رأس  
اليتيم ومواساته وإطعامه مما تأكل وبياعته العاجز والضعيف.  
هذه القلوب القاسية طُبُّها ودواؤها ذكر الله عزّ وجلّ. وتلاوة  
القرآن تنيرها وتبعث فيها الرّحمة والخشّية فيصير المؤمن مصدراً  
للخير يُزجى برّه ويؤمن شرّه.

أمّا **الطّرف الثاني من المثل (المشبهه به):** فهو إحياء الأرض  
بعد موتها. فكما يحيي الله الأرض الميّتة بالغيث فتُبهِجُ<sup>(١)</sup> وتخضّر  
وتسرّ وتصير مصدراً للخيرات والبركات كذلك يحيي القلوب  
القاسية الميّتة بغيث القرآن<sup>(٢)</sup> وغيث الرحمة من عنده سبحانه.

(١) فتبهج: فتصبح مصدراً للبهجة وراحة النّفس.

(٢) بغيث القرآن: ببركة القرآن ونور القرآن وشفاء القرآن وهداية القرآن.

في هذا المثل تم حذف المشبّه واستخدام المشبّه به بدلاً منه فلا حاجة لأدوات تشبيهه. وبذلك يتطابق طرفا المثل على بعضهما تمام التّطابق.

**وجه الشّبّه:** الله سبحانه وتعالى يلبّ القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلّتها ويفرّج الكروب بعد شدّتها. فكما يحيي الله الأرض المُجْدِبَةَ الهامدة بالغيث الهَتّان<sup>(١)</sup> كذلك يهدي القلوب القاسية ببراھين القرآن ويولج<sup>(٢)</sup> إلى القلوب النّور فتتهدي وتبصر بعدما كانت مقفلة مظلمة. فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال والمضلّ لمن يشاء بعد الكمال.

لقد ضرب الله الأمثال للنّاس كي يتدبّروا وتستنير عقولهم ويستترشدوا بها. وقد جعل إحياء الأرض بالغيث مثلاً لإحياء القلوب وخشوعها بعد قساوتها بفضل ذكر الله وتدبّر القرآن. وجعل إحياء الأرض مثلاً لإحياء الكافر وردّه إلى الهدى والإيمان بعدما ضلّ وتاه في الوديان.

﴿ اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾: هنا تمثيل بأمر محسوس تقع عليه أبصارنا ونلمسه بأيدينا ونوقن به<sup>(٣)</sup> في قرارة

(١) الغيث الهتّان: المطر الغزير.

(٢) يولج: يُدْخِلُ أو يُوَصِّلُ.

(٣) نوقن به: نُصَدِّقُ ونؤمن به.

أنفسنا. نرى الأرض يُساق إليها الماء فَتُنْبِتُ بعد جَدْبٍ وتخرج  
البركات والخيرات والثمرات بإذن ربّها وفضله. هذا المثل الحسيّ  
ضربه الله لبيان أمر معنوي غير محسوس وهو أثر الذكر وتلاوة  
القرآن في القلوب وأنّه يحييها كما يحيي الأرض بالغيث فتصير هذه  
القلوب بفضل الإيمان ومراقبة الله وخشيته منبعاً للرقّة  
والاستقامة والنُّبل وتعطي أطيب الثمرات من أمانة ووفاء ومحبة  
ورحمة وإحسان وخشوع وطاعة وصدق وهداية.

وكيف لا تخشع القلوب لكلام الله وتحيا به والله يقول: ﴿ لو  
أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتّه خاشعاً متصدّعاً من خَشْيَةِ اللَّهِ  
وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون ﴾ [الحشر ٢١]. فإذا  
كانت الجبال الرّواسي تخشع وتتصدّع لكلام الله فكيف بقلوب  
البشر والقرآن لها حياة وشفاء لما في الصدور.

وتأمّل الطباق (المقابلة) <sup>(١)</sup> بين الإحياء والإماتة وكيف ساعد  
الجمع بين المتضادّين على زيادة الإيضاح والبيان وعلى إبراز  
الغرض من المثل وهو توضيح أثر الإيمان بالله والذّكر والعلم في  
إحياء النّفوس بعد موتها.

وقد أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعريّ أنّ النّبّي صلّى الله  
عليه وسلّم قال: "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ

(١) الطّباق = المقابلة = المتضادّين: الكلمة وعكسها أو الصورة أو الفكرة ونقيضها.

الحيِّ والميِّت". ومعناه أنّ صفة الذي يذكر ربّه بأيّ نوع من أنواع الذكر ويراقب ربّه مثل صفة الحيِّ ووجه الشّبه بينهما أنّ كلّاً منهما فيه نفع وأنّه متزيّن الظاهر والباطن. وأمّا صفة الغافل عن ذكر ربّه لا تنفعه الموعظة ولا تزجره<sup>(١)</sup> العِبْر فمثل صفة الميِّت في أنّ كلّاً منهما عاطل ظاهره باطل باطنه.

وتعليق أخير على موضوع المثل وهو أنّ الله عاتب صحابة رسول الله وهم الْمُصْطَفَيْن لصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وَهُمْ مِنْهُمْ فِي الْوَرَعِ<sup>(٢)</sup> والانقياد والطّاعة وتحمل الشدائد في سبيل توصيل دين الله إلى كلّ شبر من المعمورة<sup>(٣)</sup>. عاتبهم الله ونحن أحقّ بالعتاب منهم وقد مات الخشوع في قلوبنا وتحجّرت أفئدتنا وطال علينا الأمد وتكالت علينا الأمم المُفْسِدة<sup>(٤)</sup> وغزانا الكفار بأفكارهم الهدّامة حتى احتلّوا غرف نومنا بما لديهم من جيف الشّهوات وخبث الموضات والشُّبّهات وإفساد الزوجات وعقوق الأولاد والبنات. كيف حالنا وقد كثرت الصّوارف الشاغلة<sup>(٥)</sup> عمّا هو خير وأبقى وسيطرت الغفلة على كلّ حياتنا.

(١) لا تزجره: لاتنهاه الموعظة ولا تنفعه الآيات ولا يستفيد من العِبْر.

(٢) الورع: الخوف من الله.

(٣) المعمورة: الكرة الأرضيّة.

(٤) تكالت علينا الأمم المُفْسِدة: كثرت علينا مفاصد الأمم المُفْسِدة.

(٥) الصّوارف الشاغلة: هو كلّ ما يشغلنا عن طلب الآخرة ويصرفنا عن طاعة ربّنا.



أما آن لنا أن نفيق ونتعظ ونتدبر القرآن والآيات التي تحذرننا  
من التشبه بالأمم التي قست منها القلوب وسيطرت الماديّة على  
النّفوس والجيوب؟ اللهم ربّنا اغث قلوبنا برحمتك واملأ قلوبنا  
بِخَشِيَّتِكَ وَأَلِنُ قساوة قلوبنا بذكرك وزدنا علماً بفضلك.

اللهم آمين.

## من سورة الحشر (٤٧)

الجبل خاشعٌ متصدّعٌ من خشية الله

يقول الحقّ سبحانه:

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون ﴾ [الحشر ٢١].

القرآن الكريم كلام ربّ العالمين. نزل به الرّوح الأمين على قلب خاتم النبيّين صلّى الله عليه وسلّم يهدي إلى الحقّ وإلى طريقٍ مستقيم. وهو نور لمن آمن به وعِصْمَةٌ لمن تمسّك به وعمل بما فيه ونجاة لمن اتّبعه ورحمة وعِظَةٌ وشفاء لما في الصّدر من الشُّبهات والشُّكوك.

من يتدبّر القرآن يجد فيه سلطاناً مؤثراً وبلاغة رفيعة راقية وإيجازاً وإعجازاً. ويجد فيه برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً شافياً. والقرآن كلّهُ حقائق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنوار الهداية فيه واضحة.

ولمّا كان القرآن خُلُوّاً من الأساطير مذكّراً بالحقائق وواعظاً بها وصفه الله بأنّه تذكرة وأطلق عليه اسم "التذكرة". ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءِ ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر ٥٤ - ٥٥]. كما أطلق اسم "التذكرة" على محتواه من كلمات الله وآياته. ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءِ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس ١١ - ١٢].

هذا القرآن الذي أنزله الله منجماً<sup>(١)</sup> متفرقاً ليوكب أحداث الدعوة وفضله على سائر الكتب المنزلة وجعله مُصدّقاً لما سبقه من الكتب ومهيماً عليها. تكفل الله بحفظه وجعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤتمنة عليه يتلونه ويتدبرونه ويؤمنون به ويعملون به ويسطّرون الكتب في علومه ومعجزاته ويحفظونه ويتعبّدون به لله ليل نهار صباح مساء. هذا القرآن الذي تحدّى الله الإنس والجنّ عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله لما فيه من الإعجاز والوعد والوعيد ودلائل القوّة والقدرة والعلم والإحاطة والتأويل. هذا القرآن المتشابه المثاني الذي سمّاه الله أحسن الحديث يشبه بعضه بعضاً ويردّ بعضه على بعض. ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يُضللّ الله فما له من هاد﴾ [الزمر ٢٣].

وفي الحديث الذي رواه العريّاض ابن سارية يقول الرّسول صلى الله عليه وسلم "قد تركتكم على البيضاء<sup>(٢)</sup> ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك" [أخرجه ابن ماجة وغيره].

(١) منجماً: متفرقاً حسب الأحداث تنزل به الرّوح الأمين على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.  
 (٢) البيضاء: الملة والحجة الواضحة لا تقبل الشبهة أي الدين النقي الصافي الواضح.

والله عزّ وجلّ أمرنا أن نتمسك بهذا الدين الذي ارتضاه لنا وألا نتفرّق أو نختلف فتفرّق بنا السبُل ونبتعد عن الطّريق المستقيم فنتوه في صحراء الحياة فتخطّفنا الشياطين. ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون ﴾ [الأنعام ١٥٣].

ويقول عزّ وجلّ مخاطباً قُدوتنا ورسولنا صلّى الله عليه وسلّم ومن بعده مخاطباً الأُمَّة الإسلاميّة قاطبة: ﴿ إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً<sup>(١)</sup> لست منهم في شيء إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ [الأنعام ١٥٩].

ومن وصايا الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قوله: "أيّها النّاس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم<sup>(٢)</sup> وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم<sup>(٣)</sup>. إنّ العبد بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت. والذي نفسي بيده ما

(١) وكانوا شيعاً: كانوا فرقاً وأحزاباً وجمعيّات في الضلال يمجدون رؤساء الفرق أكثر ممّا يمجدون الله. ويلتزمون بكلام الرؤساء أكثر ممّا يلتزمون بكلام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

(٢) إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم: أي لكم حدود تحدّد الحلال والحرام فلا تقربوا الحرام ولا تنتهكوا حدود الله.

(٣) وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم: النهاية هي أوامر الله فلا تجاوزوها إلى ما نهى الله عنه.

بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ وما بعد الدّنيا من دارٍ إلّا الجنّة أو النار" [رواه جابر وأخرجه البيهقيّ في الشعب].

وكتاب الله العزيز هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض. وهو الحبل الوثيق الموصّل إلى رحمة الله عزّ وجلّ. وباللّجوء إليه والتمسّك به والإقبال عليه تلاوة وتدبراً وعملاً وفهماً وتعبداً تكون العِصْمَةُ وَالْمَنَعَةُ وَالرَّفْعَةُ وَالْحِفْظُ وَالْقُوَّةُ وَالهِدَايَةُ. وفي هذا المعنى جاء حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي رواه عبد الله ابن مسعود: "إنّ هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين وهو الشّفاء النافع عصمة لمن تمسّك به ونجاة لمن اتّبعه".

### والآن إلى المثل:

يقول الحقّ سبحانه: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكّرون ﴾ [الحشر ٢١].

يقول الله تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيّناً علوّ قدره وأنّه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدّع عند سماعه لما فيه من الوعد الحقّ والوعيد الأكيد. فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته وشموخه لو أنزل عليه القرآن وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدّع من خوف الله عزّ وجلّ. فكيف يليق بكم أيّها البشر وأنتم الضّعفاء وأنتم

المكلفون وأنتم المقصودون من التّزليل ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدّع من خشية الله؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبّرتم كتابه كيف يليق بكم أن تجعلوه وراء ظهوركم أو تهجروه أو تشتروا به ثمناً قليلاً من الحياة الدُّنيا؟

يقول ابن عباس في تفسير آية المثل: يقول الحقّ سبحانه لو أنّي أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه لتصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله. فأمر الله النّاس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بجدّ وقوّة لما فيه من الوعد والترغيب والرّحمة وأن يأخذوه بخوف ورهبة لما فيه من الوعيد والتّرهيب الأكيد.

وقال الحسن البصريّ: إذا كانت الجبال الصّم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدّعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ [انتهى]

**الطّرف الأوّل: (المشبّه):** القرآن العظيم كلام ربّ العالمين ينزل على البشر فهم فريقان: مؤمنون وكافرون.

**الطّرف الثّاني: (المشبّه به):** القرآن العظيم كلام ربّ العالمين ينزل على الجبل فيخشع الجبل من ثقل كلام الله ووعدده ومن النور الذي في ثنايا حروفه وآياته. ثم يتصدّع من خشيته إذا تدبّر وعيده.

أدوات التشبيه: في هذا المثل تم حذف المشبه واستخدام المشبه به بدلاً منه. ولذلك حُذِفَتْ جميع أدوات التشبيه وهذا جعل المثل أكثر عمقاً وأكثر دلالة وأكثر تأثيراً. والتَّنْوِيهِ إلى أنه مثل واضح تماماً في الآية. ويكفي أن يصرح الله به فيقول سبحانه ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.

وجه الشبه: أمّا المؤمنون فهؤلاء الموقِّقون الأتقياء الأنقياء المُخْلِصون إذا تُلِيَتْ عليهم آيات الرحمن زادتهم إيماناً وخشوعاً. يؤمنون بالله وما أنزل من كتب وما أُرْسِلَ من رسل تراهم ركعاً سجداً يدعون ربهم أن يثبتهم على دينه وأن يزيدهم إيماناً ورسوخاً في العلم والدين. يركعون لله بحبّ ويسجدون على بينة وبصيرة. أولئك مصابيح الهدى وأولئك هم خير البرية<sup>(١)</sup>. ﴿جزاؤهم عند ربهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ [البينة ٨].

فالمؤمنون من البشر والجبل متطابقون في موقفهم من دين الله ومن كتاب الله. هم خاشعون مستبشرون بوعد الله. قلوبهم متصدّعة وجلة<sup>(٢)</sup> من وعيد الله. وعده هو الصّدق ووعيده هو

(١) خير البرية: هم خير خلق الله.

(٢) متصدّعة وجلة: قلوبهم في أشدّ الخوف والرّهبة من عذاب الله.

الحقّ. لا تبديل لكلمات الله. هنا - في هذا الجزء من المثل - تطابق المشبّه مع المشبّه به في صورة إيمانيّة بديعة. أولئك الرسل وأتباعهم.

وأما الصنف الآخر من البشر وهم الكافرون المُنكرون الغافلون وهم من كذب الرُّسل ورَكَنَ إلى الحياة الدنيا واطمأنّ بها وأتباع إبليس وعبيد الشّهوات وعُباد الأصنام والأهواء والمرائون والمنافقون والظالمون والمتشاغلون عن دين الله. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسلب عقولهم وأعمى بصائرهم أولئك هم الخاسرون. ولو أنّهم أنصتوا إلى كلام الله وتدبّروه وخشعوا له لأوصله الله إلى قلوبهم فملأها إيماناً ونوراً وهداية.

وإذا كان الجبل يخشع ويتصدّع وإذا كانت الرواسي الشامخات تتأثر بما في القرآن من وعد ووعد وكلامٍ فصلٍ وصدقٍ وحقٍّ وما فيه من النور والبرهان وما لحروفه وآياته من الوزن والثقل عند التأويل والتّحقيق على أرض الواقع. إذا كان هذا هو موقف الجمادات فكيف لا يخشع الإنسان الضّعيف الذي لا يتحمّل طرفة عين في نار الدّنيا فكيف لهم بآية كالتّي في النّساء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ



جلوداً غيرها ليزوقوا العذاب إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً ﴿  
[النساء ٥٦].

هكذا يعاقب الله في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن سبيله  
وآذى رسله وكذب بكلماته وتغافل عن أوامره وانتهك حرّماته مع  
دوام عقوبتهم ونكالهم<sup>(١)</sup>.

قال الأعمش عن ابن عمر "إذا احترقت جلودهم بَدّلوا جلوداً  
غيرها بيضاء مثل القراطيس<sup>(٢)</sup>. وعن الحسن قال: تُنْضِجُهُمْ فِي  
اليوم سبعين ألف مرّة ثم قيل لهم عودوا فعادوا. وعن ابن عمر  
قال: "قرأ رجل عند عمر هذه الآية ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ  
بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ فقال عمر أَعِدْهَا عَلَيَّ. فأعادها. فقال  
معاذ بن جبل - وكان في مجلس عمر - عندي تفسيرها: تبدّل في  
ساعة مائة مرّة. فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله صلّى الله  
عليه وسلّم يقول". [رواه ابن أبي حاتم].

وقال الربيع ابن أنس: مكتوب في الكتاب الأوّل<sup>(٣)</sup> أنّ جلد أحدهم  
أربعون ذراعاً وسنّه سبعون ذراعاً وبطنه لو وُضع فيها جبل لوسعه  
فإذا أَكَلَتْ النَّارُ جُلُودَهُمْ بَدَّلُوا جُلُودًا غَيْرَهَا. وقد ورد في الحديث ما

(١) دوام العقاب والنكال: عقاب الكفار وعذابهم في جهنم لا نهاية له.

(٢) القراطيس: الورق الأبيض النَّاصِع البياض.

(٣) الكتاب الأوّل: التّوراة.

هو أبلغ من هذا. أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: "يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ" <sup>(١)</sup> حَتَّى إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعُمِائَةَ عَامٍ وَإِنْ غَلِظَ جِلْدُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَإِنْ ضَرَسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ".

أم كيف يكون حال الكافرين مع آيات سورة الحج وهي واضحة كالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ ﴿...﴾ فالذين كفروا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿...﴾ يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿...﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿...﴾ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿...﴾ [الحج ١٩ - ٢٢].

فالكافرون من البشر في تضادٍّ مع الجبل في هذا المثل. وهم ليسوا في تضادٍّ مع الجبل وحده وحسب بل هم في تضادٍّ مع الكون بأكمله. فالكون جميعه يسبح لخالقه وهؤلاء لاهون غافلون غرَّتهم الدنيا وغرَّهم بالله الغرور <sup>(٢)</sup>.

---

(١) يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ: أهل النار تكون أجسامهم ضخمة جداً ليكون العذاب مضاعفاً أضعافاً كثيرة عليهم.  
(٢) الغرور: الشيطان.

## من سورة الممتحنة (٤٨)

### المؤمنون بعضهم أولياء بعض

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئْسُوا  
مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة ١٣].

### الشَّرْحُ وَالتَّفْسِيرُ:

ينهى الله تبارك وتعالى عن موالاته الكافرين في آخر سورة  
الممتحنة كما نهى عنها في أول السُّورة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا  
تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا  
جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ .... ﴾ [الممتحنة ١].

وقد هيج الله سبحانه عبادَه المؤمنين على عداوة سائر الكفار  
وعدم موالاتهم لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسوله صلى الله عليه  
وسلم ثم أخرجوه وأصحابه من بين أظهرهم كراهةً لما عليه الفئة  
المؤمنة من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. لقد أخرجوا  
المؤمنين من ديارهم وأموالهم حنقاً عليهم وسُخْطاً لدينهم  
فعداوتهم للمؤمنين كامنة<sup>(١)</sup> وظاهرة. فكيف توالون هؤلاء؟  
وكيف لمن خرج جهاداً في سبيل الله أن يوالي أعداء الله؟

(١) كامنة: باطنة ومخفية.

## الكفار:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتَّخذوا دينكم هُزُوراً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتَّقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ وإذا ناديتُم إلى الصَّلَاة اتَّخذوها هُزُوراً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿ [المائدة ٥٧ - ٥٨].

وهنا يخاطب الله سبحانه عباده المؤمنين أن يتَّقوا الله ولا يتَّخذوا هؤلاء الأعداء لهم ولدينهم أولياء إن كانوا مؤمنين بشرع الله الذي اتَّخذه هؤلاء هُزُوراً ولعباً. وإذا سمعوا النداء إلى الصَّلَاة اتَّخذوه هُزُوراً ولعباً وهي صفات شياطين الإنس والجنّ.

وقد ناصب كفّار مكة وصناديدها<sup>(١)</sup> وحسادُها ومعانديها ومترفيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشدّة العداوة والبغضاء. وناصره المحاربة ليلاً ونهاراً على مدى ثلاثة عشر عاماً. وحتى بعد هجرته لم يتركوه وشأنه. بل جيّشوا الجيوش وجمعوا الرجال والمال والعتاد وألبوا القبائل وعقدوا الأحلاف<sup>(٢)</sup> ومكروا مكر الليل والنَّهار لمحاربتِه والقضاء المُبرِّم على دعوته<sup>(٣)</sup>. ولا عجب أن

(١) صناديدها: فرسانها المعروفين بالشجاعة والفروسيّة.

(٢) ألبوا القبائل وعقدوا الأحلاف: شجّعوا القبائل على محاربة الإسلام وعقدوا معهم معاهدات وأحلاف كما في غزوة الأحزاب (الخدق).

(٣) والقضاء المُبرِّم على دعوته: حتى القضاء التام على الإسلام.

جميع المعارك كانت تدور حول المدينة ولكن الله ناصر دينه وحافظ رسوله ولو كره الكافرون.

لقد تعددت جنایات كفّار مكّة وتنوّعت حماقاتهم وتفاقم كفرهم وشركهم. فمن الشُّرك بالله وعبادة الأصنام والملائكة إلى أنّهم جعلوا الملائكة بنات الله. سبحانه عمّا يصفون. ثم امتدّ كفرهم إلى الزّنا وبيوتات الرّيات الحمراء وإلى الرّبا وتصنيف الأنعام إلى حرام وحلال حسب هواهم إلى تكذيب الرّسول الأمين الصّادق صلّى الله عليه وسلّم والتآمر عليه لقتله أو إخراجه من أهله وبلده إلى إنكارهم البعث والنُّشور والحياة بعد الموت دون التفات إلى آيات الله في السماوات وفي الأرض الدّالة على كمال قدرته وسلطانه. كذبوا دون التفات إلى آيات الله في خلق الإنسان واختلاف اللّيل والنّهار وإنزال المطر من السماء وإحياء الأرض بعد موتها. فمن قدّر على البدء فهو أقدر على الإعادة. والحكمة تقتضي أنّ البعث آتٍ لا شكّ فيه لِتُجْزَى كلّ نفس بما كسبت وليعلم الذين كفروا من أهل مكّة وغيرهم أنّهم كانوا كاذبين.

### اليهود:

في "اللّباب": أتى النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم نفرٌ من اليهود فسألوه عمّن يؤمن به من الرُّسل. فقال صلّى الله عليه وسلّم:

أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب  
والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم. فلما  
ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به.  
فنزلت الآية: ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنّا بالله  
وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأنّ أكثركم فاسقون ﴾ [المائدة  
٥٩]. أي أنّنا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وآمنّا بأنّ  
أكثركم فاسقون خارجون عن الطّريق المستقيم.

واليهود عليهم لعائن الله المتتابة وصفوا الحقّ سبحانه بأنّه  
بخيل فردّ الله عزّ وجلّ عليهم ما قالوا ﴿ غُلّتْ أيديهم ولُعِنوا بما  
قالوا ﴾ [المائدة ٦٤]. وعاقبهم على إفكهم الذي اختلقوه  
وافتروه<sup>(١)</sup> أن جعل فيهم من البخل والحسد والجبن والذّلة الشيء  
العظيم. واليهود من سجيّتهم<sup>(٢)</sup> السّعيّ للإفساد في الأرض والعمل  
بالسّحر. وقد كادوا<sup>(٣)</sup> لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالسّحر  
فحمّاه الله منهم وأنزل عليه سورتيّ المعوذتين دواءً لذلك الدّاء.  
ولمّا سمّه اليهود في ذراع الشاة بخيّر أعلمه الله به وحمّاه منهم.  
ومن سجيّة اليهود نقض كلّ العهود والمواثيق واتّباع آرائهم

(١) عاقبهم على إفكهم الذي اختلقوه وافتروه: عاقبهم على كذبهم وافترائهم.

(٢) سجيّتهم: أي طبعهم وفطرتهم الفاسدة.

(٣) كادوا: مكروا وتأمروا.

وأهوائهم وتقديمتها على الشرائع فما وافق هواهم قبلوه وما خالف هواهم ردّوه. فهم يكذبون الرُّسل ويفترون عليهم ويقتلون من خالفهم. وكانوا يرتكبون المحارم والمآثم ولا يتناهون عن منكر فعلوه. وقد لعنهم الله في الزُّبور<sup>(١)</sup> الذي أنزله على داود عليه السلام وعلى لسان عيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خَلْقِهِ. قال ابن عباس: لعنوا في التَّوراة والإنجيل وفي الزُّبور وفي القرآن.

﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للَّذين آمنوا اليهود والَّذين أشركوا ﴾ [المائدة ٨٢] ذلك لأنَّ كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة<sup>(٢)</sup> للحقِّ وغمط<sup>(٣)</sup> للنَّاس وتشويه صورة حملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتَّى همّوا بقتل رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم غير مرّة وسّمّوه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة<sup>(٤)</sup>. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم: "ما خلا يهوديٍّ بمسلم قطّ إلَّا همّ بقتله"<sup>(٥)</sup>.

(١) الزُّبور: كتاب سماويّ أنزله الله على داود عليه السلام.

(٢) مباهة الحقّ: أي طمس للحقِّ وإعلاء للباطل.

(٣) غمط الناس: أي ظلمهم واستباحة حقوقهم.

(٤) ابن كثير ج١ ص ٥٤٠

(٥) رواه الحافظ بن مردويه

وأقدم للقارىء العزيز هذه القصة التي وردت عند ابن كثير  
 ليعلم القاصي والداني ودعاة التّطبيع أيّ نوع من البشر هم اليهود  
 في كذبهم وافتراءهم على الله وعلى عباد الله. قال: دخل أبو بكر  
 الصديق رضي الله عنه بيت المدراس<sup>(١)</sup> فوجد من يهود ناساً كثيرة  
 قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فِنْحاص) وكان من علمائهم  
 وأحبارهم. فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم  
 فوالله إنك لتعلم أنّ محمّداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحقّ  
 من ربّه. تجدونه مكتوباً عندكم في التّوراة والإنجيل. فقال  
 فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر. وإنّه إلينا  
 لفقير. ما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا وإنّا عنه لأغنياء. ولو كان عنّا  
 غنياً ما استقرض<sup>(٢)</sup> منّا كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الرّبا  
 ويعطينا. ولو كان غنياً عنّا ما أعطانا الرّبا.

فغضب أبو بكر غضباً شديداً وضرب وجه فنحاص ضرباً  
 شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد  
 لضربت عنقك يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلّى  
 الله عليه وسلّم فقال: يا محمّد أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال

(١) بيت المدراس: مكان الوعظ والعلم عند اليهود.

(٢) استقرض: طلب القرض وهي إشارة إلى الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة...﴾ [البقرة ٢٤٥].



رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما حَمَلَكَ على ما صنعت يا أبا بكر؟" فقال: يا رسول الله إنَّ عدوّ الله قال قولاً عظيماً. يزعم أنّ الله فقير وأنّهم عنه أغنياء. فلَمَّا قال ذلك غضبتُ لله فضربتُ وجهه. فجدد<sup>(١)</sup> فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ [آل عمران ١٨١].<sup>(٢)</sup>

**الطَّرْف الأوَّل (المشبهه):** اليهود هم المغضوب عليهم والملعونون في كلّ كتابٍ سماويّ. يؤسوا من البعث والحساب والجنّة لأنّهم طُلاب دنيا ليس لهم عمل صالح يبعدهم عن النار ويدخلهم الجنّة.

**الطَّرْف الثاني (المشبهه به):** الكفّار بجميع أطيافهم وألوانهم يؤسوا من إحياء الموتى لأنّهم لا يروا لهذا الكون خالقاً وأنّ من أوجدهم هو الدّهْر والذي يُميئُهم هو تعاقب الليل والنّهار. فبزعمهم لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنّة ولا نار.

(١) جدد: أنكر أنّه قال.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

أدوات التشبيه: كلمة "كما" وهي بمعنى "مثل" وتكرار نفس الفعل "يئس" مع كلّ طرف.

وجه الشّبه: الطّرفان لا يؤمنان بالآخرة ولا يريدانها. والطّرفان يئسا من الجنّة وإنّ كان كلّ طرف له أسبابه. فاليهود يؤمنون بالبعث بعد الموت ولكنّهم كذبوا على الله ثم صدّقوا كذبهم أنّهم أبناء الله واحباؤه وأنّهم الشّعْبُ المختار الذي اختاره الله على العالمين وأنّ الله لن يعذبهم في النار إلّا أياماً يسيرة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وغرّتهم افتراءاتهم فلم يصحّحوا عقائدهم ولم تخطر ببالهم الأعمال الصّالحة وأكثرها من الفساد والإفساد.

أمّا الكفّار فلم يدخلوا في حظيرة الإسلام من الأصل ولم يؤمنوا بأيّ من أركان الإيمان ولا باليوم الآخر. فكلاهما ضالّ وكلاهما خالدٌ في النّار.

### المؤمنون:

المؤمنون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بالبعث والحساب. فلا ينبغي لهم أن ينزلوا إلى مستوى هؤلاء. ولا يليق بهم أن يتولّوا هؤلاء. ولا يصحّ لهم أن يتّخذوا من هؤلاء بطانة<sup>(١)</sup> لا

(١) بطانة: مستشارين وأصحاب رأي.

يألونهم خبالاً<sup>(١)</sup> وقبل ذلك وبعد ذلك وفوق ذلك فقد نهانا ربنا سبحانه صاحب الأمر والنهي أن نتخذ منهم أولياء من دون المؤمنين ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [المائدة ٥١]. ومن باب أولى الكفار وكلّ من هم دوننا وعلى غير ديننا. ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم ﴾ [التوبة ٧١]. فهلاً سمعنا وأطعنا!

---

(١) لا يألونهم خبالاً: يسارعون في إفساد حالهم.

## من سورة الجمعة (٤٩)

### اليهود يحملون التّوراة

قال الحقّ سبحانه:

﴿ مثل الذين حُمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً<sup>(١)</sup> بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [الجمعة ٥].

هذا مثل مدنيّ ضربه الله لذمّ اليهود عندما رفضوا الدّخول في الإسلام. والمثل مُنتزع<sup>(٢)</sup> من الواقع الملموس والمحسوس والمُشاهد.

**الطّرف الأوّل (المشبهه):** اليهود الذين حفظوا التّوراة لفظاً ولم يفهموها ولم يعملوا بمقتضاها<sup>(٣)</sup> بل حرّفوا التّوراة وأوّلوا آياتها<sup>(٤)</sup> بما يُخرجها عن مضامينها الحقيقيّة.

**الطّرف الثاني (المشبهه به):** الحمار يحمل مجلّدات من الكتب القيّمة المحتوية على الغزير من العلم النّافع ولكنّه لا يعلم ممّا يحمل شيئاً.

(١) أسفاراً: كتب ومجلّدات تحتوي على العلم الكثير.

(٢) مُنتزع: مأخوذ بقوة.

(٣) لم يعملوا بمقتضاها: لم ينفذوا ما أمروا به في التّوراة.

(٤) وأوّلوا آياتها: فسّروا الآيات بما يناسب أهواءهم.

أداة التشبيه: تكرر كلمة "مثل" ثلاث مرّات وزيادة حرف "الكاف".

وجه الشّبه: هذه صورة ذمّ وخِزيٍ عظيم. فالحمار يُشتهر بين النّاس بغبائه الشّديد وغفلته وبلادته وجهالته المُفْرِطَة. اليهود أصحاب كتاب. هم يزعمون أن محمّداً صلّى الله عليه وسلّم قد أُرسِلَ للعرب فقط ولم يُبعث إليهم. فكذبهم الله وردّ عليهم مقالهم بأنهم لو درسوا التّوراة ولو فهموا التّوراة حقّ الفهم ولو عملوا بما في التّوراة لرأوا صفة النّبّي محمّداً صلّى الله عليه وسلّم والبشارة به وأنهم يجب عليهم اتّباعه. وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم مُرسَل للعالمين. ونحن نعلم بشارة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل بمقدم محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم من بعده وقد ذكر بالاسم وأنه خاتم النّبیین ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ بِنُورِيِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ [الصف ٦].

هذا وقد كان الله قد أخذ عهداً على جميع الرُّسُل السابقين أنْ إذا بُعث محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن يؤمنوا به هم وأقوامهم وأنّ ينصروه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ

وحكمة ثم جاءكم رسول مُصدِّقٌ لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه  
قال أفقرتم وأخذتم على ذلكم إضري<sup>(١)</sup> قالوا أقررنا قال فاشهدوا  
وأنا معكم من الشاهدين ﴿ [آل عمران ٨١].

ويجدر بنا هنا أن نسطر صفة النبيِّ الكريم صلى الله عليه  
وسلم في الكتب السابقة:

أخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن هذه  
الآية التي في القرآن ﴿ يا أيها النبيِّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً  
ونذيراً ﴾ [الأحزاب ٤٥]. قال هي في التوراة: يا أيها النبيِّ إنا أرسلناك  
شاهداً ومبشراً وحرزاً<sup>(٢)</sup> للأُميين<sup>(٣)</sup> أنت عدي ورسولي سميتك  
المتوكل ليس بفظ<sup>(٤)</sup> ولا غليظ<sup>(٥)</sup> ولا سخاب<sup>(٦)</sup> بالأسواق ولا  
يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله<sup>(٧)</sup> حتى  
يُقيم به الملة العوجاء<sup>(٨)</sup> بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا  
عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلفاً.

(١) إضري: عهدي وميثاقي.

(٢) حرزاً: حصناً.

(٣) للأُميين: للعرب.

(٤) ليس بفظ: لطيف في المعاملة.

(٥) ولا غليظ: ولا سييء الطبع.

(٦) ولا سخاب: ولا يرفع صوته.

(٧) لن يقبضه الله: لن يتوقاه.

(٨) يُقيم به الملة العوجاء: يمحو به الشرك.

وفي رواية كعب الأخبار قال: " في السطر الأول محمّد رسول الله عبدي المختار". كما زاد في رواية كعب " مولده بمكة ومهاجره طيبة ومُلْكُه بالشّام".

ورغم هذا الوصف التفصيلي الذي شمل اسم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومكان مولده ومكان مهاجره وكلّ صفاته ورغم المواثيق والعهود التي أخذها الله عليهم وعلى أنبيائهم إلا أنّهم رفضوا الإيمان به واتّباعه لأنّه ليس من بني إسرائيل حسداً وحقداً واعتراضاً على اختيار الله لرسله. وبدأوا يناصرونه العداء وبدأوا بجمع الأموال وشراء السّلاح والعتاد وتدريب الرّجال على القتال استعداداً ليوم النّزال<sup>(١)</sup>.

كان اليهود يُنفقون أموالهم للنّيل من الإسلام والكيد ضده. وكان إنفاقهم على قسمين: أولهما: ما أنفقه سفلة اليهود على رؤسائهم لأجل التّحريف والتّخوير في نصوص التّوراة. وثانيهما ما أنفقوه في معاداة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وما تطلّبته تلك المعاداة من تجهيز الجيوش من ناحية التّدريب والتّسليح وفنّ إبرام المعاهدات والتحالفات مع مشركي الجزيرة العربيّة.

والواقع أنّ عداءً قد استحكّم بين الرّسول صلّى الله عليه وسلّم

(١) يوم النّزال: يوم المواجهة والقتال.

وهؤلاء اليهود. فقد كان الرّسول قد دعاهم إلى الإسلام فأبوا. فتوعدهم بالقتال إن ظلّوا على ما هم عليه من معاداة له ولأصحابه وكيدٍ لهم ودسٍّ عليهم وتخويف لهم وسعيٍ بالفرقة بينهم. غير أنّهم تمادوا في غيِّهم<sup>(١)</sup> اعتقاداً منهم بأنهم أُمِنَ من أن يُنالوا<sup>(٢)</sup> فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

فلما كان هذا هو موقف اليهود النّهائي من الإسلام ضرب الله لهم هذا المثل فشبّههم بالحمّار يحمل أسفاراً وكتباً ضخمة ومجلّدات تزخر<sup>(٣)</sup> بالعلوم النّافعات ولكّنه لا يعرف ممّا تضمّنته هذه الكتب شيئاً. فنصيبه ممّا يحمل لا يتعدّى ثقل الحِمْل من غير فائدة والعناء<sup>(٤)</sup> دون منفعة. فمن لم ينفعه عِلْمُهُ في الدنّيّا فلن ينفعه في الآخرة لأنّ الدنّيّا هي محلّ العمل بما يعلم. فالمثل يجسّد صورة حيّة ودقيقة واضحة المعالم أخاذة ماثلة أمام العين<sup>(٥)</sup>. بل يمكن القول أنّ اليهود هم أسوأ حالاً من الحمّار. فالحمّار لا فهم له وليس من تكليفه فهم العلوم. أمّا اليهود فلهم

(١) تمادوا في غيِّهم: لم يكثرثوا لتهديده.

(٢) أُمِنَ من أن يُنالوا: هم أقوى منه ولن يُهزَموا.

(٣) تزخر: تمتلئ.

(٤) العناء: المعاناة والتعب.

(٥) ماثلة أمام العين: تراها عين البصيرة بوضوح.



فُهُوم<sup>(١)</sup> لم يستعملوها كما أنّهم مكلفين بحمل التّوراة. وتكليف اليهود هنا يشمل الدّراسة والفهم والتدبّر والطّاعة لما فيها وهذا ما لم يحدث. ولذلك عاد المثل إلى تكرار الذمّ ﴿بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظّالمين﴾

يقول الله في حقّ من كذّب بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وقد أمروا بالإيمان به والتّصديق به واتباعه ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنّ هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾ [الفرقان ٤٤].

ويرى ابن القيم أنّ هذا المثل - وإن كان قد ضرب لليهود - فهو من حيث المعنى يشمل أيضاً من حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤدّ حقّه ولم يرعه حقّ رعايته. [انتهى].

ويقول الأستاذ طاحون إنّ علم الإنسان حُجّة عليه وهو مسؤل عن علمه فيما عمل به. وإنّ هذا المثل - وإن كان مضروباً لذمّ حملة التّوراة وقُرّائها وحُفاظ ما فيها من بني إسرائيل وهم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها ولم يطيعوا أوامرهم - إلا أنّها عامّة في كلّ من علم ولم يعمل بعلمه أو تعلّم الألفاظ وحفظها ثم لم يسع إلى فهم دلالاتها. [انتهى].

(١) فُهُوم: جمع "فهم" وهو الإدراك.

وهذا المثل ضُربَ للذمّ بالجهالة المساوية لجهالة البهائم. ومن دلالات هذا المثل المُهين أن يتجنّب حملة القرآن من المسلمين ما وقع فيه حملة التّوراة من اليهود. وأنّ يعتنوا بكتاب الله الخاتم المهيمن على كلّ ما سبقه من كتب سماوية. وهذه العناية تشمل التّلاوة وتعلّم أحكام التجويد ومعرفة الحلال والحرام ومعرفة آيات الأحكام وحفظ القرآن بقدر الإستطاعة وتعلّم فقه العبادات وتدبّر ما تقرأ والأهمّ العمل بما في القرآن والاعتبار بأمثال القرآن وتعليمه للغير. وهو مثل في غاية الدّقة والرّوغة حيث يتطابق المشبّه به مع المشبّه تمام التّطابق.

## من سورة التَّحْرِيمِ (٥٠)

ليس للإنسان إلا ما سعى

قال الحقّ سبحانه:

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴿١٠﴾ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين ﴿١١﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين ﴿١٢﴾ [التَّحْرِيمِ ١٠ - ١٢].

ضرب الله ثلاثة أمثال في سورة التَّحْرِيمِ: مثلاً واحداً مركباً للذين كفروا ومثلين للذين آمنوا ليبين لجميع خلقه أنّ الثواب والعقاب في الدنيا وفي الآخرة مرتبطان بالإيمان والأعمال الصّالحة ولا تأثير للقربات والمصاهرات والمخالطات الدنيوية. ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ [الممتحنة ٣].

﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون ١٠١].

ونبدأ بما بدأ الله به بمثل الكافرين:-

**الطَّرْف الأول: (المشبهه): الكافرون**

**الطَّرْف الثاني: (المشبهه به):** امرأتان كافتان كانتا تحت نبيين من أنبياء الله الصالحين فخانتهما.

**أداة التشبيه: كلمة "مثلاً".**

**وجه الشبه:** مصير المرأتين كمصير باقي الكافرين لم يُغْنِ عنهما أنّهما زوجتين لعبدَيْن صالحَيْن ﴿ وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾. المصير واحد لم تنفعهما القرابات ولا المصاهرات لأنّ قلبيهما كانا كافرين وأعمالهما كانت فاسدة. هذه هي سنّة الله في خلقه وما كان لهما من ناصرين.

قال ابن القيم: "تضمّن مثل الكفار: أنّ الكافر يُعاقبُ على كفره وعداوته لله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم وأوليائه. ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسب<sup>(١)</sup> أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتّصال. لأنّ الأسباب كلّها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متّصلاً بالله وحده".

فقد قطع المثل "ظمّع من ارتكب معصية الله تعالى وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبيّ ولو كان بينهما في الدنيا أشدّ الاتّصال".

(١) لُحمة نسب: أي صلة أو قرابة نسب.

"فلا صلة أقوى من صلة البنوة والأبوة والزوجية. ولم يُغن نوح عليه الصلاة والسلام عن ابنه الكافر. ولا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن أبيه آزر. ولا نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام عن امرأتيهما الكافرتين من الله شيئاً".<sup>(١)</sup> [انتهى اقتباس ابن القيم]

علماً بأن زوجات الرُّسل جميعاً معصومات من الخيانة الزوجية لحرمة الأنبياء. وكلمة ﴿فخانتاهما﴾ في الآية لا تعني ما قد يخطر ببال أحد من خيانة زوجية. بل هي خيانة الدين والمعتقد. قال ابن عباس في تفسير كلمة ﴿فخانتاهما﴾: "ما بَعَثَ امرأةً نبيٍّ قطّ وإنما خانت في الإيمان والطاعة". [انتهى].

فامرأة نوح كانت كافرة لم تؤمن برسالة نوح عليه السلام وكانت تُشيع<sup>(٢)</sup> بين الناس أنه مجنون. وامرأة لوط كانت كافرة كباقي قومها من المؤتفكات<sup>(٣)</sup>. ولم تؤمن بلوط عليه السلام. وكانت كلما جاءه أضياف من الملائكة أو البشر أفشت سرهم وأبلغت قومها عن وجودهم. وكان قومها قد اشترطوا على لوط ألا يضيّف أغراباً وأن يترك هذه المهمة لهم لتنفيذ ما ربههم القذرة. وهذا يفسر الآية ﴿قالوا أولم ننهك عن العالمين﴾ [الحجر ٧٠].

(١) الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص ٢٠٩.

(٢) تُشيع: تنشر الأكاذيب والشائعات.

(٣) المؤتفكات: قري قوم لوط عليه السلام.

وقد ذكر أكثر من واحد من الباحثين والمفسرين أنّ سبب نزول هذه الآية هو تحذير عائشة وحفصة أمّهات المؤمنين رضي الله عنهما من أن يتظاهرا<sup>(١)</sup> على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كما ذكر الله في بداية سورة التّحريم: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾.

وهذا الذي ذكره الباحثون والمفسرون عن سبب النزول لا يصحّ عندنا لأسباب:

(١) أنّ الخطاب في بداية المثل موجّه للكفار وليس لأمّهات المؤمنين ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ... ﴾.

(٢) أنّ تظاهر أمّهات المؤمنين على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في الدين.

(٣) أنّ أمّهات المؤمنين عندما خيّرَن في سورة الأحزاب بين الله ورسوله والدار الآخرة وبين المتاع والتّسريح اخترن جميعهنّ الله ورسوله والدار الآخرة. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجِكُ إِن كُنْتُمْ تَرُدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُكُمْ وَأُسْرِحُكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً ۖ وَإِنْ كُنْتُمْ تَرُدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٢٨ - ٢٩].

(١) يتظاهرا: يجتمعا في حلف.

فكان جواب عائشة رضي الله عنها " أفيك استأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة". ثم خير نساءه كلهنّ دون أن يخبرهن باختيار عائشة فقلنّ مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهنّ".<sup>(١)</sup> فهل مثل هؤلاء الرّوجات يحتجنّ تحذير؟

(٤) وإنّ كنّ يحتجنّ إلى تحذير فقد حصل التّحذير في نفس سورة التّحريم بعد ذكر تظاهرنّ على النّبيّ صلى الله عليه وسلّم بالتلويح والتلميح والتّصريح إلى الطلاق والفرار ﴿ عسى ربّه إن طلقك أنّ يُبدله أزواجاً خيراً منك ﴾ [التّحريم ٥]. وهما من هُما ابنتا الصّدّيق والفرّوق وزوجتا الرّسول الكريّم صلى الله عليه وسلّم والمفضّلتا لديه من بين نسائه.

(٥) أمّا هذه الآية التي بين أيدينا فهي مثل وعبرة للكافرين ولكي تقطع على مشركي العرب ما كانوا يتّخذونه من أولياء وأنداد ليقربوهم إلى الله زُلفى من هُبل وولاتٍ وعزّى ومناةٍ وأصنامٍ أخرى. ولتقطع على اليهود الرّجاء في أنّ يشفع لهم عزيزاً الذي عبدوه واعتبروه ابن الله. سبحان الله عمّا يصفون. وكذا لتكذب النّصارى الذين يعبدون المسيح كإله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة وأنّه مُخلّصهم من ذنوبهم ومُجيرهم من دخول النّار. تعالى الله عمّا يشركون.

(١) أخرجه البخاري وابن أبي حاتم ورواه البخاري ومسلم عن الزهري عن عائشة.

والمثل فيه بيان عظيم أن لا أحد يملك من الله شيئاً وليس لأحد من دون الله من وليّ ولا واق. وهو بلاغ على رؤوس الأشهاد أنه يوم القيامة ﴿ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله ﴾ [الانفطار ١٩].

### مثلا المؤمنين:

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظّالمين ﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكُتِبَها وكانت من القانتين ﴿ [التّحريم ١١-١٢].

الطّرف الأوّل: (المشبّه): المؤمنون.

الطّرف الثاني: (المشبّه به): آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

وجه الشّبّه: لم يضرّ امرأة فرعون اتّصالها بفرعون وهو من أكفر الكافرين وكانت هي من المؤمنين. ولم يضرّ مريم ابنة عمران ما اتّهمها به اليهود وما أشاعوه عنها وعن ابنها ممّا برّأها الله منه وكانت من المؤمنين.



فأسية بنت مُزاحم امرأة فرعون كانت قد آمنت بموسى منذ أن أتى بآيتي العصا واليد. فاكتشف فرعون إيمانها.

قال بن جرير عن سلمان: كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشَّمس فإذا انصرف عنها زوجها أظلَّتْها الملائكة بأجنحتها وكانت تدعو الله أن يبني لها بيتاً في الجنَّة. فَرَأَتْ بيتها في الجنَّة فضحكت حين رآته فقال فرعون لمن حوله: ألا تعجبون من جنونها؟ إنَّا نَعذِّبها وهي تضحك. فقبض الله روحها في الجنَّة رضي الله عنها.

وهذه مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وحفظته وصانته وعقته. فبعث الله جبريل الأمين فتمثل لها في صورة رجل سوي. وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه<sup>(١)</sup> في جيب درعها<sup>(٢)</sup> فنزلت النفخة فولجت<sup>(٣)</sup> في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام. ومريم هي الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين. صدقت بكلمات ربها وكُتِبَها وصدقت بقدره وشريعته وكانت من العابدين القانتين لله عز وجل.

أكَّد الله سبحانه بهذه الأمثال في سورة التَّحريم أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن لا تزر وازرة وزر أخرى. فلا انتفاع ولا ضرر

(١) بفيه: أي ينفخ بفيه.

(٢) الدرع: هو ما تلبسه المرأة فوق الفستان ويكون فوق ملابسها الساترة.

(٣) فولجت: أي دخلت.

إلا بما صدر عن المرء نفسه. فلا ينتفع الكافر بقربته من المؤمن مهما بلغت درجة قرابته ولا يتضرر المؤمن بكفر قريبه. فما نفع امرأتا نوح ولوط حين كفرتا صلتهما الزوجية برسولين من رسل الله. وأن المؤمن لا يضره مخالطة الكافرين في الدنيا. كما لم يضر آسية بنت مزامح حين آمنت بالله أن كانت امرأة أعتى أهل الأرض وأكفرهم فرعون عليه لعنة الله. وأن المؤمن لا يضره عند الله قذف<sup>(١)</sup> أعداء الله له. فلم يضر مريم ابنة عمران قذف اليهود والفجار والفساق لها ولابنها. وذلك ليعلم الجميع أن الله حكّم عدل لا يؤخذ أحداً بذنب غيره ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كَمَلَ من الرجال كثير ولم يكْمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد<sup>(٢)</sup> على سائر الطعام"<sup>(٣)</sup>.

وذكر ابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّت خديجة فقال جبريل "إن الله يُقرؤها

(١) قذف: اتّهام باطل بغير دليل وترويج الإشاعات الباطلة.  
 (٢) الثريد: نوع من الطعام كان مشهوراً ومفضلاً زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنقَع فيه الخبز بمرقة اللحم ثم تضاف قطع اللحم أو الدجاج فوق الطعام وهو ما يعرف الآن بـ "الفَتّة".  
 (٣) أخرجه الشيخان.

السّلام ويبشّرها ببيت في الجنّة من قصب<sup>(١)</sup>. بعيد من اللّهب لا نصب<sup>(٢)</sup> فيه ولا صخب<sup>(٣)</sup> من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مُزاحم<sup>(٤)</sup>.

وفي الحديث بشارة عظيمة لخديجة أنّها ستكون زوجة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في الجنّة وأنّ الله يُقرّؤها السّلام وأنّ الله بنى لها بيتاً من ذهب في الجنّة جزاء بما قدّمت من نفسها ومالها للإسلام وما واسّت به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أثناء حياتها.

كما أنّ الحديث بشارة عظيمة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم أنّ زوجاته أمّهات المؤمنين هنّ زوجاته في الفردوس الأعلى وأنّ الله سيزوّجه بمریم (البكر) وآسية (الثيب) كما وعده في سورة التّحريم: ﴿ عسى ربّه إنّ طلقك أنّ يبدله أزواجاً خيراً منكّن مسلمات مؤمنات قانتات<sup>(٥)</sup> تائبات عابدات سائحات<sup>(٦)</sup> ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم ٥].

(١) القصب: هو الذهب.

(٢) نصب: تعب.

(٣) صخب: ضوضاء وصراخ.

(٤) أخرجه ابن عساكر في ترجمة مريم عليها السلام.

(٥) قانتات: مطيعات لأزواجهنّ.

(٦) سائحات: صوامات.

## من سورة القلم (٥١)

يوم يُكشَفُ عن ساق

يقول الحقّ سبحانه:

﴿ يوم يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السَّجودِ فلا يستطيعون ﴿١﴾  
 خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يُدْعَوْنَ إلى السَّجودِ وهم  
 سالمون ﴿٢﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكذِّبُ بهذا الحديث سنستدرجهم ﴿٣﴾  
 من حيث لا يعلمون ﴿٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴿٥﴾ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٦﴾ [القلم ٤٢-٤٥].

الحقيقة أنّي في منتهى السعادة وأنا أكتب عن هذا المثل لأنّه  
 فتح لنا نافذة إلى الآخرة وحملنا إلى أرض المحشر وإلى لقاء ربّنا  
 العزيز الكريم. وهل هناك أعظم من ذلك؟ وهل هناك أجمل من  
 ذلك؟ أن يلقى العبدُ ربّه الذي كان يقف بين يديه خاشعاً ليل نهار  
 طوال عمره على هذه الأرض الدّنيا. وهل هناك أروع من أن يرى  
 المؤمن ربّه ويستمتع بنور وجهه الذي أضاء السماوات والأرض  
 وليحقّق له ربّه كلّ ما وعده به وزيادة. وهذا المثل يُكتَبُ الآن عنه  
 لأوّل مرّة فلم يتطرّق إليه أحد من السابقين.

(١) كانوا يُدْعَوْنَ إلى السَّجودِ وهم سالمون: هذه الدعوة إلى الصلّة في الدنّيّا عن طريق الأذان.

(٢) سنستدرجهم: نأخذهم خُطوة خُطوة دون أن يشعروا.

(٣) أملي لهم: أمهلهم ليزدادوا إثماً.

ولكن أحب أن أبدأ الموضوع بالتأكيد على اعتقاد الفرقة  
الناجية المنصورة إلى قيام الساعة وهم أهل السنة والجماعة.  
فمعتقدهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد  
الموت والإيمان بالقدر خيره وشره.

ومن تفاصيل الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به سبحانه  
نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم  
من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل. بل يؤمنون  
بأن الله سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾  
[الشورى ١١].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن  
مواضعه ولا يُلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكتفون<sup>(١)</sup> ولا  
يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له  
ولا ند له ولا يُقاسُ بخلقه. وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره  
وأصدق قبيلاً وأحسن حديثاً من خلقه.

ثم رُسِلُ الله مُصَدِّقُونَ بخلاف الذين يفترون على الله الكذب  
وهم لا يعلمون. ولهذا سَبَّحَ اللهُ نفسه وزكَّى رُسُلَهُ فقال سبحانه  
﴿ سبحان ربِّ العزَّةِ عما يصفون ﴾ وسلام على المرسلين ﴿  
والحمد لله ربِّ العالمين ﴾ [الصافات ١٨٠-١٨٢].

(١) لا يكتفون: يؤمنون بما في القرآن والسنة دون الخوض في الكيفية.

فلا عُذول<sup>(١)</sup> لأهل السنّة والجماعة عمّا جاء به المرسلون فإنّه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصّالحين.

وأنقل لك في هذا المقام كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله وهو يوضّح عقيدة السلف الصّالح أهل السنّة والجماعة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى من بعدهم وأتبعهم بإحسان في كتابه القيم "العقيدة الواسطيّة".

يقول الشيخ رحمه الله: "القول في الصفات كالقول في الذات فإنّ الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. فإذا قال السائل كيف استوى على العرش؟

قيل له - كما قال ربّعة ومالك وغيرهما - : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيفيّة بدعة لأنّه سؤال عمّا لا يعرفه البشر ولا يعلمونه وهو غيب لا يمكنهم الإجابة عنه". [انتهى كلامه].

فعندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ... ﴾ [ص ٧٥]. أو عندما يقول سبحانه: ﴿ إن الذين يباعدونك إنّما يباعدون الله يدُ الله فوق أيديهم ... ﴾ [الفتح ١٠]. أو عندما يقول سبحانه: ﴿ واصبر فإنك بأعيننا ... ﴾

(١) فلا عُذول: لا خروج ولا اختلاف عمّا جاء به المرسلون.

[الطور ٤٨]. أو عندما يقول سبحانه: ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر ٢٢]. وغير ذلك من الآيات التي تدلّ على السمع والبصر والمجيء والتزول والكلام والغضب والعجب والسُّخْط والمكر والاستواء واليد والقدم وغير ذلك كثير من أسماء الله وصفاته وأفعاله. لا يجوز إخراجها عن لفظها ولا يجوز تأويلها<sup>(١)</sup> إلى معاني أخرى كالقوّة والقدرة والرّحمة وغيرها. كما لا يجوز تعطيلها وإنكارها. ولا يجوز تشبيهها بأيّ كائن كان. ولا يجوز تكييفها كأن نقول هي مثل كذا أو كذا. ويجب الإيمان بها كما وردت والإيمان بأنّ الله ليس كمثل شيء وهو السميع البصير. فلا السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ولا الوجه كالوجه ولا الاستواء كالاستواء. نؤمن بذلك كما نؤمن بالقوّة والقدرة والرّحمة وغيرها من صفات الله سبحانه.

هذه كانت مقدمة ضروريّة لشرح المثل. فعندما يقول الله سبحانه في آية المثل ﴿ يوم يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجود فلا يستطيعون ﴾ فنحن نؤمن بكشف الساق فهي علامة عظيمة وكلمة سرّ بين الحقّ سبحانه وبين عباده المؤمنين. ونؤمن بأنّ ليس الكشف ككشفنا ولا الساق كساقنا. والفعل ﴿ يَكشِفُ ﴾ يصحّ بفتح الياء للمعلوم ﴿ يَكشِفُ ﴾ كما يصحّ

(١) لا يجوز تأويلها: لا يجوز تفسيرها إلى شيء آخر.

بضمّ الياء للمجهول ﴿ يُكشَفُ ﴾. وعندما نرى هذه العلامة يوم القيامة نعرف أننا أمام ربنا حقيقة وأن المطلوب منا هو السُّجود له سبحانه سجود تحية وتشريف وتكريم ونحن نراه لأول مرة عياناً لا غيباً يقظة لا مناماً كما سجدت الملائكة لآدم سجود تشريف وتكريم ولم يكن سجود عبادة أو تكليف. وهو أيضاً سجود امتحان ليسجد كل من كان يسجد لله في الدنيا طواعية وحباً وتقرُّباً إلى الله. أمّا من كان يسجد لغير الله أو يسجد مُكرهاً أو تقيّة<sup>(١)</sup> أو رياء أو سمعة أو لا يسجد أصلاً فتصبح فقرات ظهره كأنها طبق معدنيّ أو يصبح عموده الفقري فقرة واحدة. كلّما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه<sup>(٢)</sup>. فهو سجود امتحان ليميز المؤمنين عن غيرهم<sup>(٣)</sup> من الكفار والمنافقين في أرض المحشر.

والآن إلى أرض المحشر مع حديث قدسيّ رواه أبو سعيد الخدريّ وأخرجه الإمام مسلم وهو في الصحيح. وما نقله هنا بين الفواصل هو جزء من حديث طويل.

إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد. ثم تمرّ صور المعبودات على الأرض أمام الناس. فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب أو يعبد شمساً أو قمراً

(١) تقيّة: خوفاً من أذى الناس.

(٢) خرّ لقفاه: وقع على ظهره.

(٣) ليميز المؤمنين عن غيرهم: للفصل بين المؤمنين وغيرهم.



أو بشراً كعزير أو المسيح إلا ويتبعوا معبودهم حتى يتساقطون في  
النار أفواجاً بعد أفواج.

والآن يبدأ الحديث القدسي:

" حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برّ وفاجر  
أناهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه  
فيها<sup>(١)</sup>. قال: فماذا تنتظرون؟ لَتَتَّبِعَ كُلَّ أُمَّةٍ ما كانت تعبد. قالوا: يا  
ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم<sup>(٢)</sup>.  
فيقول أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً  
يكرروها مرتين أو ثلاثاً حتى إنّ بعضهم ليكاد أن ينقلب<sup>(٣)</sup>. فيقول:  
هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم. فيكشف عن  
ساق فلا يبقى ممّن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له  
بالسُّجود. ولا يبقى ممّن كان يسجد اتِّقَاءً ورياءً<sup>(٤)</sup> إلا جعل الله

(١) في أدنى صورة من التي رأوه فيها: أي أتى في صورة مختلفة عن الصورة المعروفة للمؤمنين  
في الدنيا وهي صورة ﴿ ليس كمثل شئء وهو السميع البصير ﴾.

(٢) فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم: أي أننا فارقنا من كفر بالله من  
أقربائنا في الدنيا ونحن أحوج ما نكون إليهم وذلك سمعاً وطاعة لك كما أمرتنا ﴿ يا أيها الذين  
آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان ... ﴾ [التوبة ٢٣].

(٣) حتى إنّ بعضهم ليكاد أن ينقلب: ليكاد يبتعد عن الصواب من شدة الامتحان الذي هو  
فيه. فمن عاش طول عمره حريصاً على ألا يشرك بالله شيئاً هو الآن في أشدّ الخوف أن يأتي في  
الخطوة الأخيرة ويشرك. والحقيقة أنّ الجميع في هذا الموقف يحتاج إلى تثبيت الله له.  
﴿ يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... ﴾ [إبراهيم ٢٧].

(٤) اتِّقَاءً ورياءً: من كان لا يصلي لله في الدنيا أو يصلي خوفاً من عقاب دنيويّ أو مراعاة للناس  
فلن يسطيع السجود في هذا الموقف وسينضم إلى المنافقين.

ظهره طبقة واحدة<sup>(١)</sup> كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه. ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أوّل مرّة<sup>(٢)</sup> فقال: أنا ربّكم. فيقولون أنت ربّنا".

ونعود للمثل:

**الطرف الأوّل: (المشبهه):** المؤمنون إذا دخلوا على ربّهم يسجدون له سجود تحية وتشريف وتكريم وعرقان بنعمة الإسلام ونعمة قبول الطاعات ونعمة النجاة من النار ونعمة دخول الجنّات ونعمة النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه.

**الطرف الثاني: (المشبهه به):** غير المؤمنين يركعون ويسجدون إمّا لملوك الدنيا وأباطرتها<sup>(٣)</sup> طمعاً في مصلحة دنيوية أو يسجدون لشجر أو حجر أو شمس أو قمر أو يعبدون الملائكة والجنّ والشياطين.

**وجه الشبه:** صورتان متضادّتان: المؤمنون لا يسجدون إلّا لخالقهم. وغير المؤمنين يتذلّلون لبشر مثلهم من أجل عرض زائل<sup>(٤)</sup> من أعراض الدنيا.

(١) جعل الله ظهره طبقة واحدة: يصبح كأنّ في ظهره بدل العمود الفقريّ سيخ من حديد لا ينثني.

(٢) تحوّل في صورته التي رأوه فيها أوّل مرّة: أزال المانع لهم من رؤيته وتجلّى لهم على حقيقته سبحانه فعرفوه وأقروا له بالربوبية "أنت ربّنا".

(٣) أباطرة: جمع "إمبراطور" بمعنى ملك أو رئيس كانت مستخدمة أيام الاستعمار.

(٤) عرض زائل: مطلب أو مصلحة دنيوية لا دوام لها.

المؤمن يعلم أنّ العزّة لله جميعاً يَهَبُ منها لرسله ولعباده المؤمنين. له ملك السماوات والأرض. ويوم القيامة يطوي الله السماوات والأرض بيده ثم يقول: أنا الملك. أنا الجبّار. أنا المتكبرّ. أين ملوك الأرض؟ أين الجبّارون؟ أين من كان يخافه النّاس في الدُّنيا؟ لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرّات ولا مجيب. ثم يجيب نفسه سبحانه قائلاً: ﴿لله الواحد القهار﴾.

قد يتوهّم البعض من هذا الحديث أنّ المنافقين يرؤن الله تعالى مع المؤمنين وهذا وهم باطل. المنافقون والكافرون لا يرؤن الله ولا يكلمهم سبحانه ولا يستعتبهم وذلك بإجماع علماء المسلمين. كما أنّه ليس في هذا الحديث إشارة أو تصريح برؤية المنافقين لله سبحانه وتعالى.

والآن جاء دور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليفسّر لنا المثل في حديث صحيح مشهور أخرجه الشّيخان البخاري ومسلم وغيرهما.

عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان في الدُّنيا يسجد رياءً وسُمعةً فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً".

ولا حاجة لذكر تفاسير أخرى بعدما فسّر الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم كشف السّاق. فإذا قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في حديث صحيح فلا قول بعد قوله. فمن ذا الذي يُوحى إليه بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟

## من سورة المدثر (٥٢)

### المُلحدون والجاحدون في إعراضهم عن القرآن

قال الحق سبحانه:

﴿ فما لهم عن التذكرة مُعْرِضِينَ ﴿ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ <sup>(١)</sup> ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ <sup>(٢)</sup> ﴿ بَلْ يَرِيدُ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ صَحْفًا مُنْشَرَةً <sup>(٣)</sup> ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [المدثر ٤٩-٥٣].

هذا مثل مكّيّ ضربه الله لرؤوس الكفر وطواغيت الشُّرك من كفّار مكّة الصامّين آذانهم عن الحقّ الفارّين من الوعظ والهداية بأنّهم كالحُمُر الوحشيّة التي تَنْفِرُ وتهرب من الصيّادين والرماة ومن قطع الأسود الكواسر. فتصوّر معي هذا المثل إنسان يهرب ممّا ينفعه إلى ما يهلكه. يهرب من الهداية إلى الضلال ومن الخير إلى الشرّ ومن الطريق المستقيم إلى المعوجّ ﴿ أمّ تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنّ هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴿ [الفرقان ٤٤].

قال صاحب أمثال ونماذج بشريّة: "إنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به جبريل الأمين على قلب خاتم النبيّين صلّى الله

(١) حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ: حُمُرٌ جمع حمار وهي جاهزة للهرب.

(٢) قسورة: اسم من أسماء الأسد.

(٣) يؤتى صحفاً منشرة: يريد قرآناً خاصاً به وعلى اسمه.

عليه وسلّم يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم. وهو نور لمن آمن به وشفاء لمن استشفى به وعصمة لمن تمسك به وعمل بما فيه ونجاة لمن اتبعه ورحمة وعظة وشفاء لما في الصدور من الشُّبّه والشُّكوك.

دعا النبي صلّى الله عليه وسلّم الناس إلى توحيد الله والدّخول في الإسلام وقرأ عليهم القرآن فمنهم من آمن ونفعته العِظّة ومنهم من تكبّر ونفر وأعرض واختار الضلالة فقبّح عمله<sup>(١)</sup> وخاب سعيه وخسر خسراً مبيناً وضلّ ضلالاً بعيداً. فقد قبّح الله أعمال المُعْرِضين عن البرهان وعن هداية القرآن وضرب لهم مثلاً يكشف عن نزقهم<sup>(٢)</sup> وسوء تفكيرهم وعدم تدبّرهم ما ينفعهم". [أحمد طاحون ج ٢ ص ٥٠]. [انتهى].

**الطرف الأوّل: (المشبهه):** الملحدون والجاحدون والهاربون من النّور إلى الظُّلمات.

**الطرف الثاني: (المشبهه به):** الحُمز الوحشيّة إذا عاينت<sup>(٣)</sup> أو شعرت بالصياد أو الأسد أو أيّ كاسر<sup>(٤)</sup> يريد صيدها.

**أداة التشبيه: كلمة كأنّ.**

(١) قبّح عمله: ساء عمله.

(٢) نزقهم: استعلائهم واستكبارهم.

(٣) عاينت: رأت رؤيا العين.

(٤) كاسر: حيوان مفترس.

وجه الشبه: تصوّر نفسك تدعو مُلجداً إلى الهداية والإيمان والتّوحيد وترجو له الخير وتدعوه إلى ما ينفعه في دنياه وآخرته وتحذّره مما يضرّه ويهلكه وتبصّره بالحقّ والطّريق المستقيم وتضرب له الأمثال وتسوق له البراهين وتخاطب منه العقل والقلب وتحاول إخراجَه من الحَيْرَة والضلال والظلمات إلى الهداية والنّور وتحاول أن تنجده وتطفئ ما به من حريق فتراه ينفر منك ويصمّ أذنيه عن سماع الحقّ والنّصيحة ويغمض عينيه حتى لا يرى النور ويفرّ مولياً كما تفرّ الحُمُر الوحشيّة إذا رأت الصياد في سرعة وطيّش. وهو تشبيه من الواقع الملموس. وقد كان العرب يضرّبون الحُمُر الوحشيّة مثلاً في النّفار والشرود عندما يفاجئها الصيادون بحبالهم ونبالهم.

"شبههم في إعراضهم عن القرآن بحُمُرٍ رأت كاسراً أو صياداً ففرّت منه. وهذا من بديع التمثيل. فإنّ القوم من جهلهم بما بعث الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم كالحُمُر لا تعقل شيئاً ولا تميّز بين ما يضرّها وما ينفعها. فإذا سمعت صوت الأسد أو شعرت بوجود الصياد نفرت منه أشدّ النّفور. وهذا في غاية الدّم لهؤلاء فإنّهم نفروا من الهدى إلى الضلال وأعرضوا عمّا فيه سعادتهم وحياتهم كإعراض الحُمُر عمّا يعقرها ويهلكها" [ابن القيم].

[انتهى].

والمثل هنا في الأصل معنويّ تمّ تصويره حسياً ونفسياً. وكأنّك ترى هؤلاء المخدولين المحرومين من الهداية الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ولم يرد أن يجعل لهم حظاً في الآخرة. تراهم كلّما اقترب منهم داعياً أو ناصحاً أو رسولاً أو عالماً واعظاً أو أمراً بالقسط نفروا منه فتقفز إلى رأسك صورة الحُمُر الوحشيّة وكأنّك ترى المشهد يمرّ أمام عينيك.

والغرض من هذا التمثيل تصوير حال المعرضين عن هداية القرآن الكريم في صورة الطّيش وعدم التعقّل وعدم التدبّر. فالإنسان السويّ يسمع ما يُعرضُ عليه ثم يتدبّره ويزنه بعقله في ميزان المصالح وجلب الفوائد لنفسه في الدّنيا والآخرة فإن رجحت الفوائد فنعماً هي. وإن زادت الأضرار والمفاسد على المصالح كان هناك الحوار الهادئ العقلانيّ حتّى يُقنِعَ طرفُ الطرف الآخر أو يكون الاعتذار عن القبول بالأدب والحكمة مع بيان الأسباب. وقد قبّح المثل صورة المعرضين وذمّهم لرفضهم كلّ جديد لمجرد أنّهم ألقوا غيره ويصعب عليهم الخروج عن موروث آبائهم وأسلافهم ويصعب عليهم التحرّر من قيود عاداتهم وتقاليدهم. وهذا الموقف يذكّرنا بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهو يدعو عمّه أبو طالب أن يقول "لا إله إلاّ الله" وهو على فراش الموت فيأبى إلاّ أن يموت على دين عبد المطلب!!



ومن أغراض هذا المثل التأكيد على أنّ المؤمن الحق لا يهجر القرآن فَبَيِّنَ آيات القرآن يَكْمُنُ الهدى والنور والذِّكْرَى والشِّفَاء والهداية والاطمئنان والأجر العظيم. والقرآن هو حبل الله المتين الذي أوّله بأيدينا في هذه الدّنيا وآخره بيد الله وكلّما قرأنا آية من آيات الله وتدبرنا معناها وحفظناها وعملنا بها وعلمناها لغيرنا صعدنا درجة على هذا الحبل حتى نصل جنّات النّعيم. ونعود إلى المثل وتقاطعاته. هل صرّح المثل بسبب نفور هؤلاء القوم وإعراضهم عن الله؟ نعم. بالتأكيد. قال تعالى: ﴿ بل يريد كلّ امرئ منهم أن يؤتى صُحُفًا مُنشِرة ﴾ لقد بيّن المثل بكلّ وضوح أنّ سبب إعراضهم ليس قصوراً في القرآن وليس إتهاماً لمن جاءهم بالقرآن بل عناداً وجحوداً وصُلْفاً وتكبراً. إذ طلب زعماء المعاندين كأبي جهل وأمثاله من قريش أن يأتيهم محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بكتاب من ربّ العالمين مكتوب فيه أنّي قد أرسلت إليكم محمّداً صلّى الله عليه وسلّم. أي أنّ كلّ امرئ منهم يريد أن يأتيه قرآناً خاصّاً به ومذكور فيه اسمه. ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ۝ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ۝ أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ۝ أو يكون لك بيت من خرف

أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴿  
[الإسراء ٩٠-٩٣].

قال ابن عباس: كانوا يقولون: إن كان محمداً صادقاً فليصبح  
عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. [انتهى].  
ومقصودهم أن يحصلوا على براءة ونجاة من عذاب جهنم  
قبل أن يعملوا العمل المنجّي منها. وهذا حال قصار النظر الذين  
يطلبون النتيجة قبل البداية وقبل الأخذ بالأسباب ويريدون بلوغ  
الغاية قبل تكلف المسير إليها. ولذلك كان جواب رب العالمين  
﴿ كلاً ﴾ لن يكون ذلك ولن يحصلوا على ما يتمنون لأنهم لا  
يخافون الآخرة وغرتهم الدنيا. ﴿ كلاً بل لا يخافون الآخرة ﴾.  
وقد لخص الله سبحانه القضية في آيتين من سورة فاطر:  
﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم<sup>(١)</sup> لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى  
من إحدى الأمم<sup>(٢)</sup> فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴿ استكباراً  
في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل  
ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة  
الله تحويلاً ﴾ [فاطر ٤٢-٤٣].

(١) جهد أيمانهم: غاية أيمانهم. أي أقسموا أيماناً مغلظة.

(٢) أهدى من إحدى الأمم: أي أهدى من جميع الأمم السابقة التي أرسل إليها رسل.

من سورة البلد (٥٣)

## عقبَةُ الدُّنْيَا ... وَعقبَةُ الآخِرَةِ ... وَأصحابُ اليمين

قال الحقّ سبحانه:

﴿ فلا اقتحم العقبة <sup>(١)</sup> وما أدراك ما العقبة ○ فكُ رقبة ○ أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة <sup>(٢)</sup> ○ يتيمًا ذا مقربة ○ أو مسكينًا ذا متربة <sup>(٣)</sup> ○ ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ○ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ [البلد ١١ - ١٨].

هذه آيات مكيّة ومثل مكيّ يتطرّق إلى مصير الإنسان في هذه الدُّنيا وفي الآخرة. فهو يناقش أعظم ما في حياة الإنسان وينير له طريق السّلامة في الدّارين ويحلّ له أعظم مشكلة تواجهه. كيف الطّريق إلى النّجاة وكيف السّبيل إلى السعادة الأبدية؟ ولتكنّ البداية بشرح الآيات:-

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾: والاقترحام هو الدُّخول في الشيء بشدّة وقوّة ومشقّة ومجاهدة. والعقبة هي الطّريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها.

**وبهذا نصل إلى طرفي المثل:**

(١) فلا اقتحم العقبة: المقصود بالعقبة هنا عمل الصالحات لأنّ هذا العمل في الدُّنيا سبب

للنّجاة من جهنّم وما فيها من عقبات ومعاناة.

(٢) يوم ذي مسغبة: تطعم جائعاً في مجاعة.

(٣) مسكيناً ذا متربة: مسكيناً لا يملك شيئاً.

الطَّرْفِ الأوَّل: (المشبهه): الأعمال الصَّالحة في الدُّنيا وصعوبة تحقيقها.

الطَّرْفِ الثَّانِي: (المشبهه به): العقبة وكَيْفِيَّة اجتيازها.

وهنا تمَّ استعمال المشبه به بدلاً من المشبه وحُذِفَ المشبه فلم يعد هناك حاجة لاستعمال أدوات تشبيهه. فبدلاً من أن يقول "اقتحِم الأعمال الصَّالحة في الدُّنيا وذلك جميع الصَّعوبات والعقبات التي قد تقف في طريقك وتمنعك من تحقيق ذلك". بدلاً من ذلك قال: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾.

وجه الشبهه: قال ابن زيد: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ تعني: أفلا يسلك الإنسان الطَّرِيق التي فيها النِّجاة والخير وخاصَّة أن الحقَّ سبحانه بيَّنَّها وفصَّلها فقال ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ فكُ رِقْبَةٌ أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أو مسكيناً ذا متربة ﴿. فقد جعل الحقَّ سبحانه عمل الصَّالحات عقبة وعملها اقتحاماً لها لما في ذلك من معاناة المشقَّة ومجاهدة النفس والهوى والدُّنيا والشيطان. أي: فهلاً جاهد الإنسان نفسه والشيطان وعمل أعمال البرِّ. وقد ضرب الله العقبة مثلاً لهذا الجهاد.

قال الحسن: هي والله عقبة شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه

وهواه وعدوّه الشيطان. [انتهى]. وأنشد بعضهم:

إِنِّي بُلِيْتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينِي      بِالتَّبَلِّ قَدْ نَصَبُوا عَلَيَّ شِرَاكَ  
 إبليس والدُّنْيَا ونفسي والهوى      من أين أرجو بينهنَّ فِكاكَ  
 يا ربِّ ساعدني بعفوِّ إنِّي      أصبحت لا أرجو لهنَّ سواكَ  
 ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾: إنَّكَ لا تدرك مدى صعوبة هذه العقبة  
 على النَّفس لحاجتها إلى المجاهدة والصَّبر. ولم تدرك مدى حقيقة  
 ثوابها عند الله. ثم أرشد سبحانه إلى أنَّ اقتحامها في الدُّنْيَا يكون  
 بفعل أصناف من الخير مع صدق الإيمان وسلامة اليقين.  
 فإذا اقتحم المؤمن العقبة في الدنيا وجاهد نفسه وصبر عن  
 معاصي الله وصبر على طاعة الله سَهَّلَ عليه اقتحام العقبة في  
 الآخرة.

قال الحسن وغيره: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر  
 فاقتحموها بطاعة الله. وقال مجاهد وغيره: هي الصراط يُضرب  
 على متن جهنم كحدِّ السِّيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة واقتحامه  
 على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء. وقيل اقتحامه على  
 المؤمن قدر ما يصلي صلاة المكتوبة. وقال ابن عمر: هذه العقبة  
 جبل في جهنم. وقيل: النَّار نفسها هي العقبة. وعن أبي الدرداء: إنَّ  
 وراءنا<sup>(١)</sup> عقبة أنجى الناس منها أخفهم حملاً.

(١) وراءنا: يقصد أماننا في الآخرة.

وأنا أعتقد أنّ قول مجاهد هو الأصح والأقرب إلى العقل والمنطق. لأنّ من يجتاز الصّراط فلا عقبات بعده ويكون الشخص قد وصل إلى باب الجنّة. أمّا باقي الأقوال فتحدّث عن تفاصيل في داخل جهنّم لا علاقة للمؤمن بها.

﴿ فُكُّ رَقَبَةٍ ﴾: وإنّ من أعظم أبواب الخير بعد صدق الإيمان وطاعة الرحمن وأداء الفرائض أنّ يفكّ المؤمن الرّقبة بتخليصها من الرّق بعثقها أو الإعانة على عثقها. وقد وردت في فضل العتق آثار كثيرة وهذا يرشد إلى ميل الإسلام إلى الحرّيّة وجفوته<sup>(١)</sup> للأسر والعبوديّة.

وفي الحديث الذي رواه البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله دلّني على عمل يُدخِلني الجنّة. قال: "اعتق النّسمة وفكّ الرقبة". قال الرجل: أوليساً واحداً؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: "لا. إنّ عتق النّسمة أن تنفرد بعثقها. وفكّ الرقبة أن تُعين في عثقها"<sup>(٢)</sup>.

﴿ أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة<sup>(٣)</sup> ﴾

(١) جفوته: كراهيته وبُغده عنه.

(٢) أخرجه أحمد وغيره.

(٣) المسغبة: المجاعة.

وفسره ابن عباس بأنه الجوع دون قيد. أي أنه لا يُشترط أن يكون الجوع عاماً ينتشر في أنحاء البلد. فيكفي أن يكون الشخص الذي تطعمه يعاني من الجوع. وفي الأثر: "من موجبات الرّحمة إطعام المسلم السّغبان"<sup>(١)</sup>.

﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾

وفي إطعام اليتيم ذي القرابة هو جمع بين الصدقة والصلة وفيهما من الأجر والثواب ما فيهما.

﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾

أي الذي لا يملك شيئاً حتى كأنه لصيق بالتُّراب من الفقر ليس له مأوى إلا التُّراب. وقال ابن عباس: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال غيرهما: هو صاحب المرض المزمن الذي لا يُرْجى بُرؤُه<sup>(٢)</sup>. وفي قول آخر لابن عباس: هو الغريب البعيد عن وطنه. والحقيقة أنّ التّعريف الأوّل الخاصّ بالفقر يشمل كل الفروع الأخرى ويكفي لوحده سبباً.

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾

أي من فعل هذه الأشياء وتّصف بهذه الأوصاف الجميلة الطّاهرة وهو مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله عزّ وجلّ

(١) السّغبان: الجائع.

(٢) المرض المزمن الذي لا يُرْجى بُرؤُه: الميئوس من شفاء أمراضهم وأصحاب العاهات.

ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة.

﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة أولئك أصحاب الميمنة ﴾  
 أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً المتواصين بالصبر على طاعة الله وبالصبر عن معاصي الله وعلى ما أصابهم من البلى والمصائب وتواصوا بالرحمة بالخلق فالراحمون يرحمهم الرحمن سبحانه وتعالى. هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين يُؤْتُونَ كتبهم بأيمانهم يوم تطاير الكتب وذلك لصدق إيمانهم وإخلاصهم الطاعة ورحمتهم اليتيم والمسكين وشفقتهم على كلّ ضعيف وتواصيتهم بالصبر والرحمة.

إنّ العبد الذي يقوم بهذه الأعمال الجليلة لا يُعَدُّ ممّن اقتحم العقبة حتى يكون من الذين آمنوا وأخلصوا وصدقوا فإنّ شروط قبول الطاعات: الإيمان بالله والتّصديق بجميع الأنبياء والمُرسلين وبما جاءوا به ومصحوباً بصدق النية وطهارة النفقات.

انتهى الموضوع. ولكنْ أجد في نفسي سؤالاً لم أطرّحه حتّى الآن. وهو: كيف لي أن انتصر على خصوم أربعة أشدّاء بعضهم جزء مني؟ ربّما كان من السهل نسبياً أن ينتصر الشّخص على الشّيطان لأنّه لا سلطان له على المؤمنين وليس له سلاح سوى الوسوسة والتّزيين. ولكنْ كيف انتصر على نفسي وعلى هواي وعلى شهواتي وعلى ما حولي من الدّنيا؟ ولأكون صادقاً مع نفسي فأنا



أضعف من أن انتصر عليهم. ولأكون صادقاً مع قُرَّائِي فالأمر جدّ صعب ومن لم يُثَبِّتْهُ اللهُ فمن أين له أن يَثْبُتَ وحتماً ستزلّ قدمه فابن آدم خُلِقَ ضعيفاً وخطّاءاً.

يقول الحقّ سبحانه: ﴿ يَثْبُتَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم ٢٧].

فمن يُثَبِّتَهُ اللهُ فهنيئاً له الحصن الحصين الذي يحتمي به ومن لم يَثْبُتَهُ اللهُ فحتماً ستزول سماء إيمانه وأرض إيمانه عن مكانهما. وقد قال اللهُ سبحانه لأكرم خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَاكَ لَقَدِ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ٧٤].

ومادة التثبيث وأصله ومنشأه من القول الثابت والعمل الصادق. فمن كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً. والقول الثابت هو الحق والصدق. وما مُنِحَ العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت. ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في حياتهم وما يواجهون من مواقف صعبة وفي قبورهم عند فتنة القبر وضمة القبر وسؤال المَلَكَيْنِ. وبعد بعثهم ونشورهم فمن أين للعبد نوراً وسط ظلمات يوم القيامة إن لم يَهَبُهُ اللهُ نوراً؟ وما موقف الإنسان الضعيف حين يُؤْتَى بجَهَنَّمَ لها سبعون ألف زمام، كلّ زمام يجرّه سبعون ألف ملك؟ وكيف له أن

يُثْبِتُ عند الميزان والموازن تخفّ وتثقل بما لا يعلم الإنسان؟  
وكيف به عند تطاير الصحف وهو لا يدري أتأتيه صحيفته عن  
يمينه أو من وراء ظهره؟ وكيف حاله على الصراط والخطاطيف  
عن اليمين وعن الشمال؟

وخلاصة القول أنّ من كان سالكاً الطّريق المستقيم في الدّنيا  
سهلَ عليه اجتياز الصّراط المستقيم في الآخرة فذاك امتدادٌ  
لهذا. ومن اجتاز الصراط فلا عقبات ولا دركات ولا ندامات في  
طريقه. فما أمامه سوى الجنّات والنعيم المقيم.

أسأل الله العظيم الكريم أن يُثبّتنا وجميع المسلمين  
والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات بالقول الثابت والعمل  
الصّالح في الدّنيا وعند سؤال المَلَكَيْنِ وعند تطاير الصحف وعند  
الميزان وعند الجواز على الصّراط. اللهمّ آمين.

## مراجع الكتاب

- (١) القرآن الكريم  
وبهامشه تفسير كلمات القرآن الكريم  
عناية/ محمود شاكر
- (٢) رياض الصّالحين من كلام سيّد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم  
تأليف الإمام/ أبو زكريّا يحيى بن شرف الدّين النّوّوي.  
تحقيق وتعليق/ أسامة عبد الفتاح البطة
- (٣) مختصر صحيح البخاري المسمّى التجريد الصّريح لأحاديث  
الجامع الصّحيح  
للإمام/ زين الدّين أحمد بن عبد اللطيف الزّبّيدي.
- (٤) مختصر معاني مفردات القرآن الكريم  
تأليف/ محمّد سند الطّوخي
- (٥) مختصر تفسير ابن كثير - ثلاثة أجزاء  
للإمام الحافظ/ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير  
الدمشقي.  
اختصار وتحقيق / محمّد علي الصّابوني
- (٦) الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّنزيل  
لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ
- (٧) أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم - الجزء الأول والثاني  
للأستاذ/ أحمد بن محمّد طاحون
- (٨) الأمثال في القرآن الكريم  
للدكتور/ محمّد جابر الفيّاض
- (٩) الأمثال عن النبي المختار من الكتاب والسنة  
للشيخ/ عبد الحميد كَشْكُ
- (١٠) الأمثال في القرآن الكريم  
لشيخ الإسلام أبي عبد الله شمس الدّين محمّد ابن أبي بكر  
الحنبليّ الدمشقيّ المعروف بابن القيم.

- (١١) معجزة القرآن - ثمانية أجزاء  
للإمام/ محمد متولي الشَّعراوي
- (١٢) الأمثال القرآنية  
للدكتور/ محمد بكر إسماعيل
- (١٣) محرّمات استهان بها النَّاس  
تأليف/ محمد صالح المنجد
- (١٤) الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة - ثلاثة مجلدات  
للدكتور/ محمد بكر إسماعيل
- (١٥) صحيح الأحاديث القدسيّة وشرحها  
تحقيق/ محمود بن الجميل  
مراجعة/ طه عبد الرؤوف سعد
- (١٦) الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون  
العلامة/ أحمد بن يوسف المعروف بالسّمين الحلبي
- (١٧) العقيدة الواسطيّة  
لشيخ الإسلام/ ابن تيميّة
- (١٨) البداية والنهاية  
للإمام الحافظ/ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير  
الدمشقيّ
- (١٩) موسوعة الحديث على النّت - المُستدرك على الصّحّيحين -  
كتاب الأهوال  
إسلام ويب دوت كوم [www.Islamweb.com](http://www.Islamweb.com)

## خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به علينا في هذا الكتاب وقد تمّ بحمد الله وجوده وكرمه وتوفيقه على الوجه الذي يُرضي ربّنا إن شاء الله.

نسأل الله العليّ القدير أن يتقبّل منّا جهدنا المتواضع وأن يتجاوز عن زلّاتنا. وأن يجعل في هذا العمل وفي هذا الجهد البركة والعلم والفائدة والمتعة والقبول. وأن يجعله صدقة جارية لنا في حياتنا وبعد مماتنا وإلى أن نلقى ربّنا. ونسأله سبحانه أن يُلبّسنا نوراً نزيّين به وجوهنا وقلوبنا وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين والمؤمنات. وأن يبدّل سيئاتنا حسنات. ونسأله سبحانه أن يمنحنا وكلّ من ساهم في إخراج هذا الكتاب وكلّ من قرأه وتدبّره لقب "عالم". هذا اللقب الذي لم أَسع إليه إلاّ لأنّ المانح له هو قيّوم السماوات والأرض عزّ وجلّ. وصلى الله وسلّم وبارك على الحبيب المصطفى سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف

أبو سامر جابر كامل بشير

مدينة نصر

ديسمبر ٢٠١٨ م

الموافق ربيع الأوّل ١٤٤٠ هـ

## فهرس محتويات الكتاب

رقم الصفحة	اسم الموضوع أو المثل	اسم السورة	رقم المثل
٢	آيات قرآنية تمهيدية		
٤	تعريف المثل لغة واصطلاحاً		
٦	لماذا ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز؟		
١٠	أنواع الأمثال : وما يهمننا منها		
١٢	أمثال القرآن ..... مواكب الإيمان		
١٤	آيات تحوى كلمة "مَثَلٌ" وليست بأمثال بل هي إشارات لأمثال		
١٧	مقدمة المؤلف		
٢١	مثلا المنافقين في سورة البقرة	البقرة	١
٢٨	من علم اليقين ... إلى عين اليقين	البقرة	٢
٣٦	مثل الكافرين وأوثانهم	البقرة	٣
٤٢	لسان أحلى من العسل وقلب أمر من العلقم	البقرة	٤
٤٨	والله يضاعف لمن يشاء ... والله واسع عليم	البقرة	٥
٥٦	مُخَبَّطَاتِ الْأَعْمَالِ	البقرة	٦
٦٣	جَنَّةُ بَرَبِوَةِ	البقرة	٧
٧٠	السلامة في الإخلاص والاستقامة	البقرة	٨
٧٨	أولياء الله ..... وأولياء الطَّاغوت	البقرة	٩
٨٣	وأحلّ الله البيع وحرم الربا	البقرة	١٠
٩١	مثل عيسى كمثل آدم	آل عمران	١١
٩٨	حبل الله المتين	آل عمران	١٢
١٠٤	يوم تبيضّ وجوه ... وتسودّ وجوه	آل عمران	١٣
١١١	اليهود يحاربون المسلمين بأموالهم وليس برجالهم	آل عمران	١٤

رقم الصفحة	اسم الموضوع أو المثل	اسم السورة	رقم المثل
١١٩	سبحانه ... فعّال لما يريد	الأنعام	١٥
١٢٤	الأرض الطيّبة والأرض الخبيثة	الأعراف	١٦
١٢٩	النموذج البلعاميّ	الأعراف	١٧
١٣٦	مثل الحياة الدُّنيا	يونس	١٨
١٤٦	عمر الحياة الدُّنيا	يونس	١٩
١٥١	الأشقياء .... والسُّعداء	هود	٢٠
١٥٧	كمعتوه يبسط كَفْيَه إلى الماء	الرعد	٢١
١٦٣	مثلا المؤمنين في سورة الرّعد	الرعد	٢٢
١٦٩	الجنةُ أَكُلها دائمٌ وظلّها	الرعد	٢٣
١٧٥	أعمال الكافرين ... رماد في مهبّ الرّيح	إبراهيم	٢٤
١٨٠	الكلمة الطيّبة ... شجرة طيّبة	إبراهيم	٢٥
١٨٧	الكلمة الخبيثة ... شجرة خبيثة	إبراهيم	٢٦
١٩٣	مثل الله سبحانه وما يعبدون من دونه	النحل	٢٧
٢٠٠	كفرت فأذاقها الله الجوع والخوف	النحل	٢٨
٢٠٩	المغتترّ بدنياه .. والمعتترّ بدينه	الكهف	٢٩
٢١٨	إنّ الذي أحيّاها لمحّي الموتى	الحج	٣٠
٢٢٥	خاسر الدّنيا والآخرة	الحج	٣١
٢٣٢	مصير المشرك بالله	الحج	٣٢
٢٣٩	عجز المعبودات من دون الله	الحج	٣٣
٢٤٤	أعمال الكافرين ... سراب وظلمات	النور	٣٤
٢٥٢	نور الإيمان في قلب المؤمن	النور	٣٥
٢٥٨	تَعَسَ وخاب .. عابد هواه	الفرقان	٣٦
٢٦٣	مُهْتَرئة .. واهنة .. كخيوط بيت العنكبوت	العنكبوت	٣٧
٢٦٩	الشُّرك ... جريمة عظمي	الروم	٣٨

رقم الصفحة	اسم الموضوع أو المثل	اسم السورة	رقم المثل
٢٧٥	كذلك نجزي كلّ كفور	يس	٣٩
٢٨١	المشرك ... والموحد المخلص	الزمر	٤٠
٢٨٧	نفوس غير مطمئنة ... وغير قانعة	فصلت	٤١
٢٩٥	قياس باطلٍ باطلٍ	الزخرف	٤٢
٣٠٣	أنهار الجنة	محمد	٤٣
٣١٠	أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الكتب السماوية	الفتح	٤٤
٣٢٣	المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً	الحجرات	٤٥
٣٢٩	القرآن حياة القلوب وشفاء لما في الصدور	الحديد	٤٦
٣٣٨	الجبل خاشع متصدع من خشية الله	الحشر	٤٧
٣٤٧	المؤمنون بعضهم أولياء بعض	المتحنة	٤٨
٣٥٦	اليهود يحملون التوراة	الجمعة	٤٩
٣٦٣	ليس للإنسان إلا ما سعى	التحريم	٥٠
٣٧٢	يوم يُكشَفُ عن ساق	القلم	٥١
٣٨١	الملحدون والجاحدون في إعراضهم عن القرآن	المدثر	٥٢
٣٨٧	عقبة الدنيا ... وعقبة الآخرة ... وأصحاب اليمين	البلد	٥٣
٣٩٥	مراجع الكتاب		
٣٩٧	خاتمة الكتاب		
٣٩٨	فهرس محتويات الكتاب		